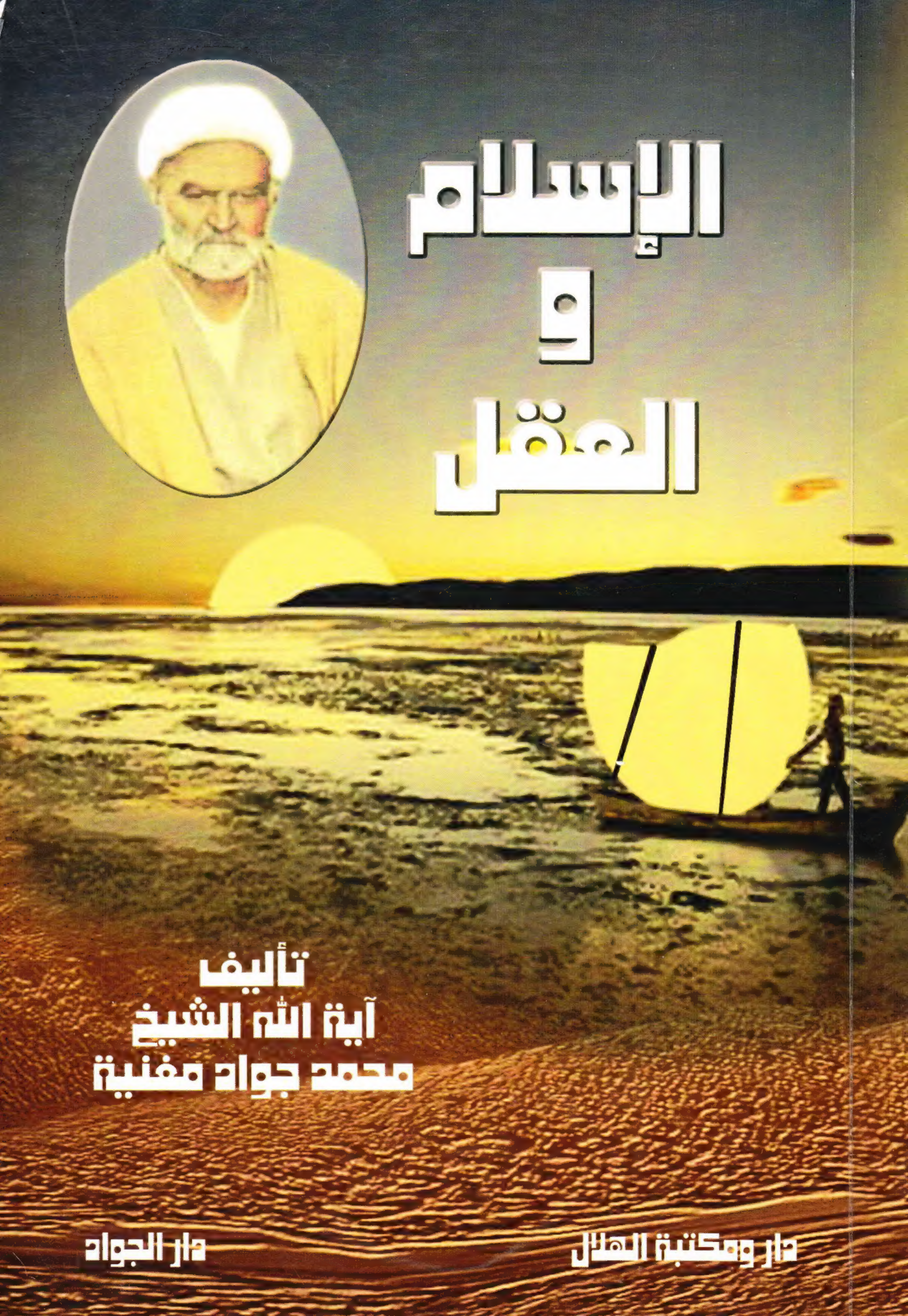

الإسلام
و
العقل
تأليف
آية الله الشيخ
محمد جواد مغنية
دار الجواد
دار ومكتبة الهلال

محمد جواد مغنية

الإسلام والعقل



دار الجواد
بيروت - لبنان

دار ومكتبة الهلال
بيروت - لبنان

دار الجواد
بيروت - لبنان
ص. ب ١٤-٥٨١٣
تلفون : ٣٠٠٧٤٨

دار ومكتبة الهلال
بيروت - لبنان
ص.ب : ١٥/٥٠٠٣

الإسلام والعقل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمد الله سبحانه، وأستعين به، وأصلي على النبي المختار وآله الأطهار .

وبعد :

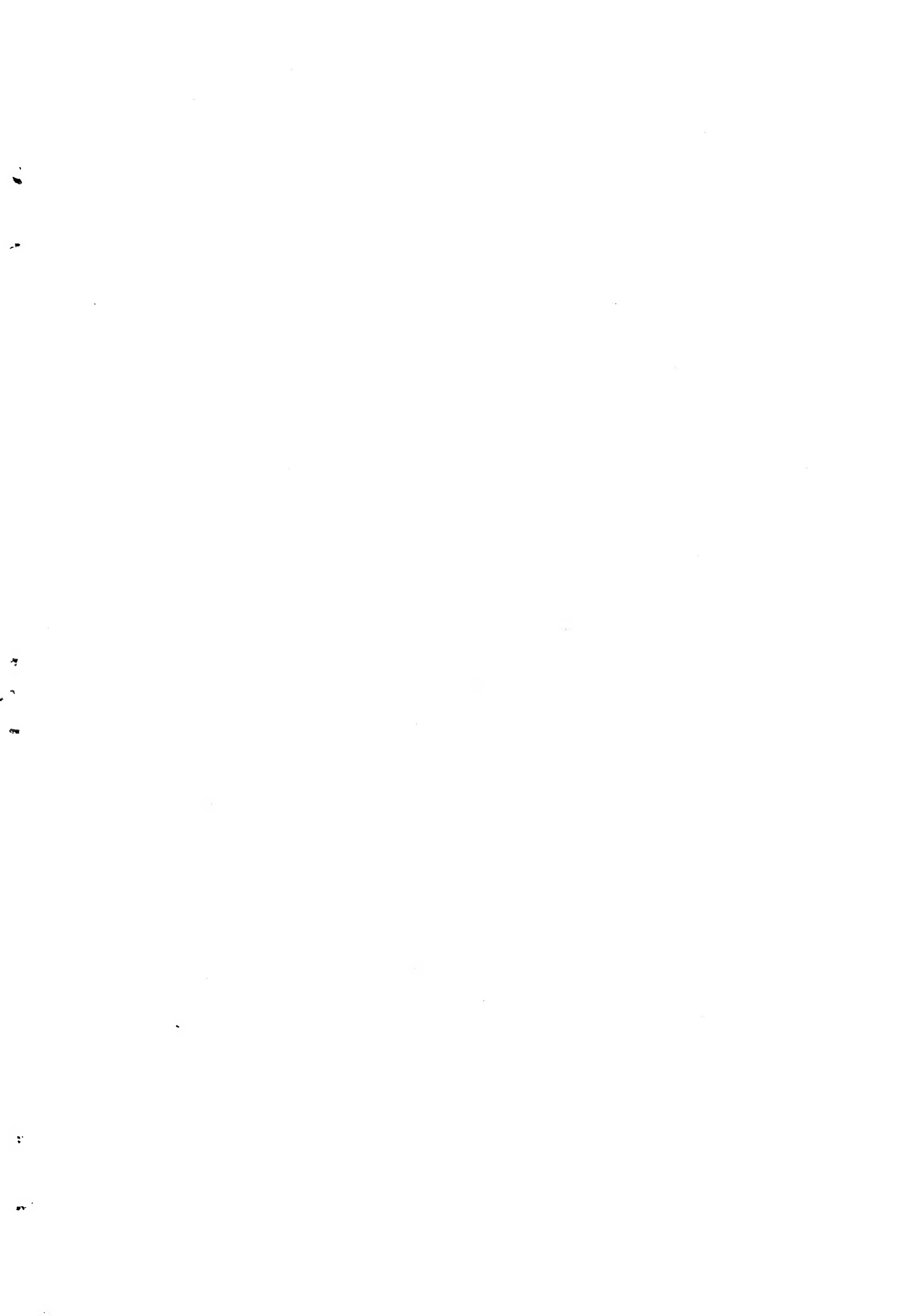
فقد جاء في الحديث الشريف عن الرسول الأعظم (ص) : « أصل ديني العقل » . ودين محمد يقوم على دعائم ثلاثة : الايمان بالله ، والنبوة ، واليوم الآخر ، وتتفرع الإمامة عن النبوة ، لأنها رياسة عامة في أمور الدين والدنيا عن النبي ، والمهدي المنتظر قسم من الإمامة، لأنه الإمام الذي يأتي في آخر الزمان .

ووضعت سلسلة أعرض فيها الدليل العقلي على أصول الاسلام، ودعائمه الأولى جنباً إلى جنب مع الاحساس القلبي في عبارة سهلة واضحة مكتفياً من الموضوع بمعالمه الرئيسية مجتنباً كل ما يعوق الفهم ، ويأباه العقل ... وجاءت السلسلة في أربع حلقات : الله والعقل . النبوة والعقل . الآخرة والعقل . المهدي المنتظر والعقل .

وقد وفقت ، بحمد الله ، إلى ما قصدت اليه من تقوية الروح الدينية

وتثبيتها بالمنهج العقلي في نفوس كثير من الشباب، وحققت السلسلة نجاحاً كبيراً ، فطبع بعضها أربع مرات ، وبعضها الآخر ثلاثاً ... وبعد أن نفدت النسخ من جميع الطبعات رأينا ان نجمع الحلقات الخمس، ونخرجها في كتاب واحد باسم « الاسلام والعقل » تسهيلاً على الراغبين ، ومساهمة في نشر الثقافة الدينية ، والفلسفة الاسلامية .. والله ولي التوفيق .

اللهُ وَالعَقل



هذه الصفحات

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة على صفيه المرسل وجميع الأنبياء والصلحاء .

وبعد ، فقد اتصلت بكتب الدين ، وأنا في سن الخامسة ، وأول ما حفظت منها سورة الفاتحة « الحمد لله رب العالمين » . أما صلتي بكتب التشريع والعقائد فقد مر عليها اربعون عاماً أو تزيد قليلاً ، وما زلت أراجع هذه الموضوعات ، وأتابع ما يقع في يدي من كتاب أو مقال جديد يتصل بها من قريب أو بعيد ، أبحث وأنقب عن فكرة أو كلمة تُشعر بتعزيز الدين ودعمه ، وقد ظهر أثر ذلك فيما كتبته رداً على الملحدين والطاعنين في الاسلام ، ومبادئه وتعاليمه ، وجمعت الكثير من هذه الردود في كتاب « مع الشيعة » و « أهل البيت » و « الاسلام مع الحياة » .

ومن تتبع ما كتبت ونشرت في مباحث الدين ، وما يتصل به يجد اني أحارب على جبهتين : أكافح التعصب والجمود في بعض الأفراد من المتدينين ، وأكافح الإباحيين الذين يثيرون الشبهات والشكوك حول عقيدة الاسلام وشريعته وتعاليمه . أقف وسطاً بين الاثنين راغباً اليهما العدل

والتوازن ، أدعو المؤمن المتدين أن يلائم بين ايمانه وأهداف الحياة ، وأدعو الإباحي أن يؤمن ويدين بما يفرضه العقل والواقع ، ولا يسير وراء الأهواء والأحلام . لقد أهمل هذا الدين وتجاهله ، فوقفت منه موقف المرشد المدافع ، وخاطبته برفق ولين أستدرجه وأستميله . ونظر ذاك إلى ناحية واحدة من الدين ، وأشاح ببصره عن غيرها ، وأبى إلا التعصب لتقاليد سيئات ليست من الدين في شيء ، فهاجمته وقسوت ، لأن التعصب يحجب الحق عن الأبصار ، ويلقي ستاراً كثيفاً بينه وبين من ينشده .

وخلق لي هذا الموقف المحايد بين الفريقين أعداء من كل منهما ، وقالوا ما شاء لهم الهوى والجهل ، فانصرفت عن لغوهم ، وأقبلت على العمل منقطعاً اليه متعظاً بحكمة الإمام علي (ع) : « العلم يهتف بالعمل، فان أجابه وإلا ارتحل » . وقوله : « ليس بعاقل من انزعج بقول الزور فيه ولا بحكيم من رضي بثناء الجاهل عليه » . وصدق الرسول الأعظم حيث قال « كل انسان ميسر لما خلق له » .

إني أنعصب للجوهر ، وأتسامح في العرض ، واجمع بين قوله سبحانه « وما جعل عليكم في الدين من حرج » وقوله « وذر الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً » . وذلك دين القيّمة .

قال لي بعض الطيبين من الأصدقاء[1] : ما بالك تجمد في مورد واقفا عند النص الحرفي ، وتنطلق مع روح النص في مورد آخر ؟ فإما أن تبقى سائراً ، واما أن تظل واقفاً .

قلت ، لو ترك لي الخيار لفعلت ، ولكنني عبد مأمور،أقف حيث ينهاني الدين عن المسير ، ويسد في وجهي جميع المنافذ ، وأسير حيث

---

١ هما الأخ العلامة الشيخ عبد الله نعمة ، والأخ المجاهد صاحب العرفان الشيخ عارف الزين .

أجد طريقه رحباً فسيحاً [1] .

والآن ، وفي هذا الكتاب قد أخذت على نفسي أن أتقيد بحكم العقل لا رائد لي سواه ، فاسمه « الله والعقل » وسأحاول أن لا أحيد قيد شعرة عما يدل عليه اللفظ ، وما أحوجنا اليوم إلى معالجة هذا الموضوع الهام حيث طغى تيار الإلحاد على كل شيء،وتفشى روحه في كل قطر . فهذا شاب مصري وضع كتاباً أسماه « الله والانسان » ينكر فيه وجود الخالق ، ويقول :

« الله في العلم الحديث معناه الطاقة الخام التي في داخلنا ، والحركة التي كشفها العلم في الذرة ، والمعبد برلمان حر ومدرسة عصرية،والصلاة هي الطعام الجيد والكساء الجيد والمسكن الجيد »[2] .

ومصري آخر ألّف كتاباً دعاه « الدين والضمير » ، وهو أكبر حجماً وأكثر لؤماً . رأى هذا المؤلف ان لا سبيل إلى انكار الخالق ، فاعترف به ولكن جعله وجودياً قال :

« ان الله يدخل جنته الطيب الرشيد وان لم يؤد صلاة واحدة ، ولم يعمل حسنة قط . وان زنى وان سرق . وان الدعوة إلى الدين تستطيع

---

١ مثال الجمود على النص ما جاء في الحديث ان المسافر إذا قطع ثمانية فراسخ يقصر ويفطر . يعم هذا الحكم كل مسافر ، سواء أسافر طائراً أو مشياً على الأقدام ، وسواء أكان في سفره حرج أم فرج ، لأن الشارع أطلق ولم يقيد الحكم ، ولو أراد القصر والافطار في حال دون حال لبين ، وحيث لم يبين تحتّم الشمول لجميع الحالات.أما مثال التجاوز إلى روح النص فكالأحاديث الواردة في بذل الماء وفضله ، وان من سقى ظمآناً فله من الأجر ما يفوق الحصر ، فان مورد هذه الأحاديث حيث يعز الماء ويندر ، كما هي الحال في عهد الرسول الأعظم ، وبنوع خاص في الصحراء إذ يكون الماء أندر من الكبريت الأحمر ، أما في البلاد التي يكون الماء فيها كالتراب والهواء فلا ثواب إلا بمقدار ما يعود النفع وسد الخلة .

٢ كتاب « الله والإنسان » لمصطفى محمود ص ٢٤ و ١١١ الطبعة الأولى سنة ١٩٥٧ .

أن تنبت من الأرض ، وليس لزاماً أن تتصل إلى السماء بوحي ولا سبب »[1] .

وقد رددت على الأول في صحف بيروت والقاهرة ، ثم أدرجت الرد في كتاب « الاسلام مع الحياة » ، ورددت على الثاني في جريدة التلغراف تاريخ ٦ – ٤ – ٥٩ . وسأتعرض لأقواله مفصلاً في كتاب « النبوة والعقل ». أما الباعث على وضع هذه الصفحات، وفكرة العودة إلى مصطفى محمود فحديث جرى بيني وبين صديق طيب ، قال في مجرى الحديث عن كتاب « الله والانسان » . أمثل هذا الكتاب يكتفى بالرد عليه في مقال يقرأ ثم يُنسى ويهمل ؟! وبقيت هذه الكلمة تتردد في نفسي ، حتى لاحظت ان الكثير ممن قرأ الرد لم يقرأ الكتاب ، وان أكثر الذين قرأوا الكتاب لم يصلهم ردي عليه ، لأن مصطفى محمود نشر فصول الكتاب عما وراء الطبيعة في مقالات متسلسلة بمجلة «روز اليوسف» التي أضلت الناشئة ، وهي – في الغالب – لا تنشر إلا لمصطفى محمود وأمثاله من الذين يروجون للفساد والالحاد ، وهذا القول ردده أمامي أكثر من مرة عدد من المصريين ، وفيهم الأجلاء من شيوخ الأزهر الذين أغضبهم سلوك هذه الصحيفة. وبالرغم من مصادرة الحكومة المصرية هذا الكتاب فقد تسرب الكثير من نسخه الى مصر وبعض البلاد العربية .

ولمصطفى محمود مكانة يغبط عليها بين الشباب والطلاب، فقد رأيتهم

---

١ كتاب « الدين والضمير » لمحمود الشرقاوي ص ٤١ و ٨٥ و ٩٨ و ١٠٠ الطبعة الأولى سنة ١٩٥٨ . ونشرت جريدة الجمهورية في عدد ٢ كانون الثاني ٥٩ مقالا للأستاذ عبد المنعم النمر يرد فيه على المؤلف وقد جاء فيه : « ان الشرقاوي هذا عالم وكاتب مجيد اشتغل بالصحافة مدة حتى استقر به المطاف بالأزهر » . وقال كاتب المقال : « علمت ان وزارة الاوقاف قد اشترت من الكتاب كثيراً ، والمفروض انها لا تشتري كتاباً وتشجعه ، وفيه هذه المآخذ الدينية الكبيرة » .

يقبلون على كلماته في شوق ، ويلتهمونها في لهفة ، ويتحدثون عنها بثقة وايمان كأنها وحي . أما سر هذا الاقبال فاسلوبه الساحر، ومقدرته الفائقة على اغراء المراهقين والتلاعب بعقولهم بألحان لا شيء وراءها سوى أنغام لا تعبر عن معنى سليم .

لذا رأيت من الأفضل أن أضع كتاباً مستقلاً يكون في متناول الجميع ، وقد تعرضت فيه للقسم الذي خصصه المؤلف للكلام عن الله سبحانه، وعالم ما بعد الموت . وهدفي الأول أن أبين لمن يثق به وبآرائه انه غير جدير بهذه الثقة فيما يختص بما وراء الطبيعة ، لأن فلسفته في هذا الموضوع بالذات وهم وخيال لا تقوم على أساس من الواقع .

ونحن رجال الدين ، وان حز الألم قلوبنا من هذا التيار الفاسد الملحد فاننا بحمد الله نملك من الحجج ما نذود بـه عن عقيدتنا ، ولا نطلب ممن يلحد ويشكك إلا أن يستمع لما نقول ، وينظر فيما نستدل بسلامة في العقل ، وتجرد عن الهوى ، ثم ندعه إلى احساسه وشعوره يتخذ منه رسولاً أميناً ورائداً حكيماً .

أما من يتكلم ويجادل لا لشيء إلا للتلهي وسد الفراغ ، أو اظهار شخصه وفهمه ، كأكثر الذين يتكلمون في هذا الموضوع – أما هذا فيشق معه التفاهم ويعسر ، ان لم يكن محالاً ، ومن هنا اتسعت مسافة الخلف بيننا وبين الكثيرين من الشباب .

نحن لا نحرم الكلام على انسان ، ولا نفرض عليه أقوالنا فرضاً ، غير اننا لا نحترم من يرسل نفسه مع الظنة والتهمة ، ويجزم باللمحة والشبهة ، ويتجاهل الحقائق التي آمن بها من خلقوا الحضارات، وغيروا وجه التاريخ ، وأخرجوا الأمم من الظلمات إلى النور .

نحن لا نفرض على أحد الايمان بآراء الألوف من الأنبياء والعلماء والفلاسفة والمصلحين ، وانما نطلب اليه أن يقرأ ما قالوا ، وما قيل

عنهم قبل أن يتهمهم في عقولهم وعقائدهم ، وهم الذين علّموا الأجيال البحث والتفكير .

والله سبحانه المسؤول أن يجعل هذه الأوراق تبصرة للمشككين،وقوة في يد المؤمنين ، وهو يعلم اني تقربت بها اليه رغبة في مرضاته يوم ألقاه انه غفور رحيم .

سبب المعرفة

ترتسم في أذهاننا صور عن أشياء هذه الطبيعة من المادة الجامدة أو الحية ، كتصورنا بأن الأرض كروية متحركة ، وأن الماء يغطي ثلاثة أرباعها . وترتسم أيضاً في أذهاننا صور عن أشياء غير مادية ، لا تمت إلى هذه الطبيعة بسبب ، كتصورنا وجود قوة تكمن وراء هذا الكون، وهي التي تديره وتدبره . وقد تأتي هذه الصور من الالهام والتخيل ، أو التقليد والمحاكاة ، أو النقل والسماع ، أو الاستنتاجات العقلية ، أو التجربة الشخصية والمشاهدة الحسية .

فهل هذه التصورات بكاملها علم وحقائق ، أو جهل وأوهام،أو ان بعضها حق ، وبعضها الآخر باطل ؟

الحواس الخمس :

ذهب فريق من الفلاسفة إلى أن كل صورة ترتسم في ذهنك لا تكون علماً صحيحاً ومعرفة حقة إلا إذا أتت عن طريق الحواس الخمس : البصر والسمع والشم واللمس والذوق ، فما تذوقه أو تلمسه أو تشمه أو

تسمعه أو تراة تحكم بأنه موجود وحقيقة واقعة ، وما عدا ذاك يجب أن تقف منه موقفاً سلبياً .

ولكن الحواس كثيراً ما تخدعنا ، فالنسيج الذي تشتريه ترى لونه في الدكان غير لونه في ضوء الشمس والهواء الطلق ، وهـذه المنضدة تبدو لك مستديرة ، وأنت قريب منها ، ولا تبدو كذلك إذا ابتعدت عنها ، وهذه المرأة جميلة في نظرك ، قبيحة في نظر من تنافسها وتزاحمهـا ، وهذا الطعام تستطيبه ، وأنت جائع ، ولا تستطيبه وأنت شبعان، وكذلك الحال بالنسبة إلى الرائحة والسمع يختلفان باختلاف الأشخاص ، وكذلك بالنسبة إلى الحرارة والبرودة : ضع احدى يديك في ماء حار، والأخرى في ماء بارد ، ثم ضعهما بعد ذلك في ماء فاتر ، فيبدو هذا الماء بارداً بالنسبة لاحدى يديك ، وحاراً بالنسبة للاخـرى . ان المعاني والحقائق أكثر مما يرى ويسمع ومما يؤكل ويُشم ويُلمس . فكما نعرف كثيراً من الأمور بواسطة الحواس معرفة مباشرة كذلك نتوصل إلى معرفة أمور أخرى بصورة غير مباشرة عن طريق الاستنتـاج . قال افلاطون : اذا كانت الحقيقة لا تثبت إلا بالحواس الظاهر فيجب أن يكون القرد والفيلسوف الحكيم سواء بسواء ! لأنهما يشتركان في هذه الاحساسات .

الملاحظة والتجربة :

وقال آخرون : ان أسباب المعرفة والكشف عن الحقيقـة لا تنحصر بهذه الحواس الخمس ، بل تشمل الملاحظة والتجربة ، والمراد بالملاحظة مشاهدة الأشياء على ما هي عليه في الطبيعة ، كملاحظة النجوم وغيرها من الأجرام السماوية دون أن تمسها يد التجربة،أما التجربة فهي مشاهدة الأشياء في ظروف خاصة يهيئها العالِم ، ويتصرف بهـا حسب ارادته ، ويرتبها بآلاته العلمية الدقيقة . وكل تجربة تستتبع الملاحظة،ولا عكس .

وعليه فما يمكن استخدام التجربة والملاحظة فيه فهو موجود ، وما يخرج عن هذه الدائرة فلا وجود له . وهذا القول قريب من سابقه غير انه أعم وأوسع ، لأنه يشمل الأشياء التي لا ترُى ولا تلمس، كالألكترون ومكروب السرطان وما اليه .

والنتيجة الحتمية لهذا القول ان الألوهية ، وما يتصل بها من ارسال الرسل وانزال الكتب والبعث والنشر ان هي إلا أسماء لا تعبر عن حقيقة، لأن كل ما وراء التجربة والملاحظة لا وجود له ، وان الأقيسة المنطقية والاستنتاجات العقلية تركيب ألفاظ ، وصور خيالية لا يربطها بالواقع أي رابط .

ويرد هذا القول أولاً : ان التجربة تختص بحادثة جزئية، ولا يمكن أن تثبت بها قاعدة كلية عامة ، هذا مضافاً إلى انها لن تكون حقيقية مئة بالمئة ، فقد يجزم العالم بحقيقة ما عن طريق التجربة ، ثم تظهر له حادثة أخرى يستكشف منها ان التجربة الأولى كانت خاطئة وغير صالحة لتفسير ما كان يفسره بها من الحوادث . فهذا اينشتين زعم « ان أقصر الخطوط هو الخط المنحني ، وان الضوء يسير على خط غير مستقيم ، ثم اتفق ان رصد ثانية بآلات أحدث وأتقن فتبين له ان أقصر الخطوط الخط المستقيم ، وان الضوء يسير عليه لا على خط منحني » .

ثانياً : ليس من شك ان للتجربة مزايا لا توجد في غيرها ، وانه كان لها وما زال الفضل الأول في تقدم العلوم ، ولكن ليس معنى هذا ان التجربة هي كل المعرفة ، وان غيرها ليس بشيء لأن العالم لا يمكنه اجراء تجاربه في جميع الموضوعات التي تعرض له ، طبيعية كانت أو غير طبيعية ، فقد يعتمد على الملاحظة وحدها ، كما هي الحال في علم الفلك ، وعلم الحياة ، حيث لا يستطيع الانسان أن يجري أية تجربة على حركات الأفلاك ، كما انه لا يستطيع أن يخلق الحياة ، أو يعيدها بعد الموت . لذا يقتصر في علم الفلك وعلم الحياة على المشاهدة والملاحظة

فقط ، كما هي الحال في الأمور العقلية المجردة عن المادة والعالم المحسوس ، حيث لا مجال للتجربة ولا للمشاهدة ولا أي شيء سوى العقل ومنطقه السليم واستنتاجاته الصحيحة ، وانما تصح وتصدق هذه الاستنتاجات إذا كانت مقدماتها صادقة لم يكذبها العيان والتجربة ولا تستلزم شيئاً من المحالات العقلية .

ولو أسقطنا العقل عن الاعتبار فهل يبقى الانسان على انسانيته ؟! وبماذا نميزه عن الحيوانات والحشرات ، ونعرف الصحيح من الفاسد ، والخير من الشر ، والجمال من القبح ؟! بل وكيف نشاهد ونجرب ، ثم ننفي أو نثبت صدق التجربة إذا طرحنا العقل جانباً ؟! وإذا تنازل غيرنا عن عقله فراراً من الايمان بما وراء الطبيعة فنحن غير مستعدين لمثل هذا التنازل مهما كانت الحال ، بل نعتمد على خبرة العقل تماماً كما نعتمد على خبرة التجريب والمشاهدة ، ولا نرى أي فرق بين الاثنين سوى ان خبرة التجريب عملية تطبيقية ، وخبرة الاستنتاج عملية عقلية لا يمكن فيها التطبيق الخارجي ، أي ان كل واحدة منها تصدق في مجالها الخاص ، فالتصورات التي ترتسم في الذهن عن الطبيعة تكون صادقة إذا كانت انعكاساً عن الوجود الخارجي الملموس ، أما تصوراتنا عن ما وراء الطبيعة فتصدق إذا أقرها وأثبتها العقل. وان موازين الحقيقة وشواهد المعرفة تختلف باختلاف أسبابها ، فكما اننا لا نتعلم الانكليزية بالعربية — مثلاً — كذلك لا نستدل على كذب غير المرئيات بعدم مطابقتها للمرئيات .

ومرة ثانية نكرر القول ونؤكده بأنه لا مفر من تفسيرات العقل والتزاماته بصدق هذه الفكرة أو كذبها . ولا نعرف قولاً بلغ من العبث واللغو ما بلغه القول بطرح العقل وعدم الثقة به ، وما أبعد ما بين هذا الرأي ، وبين رأي من قال بأن الموجود هو المدرك بالعقل فقط ، وكل ما لا يدركه العقل لا وجود له .

وبعد أن تبين معنا أن ما يرجع إلى ما وراء الطبيعة هو من شؤون العقل وحده يتجه هذا السؤال : هل في أدلة العقـــل ما يلزم بوجوب الايمان بالله ؟ وفي حالة قيام الدليل على ذلك فهل مؤداه أن الايمان بالله مطلوب لذاته كغاية ، أو مطلوب كوسيلـــة إلى الترغيب في الخير ، والتخويف من الشر ، بحيث لو أمكن أن يكون الانسان قويم الأخلاق دون هذا الايمان لكان في حل منه ؟

وسيجد القارىء الجواب مفصلاً عن هذا التساؤل في الصفحات التالية، وستعطيه صورة صادقة عن أن رجال الدين ، وكـــل عالم آمن بالله لا يعتمدون في ايمانهم على الوراثة والتلقين ، بل ولا على الوحي مستقـلاً عن حكم العقل . اننا نؤمن بالله كعقلاء لا كمتدينين فحسب .

اسألوا اهل العلم

إن للكون مظاهر شتى لا يجمعها علم واحد ، لأنها تفوق الحصر عداً بخاصة في هذا العصر الذي تشعبت فيه العلوم ، وما زالت تتسع وتتنوع كلما تكشفت حقيقة من حقائق الكون ، وإذا أحاط أرسطو بعلوم زمانه كافة ، فيستحيل عليه لو وجد اليوم ، وعلى أي عبقري سواه أن يجمع بين علومنا كلها أو جلها . لذا اضطر العلماء إلى الاقتصار والاختصاص، وانقسم العلم بينهم ، كما انقسم العمل بين التاجر والفلاح والعامل . وهكذا تقسم الكون إلى مناطق ، واكتفت كل طائفة من الباحثين بمنطقة واحدة ، كالأفلاك ، أو الأشكال الهندسية ، أو الانسان أو الحيوان أو النبات ، وغير ذلك .

وهذه العلوم ، وان كانت متباينة إلا أن اتصالها بكون واحد ، واستخدامها جميعاً في حياة عملية واحدة جعل بينها ارتباطاً قوياً ؛ بحيث إذا كشف بعض العلوم عن حقيقة جديدة أدى ذلك إلى التبديل أو التعديل في وجهات النظر من العلوم الأخرى ، وعلى الرغم من هذا الاتصال الوثيق بين العلوم فإنك إذا سألت أحد العلماء عن مسألة لا تدخل في الفرع الذي تخصص به يجيبك بأن هذا خارج عن دائرة اختصاصه ، كما لو سألت عالم النبات — مثلاً — عن أمر يتعلق بالتشريح ، بل لو سألته

ما هي المادة المشتركة بين النبات وغيره من المعادن لقال لك لا أعلم ، وهو محق لأنه لا يريد الكلام عن جهل .

إذن ، ما بال بعض الشباب من الذين درسوا الحقوق أو الطب أو الآداب ، ولم يدرسوا فلسفة ما وراء الطبيعة ، ما بال هؤلاء يقفون موقف المنكر المعاند ، ويصدرون أحكاماً في أشياء لا يعرفون منها كثيراً ولا قليلاً ؟! ان مصطفى محمود تخرج من كلية الطب ، ولم يدرس اللاهوت ولا الفلسفة . ومع ذلك ألّف كتاباً موضوعه « الله والانسان » ! لا يا أستاذ ، انك لا تصلح ساعتك عند « سنكري » ولا تنظف بدلتك عند « اسكافي » ، ولا تتعلم الطب في كلية الزراعة . إذن كيف تكلمت عما وراء الطبيعة ، وعلم ما كان قبلها ، ويكون بعدها وأنت لا تعلم عنه شيئاً ؟ وهل ترضى أن نتكلم نحن عن الطب الذي درسته أنت في كلية الطب بالقصر العيني ؟!

ومهما يكن ، فإن كل فئة من علماء الكون تقتصر على ناحية خاصة لا تتجاوزها ، فعالم النبات لا يتعرض للمعادن والحيوان ، والطبيب البيطري لا يبحث في جسم الانسان وعلله وأمراضه ، وكذلك عالم الفلك وعالم الكيمياء فإنه لا يرى إلا ناحية واحدة من الكون على أن معرفته بها تبقى ناقصة مهما اجتهد وتقدم ، فكيف بمعرفة أسرار الوجود وأسبابه ، وطبيعته ونظمه ؟! ومن هنا تخصص لمعرفة الكائن وراء الطبيعة طائفة من العلماء لا يفكرون بشأن غير شأنه ، ولا يهتمون بأمر غير أمره .

إن علماء الطبيعة يدرسون المادة ، ويطلبون أسبابها القريبة ، ويقفون عند الظواهر ، ولا يذهبون إلى الأعماق ، أما الفلاسفة : أما علماء ما وراء الطبيعة فيبحثون عن علة العلل ، والسبب الغامض البعيد عن المادة والمحرك الأول لها . لقد تجرد هؤلاء ، وهم عدد غير قليل من العقول الكبيرة العظيمة ، تجردوا إلى البحث عن خالق الكون ومدبره ، ووضعوا

الأسفار الطوال في البراهين القاطعة على وجوده،ودفعوا عنها كل شبهة، حتى أصبحت كالشمس في رائعة النهار .

فإلى هؤلاء وحدهم يجب أن نرجع في معرفة الفكرة عن الله ، وأن ندرس أقوالهم ، ونحاكمها بتجرد واخلاص . أما أن نجحد ونعاند دون أن نستمع إلى أرباب العقول من ذوي الاختصاص فقد جادلنا بغير علم ولا هدى .

وبالتالي ، فإذا بحثنا عن نواحي الطبيعة وحدها وتركنا البحث عما بعدها لظلت فكرة الألوهية دون حل ، وتصوراتنا عما يتعلق بها دون امتحان ، لأنها لا تعلل بالمادة ، ولا تطرح على بساط البحث في المصانع والمختبرات ، ولا يسأل عنها رجال السياسة أو علماء الأخلاق والاجتماع. إذن لا بد من الرجوع إلى علم ما بعد الطبيعة الذي يبحث عن واجب الوجود وامتناعه وامكانه ، وواجب الوجود هو ما اقتضت ذاته وجوده بالضرورة، وألزم العقل بافتراض وجودها على كل حال وان عجز العلم عن اثباته بالطرق الموضوعية . وممتنع الوجود على العكس،أي ما اقتضت ذاته امتناع وجوده ، وأحال العقل افتراض وجودها ، أما الممكن فهو ما خلا من هذا الاقتضاء ، ولم يحكم العقل لا بضرورة الوجود ، ولا بضرورة العدم فيحتمل أن يكون موجوداً ، كما يحتمل أن لا يكون له وجود .

ومن الخير أن نشير إلى أن الفلاسفة يلتقون هنا مع رجال الدين ، لأن كلاً من الفريقين يتطلع إلى ما وراء الطبيعة ، والفرق بينهما ان الفلاسفة يعتمدون على العقل وحده ، ورجال الدين يعتمدون على الوحي والعقل ، لأنهم يعتقدون أن العقل إذا استقل في معرفة وجود الخالق وصفاته ، وارسال الرسل وما اليه فإنه محتاج إلى معونة خارجية لإدراك كثير من المسائل .

من خلق الله ؟

إن من يدعي وجود شيء خفي يقع عليه عبء الاثبات،سواء أكان ذلك الشيء حقاً من الحقوق أم مسألة علمية أم فنية أم تاريخية،أم كان شأناً من شؤون العقيدة والايمان. وهذه القاعدة — البينة على من ادعى — لا يشذ عنها أحد مهما سما بعظمته ومركزه ومهما وُصف وعرف بالعدالة والصدق ، والورع والتدين ، وإذا وجب الأخذ بشهادته اعتماداً على اخلاصه وتجرده ، فإنه ليس بفوق أن يناقش في ذاكرته وأفكاره، ولا بفوق أن يطالب بالدليل على صدق أقواله ، فالله جل وعلا قد أقام الآيات ، وضرب الأمثال على وحدانيته وعظمته ، وعلى يوم الحساب والجزاء ، ودفع كل شبهة وتعلة تحوم حول وعده ووعيده . ومن هنا أمد الله أنبياءه بالحجج الدامغة والبراهين القاهرة، وشرح صدورهم لكل سائل ومجادل ، فأفسحوا المجال للمحقّ والمبطل ، ليقول كل ما يشاء، ويجادل دون تصنع وتحفظ .

ان لدى الانسان من أسباب الجدل والنقاش ما لا يبلغه الاحصاء « وكان الانسان أكثر شيء جدلاً . الكهف ٥٤ » . ان في الانسان منذ طفولته ميلاً طبيعياً إلى التساؤل عما يجري حوله ، ويدور في خلده، ورغبة ملحة في الاطلاع على حقائق الأشياء وعللها وأسبابها ، وفي انتقاد

الآخرين في عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم ، ولكن الانسان كثيراً ما ينخدع بالمشاهدة السطحية للوهلة الأولى ، فيجادل ويناقش على هذا الأساس ، أساس ما سمعه من الأقوال ، وألفه من العادات وانقاد اليه من النزعات الشخصية . وإلى هذا أشارت الآية ٩ من سورة الحج : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » . وقبل أن نعرض أدلة المؤمنين بالله نذكر طرفاً من جدل أولئك الملحدين ، وما علق بأذهانهم من الأوهام. فمن أوهامهم هذا السؤال الذي يعرض للبسطاء السذج :

– إذا كان الله قد خلق العالم فمن خلق الله ؟

وبقليل من التفكير ندرك أن هذا التساؤل من مخلفات عهد الطفولة مرحلة « السن السئول » . أما الذين نضجت عقولهم فيدركون ان كلمة « خلق الله العالم » تعني انه تعالى خالق غير مخلوق ، وان كل ما عداه يتلقى وجوده منه ، ولم يتلق هو وجوده من أحد . إذن ينبغي أن يكون التساؤل على الشكل التالي :

لماذا يجب علينا الايمان بأن الله موجود منذ القدم لا يفتقر إلى مُوجد وانه يهب الوجود لكل كائن سواه ؟

الجواب :

لو قلنا : ان كل كائن لا بد أن يستمد وجوده من غيره للزم أن لا يوجد شيء أبداً ، لأن معنى قولنا لا يوجد من يعطي إلا بعد أن يأخذ ، معناه انه لا أحد يعطي أبداً . مثلاً ، لو افترضنا ان النقد لا يمكن أن نأخذه من شخص إلا إذا أخذه هو من شخص آخر ، بحيث يستحيل أن يوجده فرد أو هيئة ، للزم أن لا يوجد شيء يسمى نقداً . ومثلاً آخر : تعلمت نظرية النسبية من أستاذك ، وتعلمها هو من أستاذه ، وهكذا إلى أن يصل الدور إلى اينشتين الذي اكتشفها بنفسه ، ولو افترضنا ان أحداً لم يكتشفها من تلقائه لكانت هذه النظرية مجهولة

حتى اليوم . وهكذا علم النحو وسائر العلوم لا بد أن تنتهي إلى شخص معين ، وإلا لم يكن لها عين ولا أثر . وبتقريب ثانٍ ليس من شك انه قد وجد شيء كالأرض والنجوم ، وإذا وجد شيء وجب أن يكون قد وجد شيء ما بالضرورة يحمل في ذاته علة كافية لوجوده منذ الأزل ، لأن كل ما يوجد إما انه وجد بذاته دون أن يتلقى وجوده من غيره ، وأما أن يكون قد تلقاه من موجود آخر ، فإذا كان وجوده من ذاته لا من غيره فهو موجود بالضرورة ، وهو الله ، وأما إذا كان تلقاه من غيره فلا بد أن يكون هذا الغير قد وجد بالضرورة ولم يستمد وجوده من أحد .

وبتعبير ثالث ان الباحث العلمي إذا لم يدرك سبب الحوادث مباشرة لجأ إلى الافتراض فيفترض وجود شيء يفسر الحادث على أساسه ، ثم يختبر هذا التفسير . وهنا افتراضان لا ثالث لهما الأول أن نفترض ان كل موجود يتلقى وجوده من غيره بحيث لا يوجد شيء بدون سبب . الثاني وجود شيء بذاته ولم يتلق وجوده من غيره . والفرض الأول باطل حيث يلزم منه عدم وجود شيء ، فيتعين الثاني وهو وجود علة أولى تعطي ولا تأخذ . ومن هنا قال فولتير : « ان الرأي القائل بأن الله غير موجود ينطوي على أمور مستحيلة » أي يلزم منه أن لا يوجد شيء أبداً،وهو خلاف المشاهد بالبديهة وبالتالي فإن الأدلة العقلية تحملنا على الاعتقاد بوجود كائن بالضرورة وهو الله تبارك وتعالى . وتوهم الملحدون أن الكون لا يحتاج إلى مُوجِد ، لأنهم لم يدركوه بالحس ، ولم يستعملوا في معرفته العقل . ونذكر طرفاً من أقوالهم للتدليل على انها أوهام وتضليل .

الله والطبيعة :

فمن أوهامهم ، ان الطبيعة قد وجدت دون موجد ، لأنها تحمل علة وجودها بذاتها ؛ لا انها مخلوقة من قبل كائن يتميز عنها بالاستقلال والقدم والكمال ، أي أن الطبيعة هي الله ، والله هو الطبيعة ، ولا شيء غيرها . والجواب :

أولاً : ان لازم هذا القول ان ما في الكون من نظام وانسجام ، وفن وجمال ، وروعة وجلال قد صدر عن قوة عمياء صماء لا علم لها ولا مشيئة ، تفعل عبثاً ، وتترك لا لسبب موجب ، ولا لحكمة وغاية ، وهي مع ذلك تخلق انساناً مستوي الخلقة تهبه العقل والعلم والشعور ، وتضع كل شيء في مقره ومكانه لا تخطىء ولا تنحرف ، مهما طال الزمن ! وبديهة أن البرودة لا تلتمس في اللهيب ، والحرارة في الثلوج. ولذا قيل : ان فاقد الشيء لا يعطيه .

ثانياً : قال علماء الطبيعة : ان المادة تتلاشى وتتبخر إلى شحنات كهربائية ، وإنها تفقد بذلك وزنها وطولها وعرضها وعمقها ، وسائر الخصائص التي تمتاز بها ، ولو كان وجودها ذاتياً وضرورياً لاستحال ان تتغير وتتبدل: لأن الذي يحمل علته بنفسه لا يزول إلا بزوال علته ، وزوالها يعني انها غير ذاتية . ولذا قيل : ان ما بالذات لا يتغير ، ثم اننا نرجع بعض الحوادث إلى حوادث أخرى ، ونعتبرها السبب الفاعل، وان بينهما ارتباطاً وثيقاً ، ولو كان كل شيء يحمل علة وجوده بالذات لما كان هناك علل ومعلولات ، وأسباب ومسببات .

ثالثاً : إن الانسان قد اكتشف قوى الطبيعة ، وسخرها في مصالحه وسد حاجاته ، وكادت تصبح أطوع اليه من بنانه . ومحال أن يكون الخالق عبداً مسخراً لغيره .

الألوهية فكرة !

ومن أوهامهم أيضاً :

إن الألوهية فكرة ابتدعها الانسان ، ليفسر بها المجهول ، وقد تطورت من عبادة الشمس والنار والبقر إلى عبادة الحياة والشجر ، إلى الملائكة والأرواح ، إلى إله حكيم يكمن وراء الطبيعة . وأخيراً أدرك الانسان الحقيقة ، وعلل الحوادث بحوادث طبيعية مثلها ، وهذي هي غاية العلم الحديث الذي يهدف إلى معرفة الأشياء كما هي .

والجواب : اننا نعلل بعض الحوادث بما نراه من الأسباب القريبة ، ولكن هناك وراء هذه أسباب أخرى بعيدة فبماذا نفسرها ؟ مثلاً ، نرجع وجود الشجرة إلى الأرض ، والأرض إلى الشمس ، ولكن بماذا نفسر وجود الشمس،وإلى أي شيء نرجعها ؟ أنرجعها إلى المادة الأولى، وما هي هذه المادة ؟ هل هي الأثير – مثلاً – ونحن على الرغم من اننا نجهل ما هو الأثير ، وانه هل هو نوع من المادة أو لا مادي ؟ وهل هو حقيقة تحل المشكلات أو خرافة ابتدعت لاخفاء الجهل نتساءل: من أين جاء هذا الأثير ؟ وكيف وجد ؟ ومن أوجده ؟ وهل هو من الكائنات الحية أو الجوامد ؟ وكيف تجمع وتكتل ؟ وهل يسير إلى هدف معين أو على غير هدى ؟

أما الجواب عن هذة الأسئلة فلا نجده في علم الطبيعة على الرغم من تقدمه يوماً بعد يوم ، لأنه عاجز عن الوصول إلى معرفة الحقيقة المطلقة. إنه لا يعرف شيئاً إلا عن طريق المشاهدة والتجربة ، وهي أبعد ما تكون عنها ، كما اننا لا نجد الجواب عند علماء النفس والاجتماع،لأنهم يرفضون اليوم ما آمنوا به في الأمس ، لا نجد الجواب إلا عند الفلاسفة الذين يبحثون عن سر الكون وأصله والسبب الأول له وهو الإله القدير الحكيم .

قال فرنسيس بيكون : « ان عقل الانسان قد يقف عندما يصادفه من أسباب ثانوية مبعثرة ، فلا يتابع السير وراءها ، ولكنـه إذا أمعن النظر فشهد سلسلة الأسباب كيف تتصل حلقاتها لا يجد بدأً من التسليم بالله ... »

أين يوجد الله :

ومن أوهامهم أيضاً هذا التساؤل : أين يوجد الله ؟

والسؤال ، كما ترى ، وجيه في ظاهره ، ولكنه يحتوي على مغالطة منطقية في الواقع ، لأن الذي يسأل عن مكان وجوده هو الذي وجد بعد أن كان معدوماً ، أي لم يكن ، ثم كان ، أما الأزلي القديم الذي وجد ان صح التعبير ، حيث لا زمان ولا مكان ، أما الأول بلا أول كان قبله ، والآخر بلا آخر يكون بعده ، أما الذي لا يحتاج وجوده إلى علة فلا يقال أين كان ؟

والمفروض ان علة وجود الخالق ذاتية لا تنفك عنه بحال ، وما هو من لوازم الذات لا يسأل عنه بزمان أو مكان ، فلا يقال متى كانت النار حارة ؟ وأين توجد الحرارة فيها ؟ ولا متى كان الثلج بارداً ؟ وفي أي مكان تستقر فيه البرودة ، ولا يقال متى كان الجسم قابلاً للابعاد الثلاثة : الطول والكتلة والزمن ؟ وأين توجد هذه القابلية في الجسم . ومتى لم توجد فيه حتى يقال متى وجدت ؟! وأي جانب من الجسم خلا من القابلية للابعاد حتى يقال في أي جانب تكمن ، فكذلك سؤال « أين يوجد الله ؟ ومتى وجد؟» إذ متى لم يوجد حتى يقال متى وجد ؟! وأي مكان لا يوجد فيه أثره حتى يقال أين يوجد ؟! انه دائم لا بزمن ، وكائن لا بحاول .

إن الجاهل هو الذي يسأل هذا السؤال ؛ لأنه يقيس الخالق بالمخلوق ،

ويشبه من لا يُرى بما يرى . إن وجود الله سبحانه مباين لوجود الكائنات التي توجد في مكان دون مكان . ولو شغل مكاناً خاصاً لخلت منه بقية الأمكنة ، ولكان جسماً مفتقراً إلى حيز مع انه غني عن كـل شيء .

بقي أن نتساءل : ماذا أراد المألهون من قولهم : « ان الله لا مكان له ، وهو موجود في كل مكان » ألا يـدل هذا القول عـلى أن الله موجود وغير موجود ؟! أليس هذا جمعاً بين الشيء ونقيضه ، مع ان اجتماع النقيضين محال كارتفاعهما ؟!

ومن تدبر ما قدمناه من الأدلة على أن الله لا يمكن أن يوجـد في مكان أدرك ان المراد من وجوده في كل مكان وجود قدرته وعظمته ، وان الأشياء كلها تشهد بوجود خالق الكون ومدبره ، وعليه يكون معنى « وجود الله في كل مكان » هو ما عناه الشاعر بقوله :

وفي كل شيء له آية   تدل على انه واحد

وبالتالي فإن الدليل على عدم حلول الله وتحيزه في مكان خاص يدل بنفسه أيضاً على عدم تحيزه في كل مكان إذن ، معنى لا مكان له انه غير حالّ في مكان،ومعنى وجوده في كل مكان ان آثار عظمته وجلاله تملأ كل مكان ، ومع اختلاف الجهة بالسلب والايجاب يرتفع التناقض، كما لو قلت : زيد يكتب بالعربية ، ولا يكتب باللاتينية .

من رأى الله ؟

ومما قدمنا يتبين معنا ان سؤال « من رأى الله » هو تماماً كسؤال « من خلق الله » أو من رأى ما لا يُرى ! إن الذي يُرى هو الكائن الطبيعي، بل ان نوعاً من هذا الكائن لا يُرى بحال حتى بواسطة المجهر

كالألكترون وما اليه ، فكيف بمن هو فوق الكائنات الطبيعية ! ان الله يرى بالبصيرة لا بالبصر ، ومعنى هذا ان العقل يعلم بوجوده ، لعلمه بأفعاله وصفاته ، أما معرفته بالذات فمحال حتّى على العقول النيرة . لذا قال الإمام علي بن أبي طالب : « تكلموا في خلق الله ، ولا تكلموا في الله . ان التكلم في الله لا يزيد صاحبه إلا تحيراً » . لأنه محاولة للمحال .

إن هذا السؤال : « من رأى الله » يتوجه إلى القائلين بأن الله جسم ، ومن هؤلاء فرقة تنتمي إلى الاسلام ، اشتهر منها أبو عامر القرشي ، نذكر للقراء مثالاً من أقواله للمتعة والتسلية ، قال في تفسير قوله سبحانه : « ليس كمثله شيء » : ان الله لا يمكن أن يقاربه أحد في الألوهية وان هذه الآية كالآية ٣٢ من سورة الأحزاب « يا نساء النبي لستن كأحد النساء » أي أن النساء الأخريات في مكان أدنى من مكانتهن ، ولكن يشبهنهن تماماً في الصورة ، كذلك الله هو مثلي ومثلك في هيئته وصورته .

وذكرني هذا القول بما قرأته في بعض الكتب القديمة أن النملة تظن ان لله شاربين كشاربيها . وبالتالي ، فإن الذي حدا بالانسان إلى مثل هذا التفكير هي نزعته إلى المادة وارتباطه بها في جميع أدوار حياته .

وربما سأل سائل : إننا نعيش في عصر انتصار العلوم ، ومع هذا لم يكتشف عالم واحد في معمله وجود الخالق لا قصداً ولا عفواً . ولو كان لبان .

الجواب :

ان للمختبرات وأدوات المعامل حداً لا تتعداه ، وهو أجزاء الطبيعة ، فالعلم الطبيعي يبحث عن أجزاء الكون ، وارتباط بعضها ببعض ، وما تحويه من المواد ، أما ما يتعدى ذلك إلى ما وراء الكون فبعيد كل البعد عن

التجربة والاختبار في المعامل والمصانع . وهل وجـد العلماء في مختبراتهم العقل أو النفس أو غريزة من غرائزها ؟!

أجل ، لقد اكتشفوا في معاملهم معادلات دقيقة وقوانين محكمة وطاقات تفوق الحصر،ونحن نتساءل:من أوجد هذا التدبير والانسجام ؟! وهل تفسر نظرياتهم الحديثة أسرار الكون ؟! ومن أين جاءت تلك الطاقات والمواد ؟! وكيف تألفت منها المادة على ما بينها من تفاوت؟! ولماذا اختصت الحياة بجزء من الكون دون جزء ؟! ومن أعطى هذه الحياة للنبات ، والاحساس للحيوان ، والعقل للانسان ، مع أن العلماء قد اعترفوا «ان كل شيء في الطبيعة،مهما بدا مختلفاً عن غيره من الأشياء،مكون من الألكترونات وتدخل هذه الألكترونات في تكوين المادة من أشجار ومنازل وانسان ، وغيره من الكائنات،كالزجاج والمعادن،وهي بكاملها متشابهة ، وتتحرك حول المركز بحركات متماثلة »[1] وعلى هذا يجب أن تكون جميع الموجودات من نوع واحد ، اما جماداً واما نباتاً واما حيواناً واما انساناً فقط . ولكن الله سبحانه أراد تنوعها ، ولا راد لمشيئته « انما أمره إذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون » .

كيف خفي وجود الله وهو أوضح من الشمس ؟!

ربما يقول القائل : إذا كان لله تعالى في كل شيء آية تدل عليه ، وكانت آثاره تملأ الوجود ، فكيف جحده الجاحدون ؟! وهل وجد أو يوجد واحد ينكر ضوء الشمس،مع ان أدلة وجوده سبحانه أوفر وأظهر ؟!

وأجيب بأن الانسان لا يشعر بالأحوال إذا اتصلت ، فاللذة تزول إذا

---

[1] كتاب « الالكترون وأثره في حياتنا » لجين بندك ، ترجمة الدكتور أحمد أبو العباس ص ٩ ، وكتاب « التكامل في الإسلام » للأستاذ أحمد أمين المفتش بوزارة التربية العراقية ص ٢٠١ .

استمرت ، والألم ينقص إذا اتصل ، وطقطقة الساعة مهما تعلو لا تكاد تسمع بعد أن يأنس بها السمع ، والطحان لا يفيق من جعجعة رحاه ، بل من انقطاعها . وقديماً مل بنو اسرائيل المـــن والسلوى ، وقالوا : « لن نصبر على طعام واحد » . كما قيل : ان الراحة في التغيير من حال إلى حال ، وان النعمة لا تعرف إلا بعد فقدها . وهكذا عرفت الشمس بعد غيابها ، ولو دام شروقها لخفيت على كثيرين . قال الإمام الغزالي في تفسير آية « الله نور السموات والأرض » :

« إذا رأيت خضرة الربيع في ضياء النهـــار ، فلا تشك انك ترى الألوان ، وربما ظننت انك لا ترى مع الألوان ضياء الشمس، وتقول : لست أرى مع الخضرة غيرها، إلا انك عند غروب الشمس تدرك تفرقة ضرورية بين اللون حال وقوع الضوء عليه ، وحال عدم وقوعه ، فلا جرم تعرف ان النور معنى يخالف اللون ، وانه يدرك مع الألوان ، إلا انه لشدة ظهوره واتحاده باللون يختفي ، وقد يكون الظهور سبباً للخفاء.

وهكذا لما تساوت الأشياء كلها على نمط واحد في الشهادة على وجود خالقها، وان كل شيء يسبح بحمده لا بعض الأشياء، وفي جميع الأوقات لا في بعضها، لما تساوت الأشياء ــ ارتفعت التفرقة، وخفي الطريق، لأن الأشياء كثيراً ما تعرف بالأضداد ، فما لا ضد له تتشابه أحواله ، ولا يبعد أن يختفي ، ويكون خفاؤه لشدة ظهوره وجلائـه . فسبحان الذي دل على ذاته بذاته ، وتنزه عن مجانسة مخلوقاته، واختفى عن الخلق لشدة ظهوره، واحتجب عنهم باشراق نوره .

الاله الذي نعبد

رأيت عدداً غير قليل من الشباب ينكرون الخالق ، لاعتقادهم بأنه وهم من الأوهام ، وأسطورة من الأساطير ، فهو في أذهانهم كما هو في خيال الانسان البدائي قوة سحرية تُفسر بها مقتضيات الطبيعة ، و كما هو في أذهان المنتفعين يخدم الاستعمار والاقطاع ، وأرباب الجاه والمال ، أو في أذهان العجائز يجمع بين العشاق والأحباب ، أو كما هو في الإصحاح الأول من سفر يوحنا اللاهوتي ، يحمل في فمه سيفاً ذا حدين ، وفي يمينه سبعة كواكب [1] ، وما الى ذلك مما ابتدعه خيال الانسان القديم والحديث . قال صاحب كتاب « الله والانسان » صفحة مئة :

« ان الله عند جدي يداوي من الروماتيزم ، ويقوي المفاصل ، وهو عند أمي مأذون يجمع رؤوس بناتها على رؤوس عرسان أغنياء في الحلال ، وهو عند الأطفال يشبه عروسة المولد ، وعند اينشتين معادلة رياضية ، وهو عند عاشق مثلي حب ، وهو عند مشايخ الصوفية يوزع الكساوى والإعانات والمعاشات » .

---

١ كتاب « بين الدين والعلم » لأندرو ديكسون وايت ، ترجمة اسماعيل مظهر ص ٦٠ طبعة ١٩٣٠ .

ونحن رجال الدين نلتقي مع الكاتب في ان هذا الرب الذي تصوره الأطفال وهؤلاء المتصوفون لا وجود له . وأظن ان الكاتب أيضاً يلتقي مع الراشدين من أهل الإيمان لو عرف الله كما عرفوه بأوصافه وأفعاله على حقيقتها، وعليه تكون المسألة بينه وبينهم مسألة التباس وسوء تفاهم: ظن الكاتب ان الدين من صنع الانسان ، وان الإله من وهم الخيال فجحد وفند ، وهو على حق لو كان الأمر كذلك، ولكن أنى يكون ؟! وهل يستطيع الانسان ان يفرض تصوراته على الكائنات الموجودة ، بل العكس هو الصحيح ، لأن الكائن يوجد مستقلاً عن كل احساس وتفكير . وقد تصور كثير من الناس واعتقدوا ان الأرض مسطحة تقوم على قرن الثور ، وان الشمس تدور حول الأرض ، وما زالوا حتى اليوم يقولون طلعت الشمس ، وغربت الشمس ؛ فهل لعاقل ان يتخذ من هذه الأوهام والأخطاء دليلاً على عدم وجود الأرض والشمس ، لأن الناس رسموا لها في أذهانهم أشكالاً كاذبة ؟!..

ولا أدري كيف اعتمد مصطفى محمود وأمثاله لنفي الخالق على تخيلات العجائز والأطفال ، وتجاهلوا أفكار الأقطاب الكبار الذين يعبدون إلهاً لم تبتدعه الخواطر والظنون ، بل تجلى للعقول النيرة ، والقلوب الصافية بقدرته ، وانه خلق كل شيء ، وهو لا يفتقر الى شيء ، لا يظلم أحداً ، وينهى عن الظلم ويعاقب عليه ، يحكم بالقسط ويأمر به ، ويكافىء أهله بأضعاف ما يستحقون ، يساوي بين الجميع دون تفاضل الا بالتقوى وصالح العمل ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، كريم رحيم لا ييأس أحد من رحمته ، لأنها أوسع من غضبه ونقمته . هذا جزء من صفاته القدسية التي لا تحيط بها الافهام، وتجمعها كلمة واحدة ، وهي ان كل ما يمكن نسبته اليه تعالى من الحق والخير والجمال فهو ثابت له بالضرورة ، اذ لا فرق بالقياس الى واجب الوجود بين القوة والفعل .

هذا هو الإله الذي نعبده وندعو الى عبادته ، وهو يغاير الإله الذي يعبده الانتهازي ويدعونا الى عبادتـه . ان إلهنا إله الفضيلة والخيرات ، لا إله الأساطير والخرافات ، ولا حامـــي الأسطول السادس والشركات ومن كفر بما ندين ونعبد فقد كفر بالحق والخير والجمال .

العقل ... وعالم ما بعد الموت

حرية الفكر :

كل شيء يقبل التساؤل والنقاش حتى الأديان . هذا حق لا ريب فيه ، ولكن لمن يعطى هذا الحق ؟ يسأل الطفل عن كل ما يراه : ما هذا ؟ من أوجده . ولماذا وجد .. ويفرض الأب السكوت على طفله لا لعجزه عن الجواب ، بل لأن عقل السائل لا يتسع لشيء . ومهما عظمت مقدرة الأب فانه لا يستطيع ان يدخل الأرض في البيضة . ومهندس العمار لا يمكنه ان يبني قصراً من حبة الرمل . واجمع ما قيل في ذلك : « انه عجز في المقدور لا في القادر ، وفي الفعل لا في الفاعل » . كذلك نحن الرجال كالأطفال في عقولنا لا ندرك النظريات والحقائق العلمية،وان تقدمنا في السن ما لم نؤهل أنفسنا بالدراسة للتفكير العلمي ، فاذا درس الانسان وتعلّم أصبح عالماً في مهنته فقط ، أما في غيرها فيبقى على جهله كالطفل لا فرق بينه وبينه الا ان الكبير يشعر بقصوره عن التفهم دون الصغير . اذ لا يحق للفيلسوف ان ينكر على الفلاح معرفته بالزراعة تماماً كما لا يسوغ للفلاح ان يناقش الفيلسوف في منطقه واستنتاجه ، فكل منهما عالم بما يجهله الآخر ، هذا ، مع العلم ان

ما توصل اليه العالم المتخصص في موضوع دراسته ليس الا قطرة من بحر « وما أوتيتم من العلم الا قليلاً » .

اذن حرية الفكر تعطى لأصحاب الفكر الذين يمتازون بالقدرة على الملاحظة ومعرفة المقاييس ، أما الجاهل فهو كالطفل لا يتسع فكره لادراك الحقيقة ، فكيف يسمح له بأن يكون صاحب الرأي في مجال العلم والتحقيق ؟! ان اطلاق العنان للجهال والأطفال معناه الفوضى والانهيار. ان القوة شرط أساسي في الحرية بشتّى أنواعها ، فقوة الوعي والنضوج شرط لحرية التفكير ؛ وقوة المال شرط لحرية الشراء ؛ وقوة الصحة شرط لحرية العمل والسفر .

ومصطفى محمود يعترف بهذه الحقيقة ، حيث قال في كتابه « الله والانسان » لا تستطيع ان تختار شيئاً الا اذا كنت تملك ثمنه ، واذا كنت لا تملك شيئاً تستطيع ان تنتحر » . وقال في مكان آخر : « أستطيع ان أمتنع عن الأكل ، ولكني لو امتنعت عن الأكل فاني أموت ، وبالتالي تموت حريتي معي » . وعلى هذا الأساس يصح القول: ليس لانسان ان يناقش ويرفض الا اذا توفرت له قوة التمييز والمعرفة .

وقد تكلم المؤلف عن « الله والانسان » وحق علي وعلى كل منصف ان يعترف بأنه يملك الخبرة الكافية في كثير من أمراض المجتمع وعلاجها، وقد ظهرت هذه الخبرة في كلامه عن الحرية ، ومنطق اللص ، ومعنى التقدم ، وأبدى ملاحظات دقيقة ونافعة . أما أسلوبه فعطر وزهر ، وليته أطال الكلام عن الانسان وحصر موضوعه فيه وحده، وترك الحديث عن « الله » لذوي الاختصاص ، ولو فعل لسلم من تهمة القول بلا دليل ، ومن الجزم في مقام الشك .

الكلب المتدين :

قال المؤلف صفحة ١٠٣ :

« هل رأيت الخوف والذهول في عين الكلب ، وهو يتأمل ورقة طائرة في الهواء . انه لا يرى الهواء .. واراهن انه ينظر الى الورقة كما ينظر الى مخلوق حي .. ويظن ان بها روحاً تحركها، انه كلب متدين[1] » .

ونحن نفترض الصدق – جدلاً – في هذا القول ، ولا نناقش مدعيه ، لأننا نجهل لغة الكلاب، وقراءة أفكارها ولكننا نسأل الكاتب : اذا كان الأمر كذلك فماذا يكون ؟ وما هي النتيجة اليقينية لخوف الكلب من الورقة ؟! لنفترض ان النتيجة هي تدين الكلب ، وان هذا التدين كان بدافع الخوف من الورقة فهل لازم ذلك ان تدين الفيلسوف الحكيم الذي يؤمن بالله تماماً كتدين الكلب ؟! واذا كانت عقول الفلاسفة وكل من آمن بما وراء الطبيعة « كعقول » الكلاب، فمن أي نوع هو عقل الكاتب ؟! وبماذا نسمي هذا الاستدلال ؟! هل نسميه دليل الاستقراء، اي ان الكاتب تتبع عقول المؤمنين بالله من الناس واحداً واحداً ، ثم تتبع عقول الكلاب « المتدينين » الواحد بعد الآخر ، ولما رآها متشابهة من جميع النواحي خرج بهذه النتيجة الحتمية ؟!

وأقسم قسم حق وصدق ان أدلة الملحدين كلها من هذا النوع تغرق في بحر من المتناقضات ، وتتبخر مع الهواء بلا مدلول معقول .

---

[1] أخذ مصطفى محمود هذا القول بحرفه من كتاب مباهج الفلسفة الجزء الثاني ص ١٩٩ ترجمة أحمد الأهواني ، وننقل عبارة هذا الكتاب للمقارنة بينها وبين عبارة مصطفى محمود . قال صاحب مباهج الفلسفة : « ألم تر قط الدهش والخوف في عيني كلب يرى ورقة يدفعها الريح في طريقه ، إنه لا يستطيع أن يرى الريح ، واني لأراهن انه تخيل وجود روح في الورقة تجعلها تتحرك ، انه كلب متدين » .

الموت :

قال في صفحة ١١٨ :

النفس ظاهرة من ظواهر الجسم ، انها الحرارة المنبعثة من الفرن . واذا انطفأ الفرن ، وتحول الى رمـــاد انطفأت وضاعت ... ان دعوى الخلود الشخصي لا يسندها العلم كما ان الدواعي الاجتماعية التي استلزمت افتراض بقائنا بعد الموت قد انتهت .. ان دوران العجلة في المعمل يستطيع أن يولد حـــرارة وكهرباء وضوءاً ومغناطيسية .. والانسان أيضاً ظاهرة مؤقتة .. وهو يموت كغيره من الظواهر .

يدعي الكاتب انه لا حشر ولا نشر ولا عالم آخر غير عالمنا هذا ، ودليله ان النار اذا انطفأت تحول الحطب الى رماد ، وان العجلة في مولّد الكهرباء اذا توقفت انقطع التيار الكهربائي ،فكذلك الانسان اذا مات ! وهذا الدليل تماماً كالدليل السابق على ان الانسان المؤمن كالكلب المتدين الذي خاف من الورقة ! ولا أدري ما هي العلاقة بـــين انسان مثقف كمصطفى محمود ، وبين الحطب الذي يستعمله للطبخ والتدفئة، كما خفي عليّ وجه الشبه بينه وبين العجلة في المعمل الـــذي يولد الكهرباء ؟! وهل تستطيع الأشجار والحيوانات والمصانع وكل ما في السماء والأرض ما عدا الانسان ان تكتب مقالاً واحداً يشبه مقالاً من كلمات المؤلف في مجلة « روز اليوسف » ؟! وهل لها نثر كنثره الساحر الممتع ؟! لا يا أستاذ ... ان الفرق كبير بينك وبين القلم الذي تكتب به .

ومهما يكن ، فان فريقاً من الذين أنكروا اليوم الآخر قد اعتمدوا لانكارهم على ان العقل نوع من المادة ، وانه في جميع وظائفه جزء من الجسم ينمو بنموه ، ويفنى بفنائه ، فهو أشبه شيء بالتنفس والافراز، فكما انه لا تنفس ولا افراز بلا جسم كذلك لا عقل بدونه .

الجواب :

أولاً : اذا نظرنا الى أدلة القائلين بأن العقل نوع من المادة نجدها مصادرة على المطلوب ، حيث يتخذون أدلتهم من الدعوى نفسها . كقولك : « زيد هو ابن نزار بدليل ان نزاراً أب لزيد » هذا، ومع الموافقة والتسليم بأن العقل جسم فان كثيراً من العلماء ذهبوا الى ان الجسم لا يفنى ، وان التغيرات التي تحدث فيه ان هي الا انتقال وتحول من صورة الى أخرى بطريقة مطردة .

ثانياً : من المعلوم لدى الجميع ان عمل العقل هو ملاحظة الحوادث ، وتمييز بعضها عن بعض ، والبحث عن عللها وأسبابها ، ثم استنتاج الحقائق ، وكثيراً ما تنتقل من حقيقة عقلية الى أخرى مثلها ، فتكون العملية ذهنية تأملية صرف بحيث لا يمكن بحال أن ترجعها — من غير جدل ونقاش — الي المادة ، لأن المادة لا تدرك نفسها بنفسها ، ولا يكذب ما شهدت به . ان العين ترى الشمس جرماً صغيراً ، والعقل تكذبها ، فلو كان مادة كالعين لكذبت المادة نفسها ، وحكمت على الشيء الواحد بأنه كبير وصغير .

ثالثاً : ان العلماء قارنوا مقارنة دقيقة بين قوى الادراك ووزن المخ، ومقدار سطحه ، وعدد تلافيفه فلم يجدوا فرقاً بين رأس اينشتين ورأس أي همجي . ولو كان العقل هو المخ لتنوعت الرؤوس بتنوع العقول ، ولوجب أن نجد فجوات وآفات في المخ اذا نسي بعد الحفظ،وان يحصل الالتئام اذا تذكّر بعد النسيان . ان الآلة التي تعطيك صوتاً خاصاً أو حركة معينة لا تعطيك غيرها الا اذا غيرت فيها وبدلت. والظواهر المختلفة المتباينة لا تصدر عن مادة واحدة بشكلها وموضوعها وحقيقتها .

وبتقريب ثان ان للجسم خصائص ، أظهرها اذا قبل شكلاً من الأشكال ، كالتثليث فلا يقبل غيره من التربيع والتدوير الا بعد زوال

الشكل الأول ، واذا قبل صورة من نقش أو رسم فلا يقبل أخرى . فاذا رسمت صورة على لوحة أو ورقة فلا يمكنك أن ترسم عليها شيئاً غيرها حتى تمحي الأولى . أما العقل فتتراكم فيه الانطباعات المختلفة والصور المتنوعة من المحسوسات والمعقولات دون أن تمحي الأولى ، بل تبقى كاملة ، وتزداد قوة بالثانية ، لأن الانسان يزداد فهماً كلما ازداد علماً . وهذه صفة مضادة لصفات الأجسام التي يلحقها الفتور والكلل كلما تكدست عليها الأثقال .

أما القول بأن العقل لا يوجد من غير مخ فأمر لا أستطيع الجزم به وكل ما أعلمه أن الجسم لا يدرك من غير عقل ، وان العقل اسم مجرد نطلقه على عملية التفكير والنظر ، وانه يغاير المادة ، والمادة تغايره . أما افتقار العقل الى الجسم فعلمه عند ربي ، كما اني ما زلت أجهل نوع العلاقة بين العقل والمخ ، وهل هي علاقة حالّ ومحل ، أو كعلاقة الحياة بالجسم ، أو كعلاقة الآلة بمديرها . الله أعلم . واذا عجزنا عن تصور وجود العقل بلا مخ ، وعن نوع العلاقة بينهما فذلك لنقص فينا نحن لا لعدم امكانه في ذاته .

وبالتالي ، فان مصطفى محمود أنكر العالم الآخر ، لأنه عجز عن رسم خريطة أو صورة هندسية له . أما سقراط وأمثاله من أرباب الذكاء والفكر فقد حكموا على الذين جحدوا يوم الحساب والجزاء بما يعملون من خير أو شر ، حكموا عليهم بأنهم أموات في صور متحركة كصور الأفلام .

وأكتفي الآن بهذه الاشارة تاركاً التفصيل الى كتاب مستقل يجمع أقوال المؤمنين والملحدين وكل ما يتصل بهذا الموضوع الخطير ، واسم الكتاب « الآخرة والعقل » . وغرضي من هذه الكلمة ان أستدرك بها ما لم أتعرض له في ردي على الكاتب الذي نشرته في صحف القاهرة وبيروت ، ثم أدرجته في كتابي « الاسلام مع الحياة » .

وختاماً أود التنبيه الى ان كلام مصطفى محمود عن « لغز ما بعد الموت » كلام ناقل لا مؤلف ، ومترجم لا واضع . انه لا يملك مما يذكره في كتابه الا التبسط والتوضيح ، وتحويل الغامض الى مفهوم . فلقد سلخ جميع الملاحظات التي دونها « ول ديورانت » تحت عنوان الموت في كتابه « مباهج الفلسفة » . أنظر ج٢ ص ٣٠٣ طبعة ١٩٥٦ ترجمة أحمد فؤاد الأهواني . أما الأفكار التي ذكرها مصطفى محمود في الموضوعات الاخر فقد استوحى الكثير منها من كتاب « فلسفة من الصين» للفيلسوف الصيني الشهير « لين يوتانغ » وبخاصة ما ذكره بعنوان « في كوننا ذوي معدة » ص ٥٦ الترجمة العربية طبعة ١٩٥٣ . وليس في كتاب « الله والانسان » أية اشارة الى أحد الكتابين .

والحق يقال : ان مصطفى محمود أوتي ألمعية فائقة في تفسير الألغاز وحل الطلاسم، كما أوتي مقدرة بالغة على الاستفادة من كتب الآخرين .

والخلاصة ان العقل لا يحكم ببطلان فكرة ، أو استحالة شيء الا اذا استلزم القول به اجتماع النقيضين أو اجتماع الضدين كوجود الظلمة والنور معاً ، والقول بوجود الحياة بعد الموت لا يستلزم شيئاً من ذلك .

السبب

قال صاحب كتاب « الله والانسان » في صفحة ١٢٤ :

« الباب يصفق لأن الرياح تهب . والرياح تهب لأن هناك تخلخلاً في طبقات الجو . وهناك تخلخل في طبقات الجو ، لاختلاف درجات الحرارة . وقانون السببية الذي يقول بترابط الحوادث في سلسلة من الأسباب هو مجرد ملاحظة علمية مأخوذة من وقائع جزئية .. ولكنه لا ينطبق على حدث كلي . لأن الكل غاية وسبب في ذاته ، ولا يحتاج الى سبب من الخارج » .

ان هذه الكلمات ان عبّرت عن شيء فانها تعبر عن مزاج كاتبها وتفكيره ، لا عن الكون وأسبابه . رأى قلمه يتحرك ، لأن يده هي المحرك له ، ويده تكتب بالقلم ، لأنه أراد الكتابة ، وأراد الكتابة ، ليقبض راتبه كاملاً من صاحب مجلة « روز اليوسف » ؛ وأراد الراتب لأنه يريد الحياة ، وارادة الحياة لا تعلل ولا تحتاج الى سبب .. كذلك الوجود في مجموعه لا يعلل ولا يحتاج الى سبب !. وهذا الاستدلال تماماً كالاستدلال بتدين الكلب على تدين الفلاسفة !.

أجل ، ان الشجرة تحيا وتنمو وتثمر اذا توفر لها التراب والماء

والضوء والهواء ، ولكن من أين جاءت هذه العناصر؟ وكيف تكونت ؟ واذا كانت الأرض قطعة من الشمس ، والماء من البخار الذي تصاعد من الأرض بعد ان أخذت تبرد تدريجياً؛ فمن أين جاءت هذه الغازات ؟! ومن أوجد هذه الملايين من الكواكب والنجوم التي تزخر بها السماء ، والتي قال العلماء ان بعضها يبعد عن الأرض مسافة يقطعها الضوء في ألف مليون سنة . ومعلوم ان سرعة الضوء تبلغ ١٨٦ ألف ميل في الثانية.

ومهما اختلف أساتذة العلم الحديث فانهم يتفقون جميعاً على ان الكون أرحب وأعظم من أن تتصوره العقول [1] وانه لا حقائق مطلقة ، بل نسبية ، وانه لا يقين أبداً في الطبيعة ، أي ان ملاحظة العلماء لظاهرة ما لا تصل الى مرتبة علم اليقين ، وإنما هي نظريات وانعكاسات خاصة تتبدل من حين إلى حين ولا يعتمد عليها كحقيقة ثابتة « فقد اتضح في هذا القرن ان كل المعارف الطبيعية التي حصل عليها العلم ليست إلا معرفة احصائية تختفي وراءها حقيقة الأشياء وحقيقة الدنيا بالذي فيها من علل ومعلولات . وان هذه الدنيا المختفية وراء ما نعلم من ظواهر ليست معروفة ، وبناء على نظرية اينشتين غير قابلة لان تعرف ، بل غير قابلة للتصور. ان علم الطبيعة في حالة من الفوضى لا يكاد يعرف أين يقف . والبحث العلمي لا يفضي الى معرفة طبيعة الأشياء الباطنية [2] » .

وإذا قضى العلماء في مختبراتهم وبين معداتهم أمداً طويلاً يلاحظون ويدققون ، ومع ذلك لم يصلوا إلى حقيقة مطلقة يقينية لظاهرة واحدة

---

١ اقرأ كتاب « الله والعلم الحديث » للأستاذ عبد الرزاق نوفل وكتاب « العلم يدعو إلى الايمان » لكريسي موريسون ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكي ، وكتاب « مع الله في السماء» للدكتور أحمد زكي ، وكتاب « التكامل في الإسلام » للأستاذ أحمد أمين المفتش بوزارة التربية العراقية .

٢ « مواقف حاسمة في تاريخ العلم » لجيمس ، ترجمة الدكتور أحمد زكي ص ٣٤٢ ، وكتاب مباهج الفلسفة لديورانت ج ١ ص ٧٢ .

من ظواهر هذا الكون العجيب ، فكيف عرف مصطفى محمود هـذا الكون بكامله ؟ والذي يحوي من نوع النجوم فقط ما يعد بالبلايين لا لا بالملايين ؟ كيف عرف ، وهو يحرر مجلة « روز اليوسف » ان هذا الكون العظيم بأسراره وعجائبه ودقته وجماله لا يحتاج الى سبب ؟! قال افلاطون : علمت اني لا أعلم شيئاً . وقال نيوتن : ان علمي بحقائق الأشياء أقل من علم الاطفال بما في أعماق البحر . وقال صاحب كتاب « الله والانسان » : لا شيء وراء الطبيعة !. أبهذه السرعـة يا استاذ تعطي احكاماً على الله ؟! وبهذه السهولة تطرح أقوال الألوف من الأنبياء والفلاسفة والعلماء والفقهـاء ؟!.. إذن لا شيء أسهل وأهون من طرح أقوالك وآرائك . وعـلى الرغم من انها لا تحتاج الى رد فاننا نذكر الملاحظات التالية :

أولاً — قال : ان الجزء يحتاج الى سبب دون الكل . مع ان الكل هنا عبارة عن المجموعة الواسعة من الكائنات والحوادث ، ولا يمكن أن يوجد هذا الكل بدونها ، وإذا احتاج كل شيء منها الى سبب ينتج ان الكل الذي يضم جميع الأشيـاء مفتقر الى سبب . ان البيت يتألف من الحيطان والسقف ، ومعنى افتقار الحيطان والسقف الى البـاني ان البيت يحتاج اليه — مثلاً — إذا وجد جماعة كل واحد منهم أسود فلا يصح أن نقول هؤلاء من البيض . وهكذا نجد دائماً في منطق هذا الكاتب ما يكفي للرد عليه .

ثانياً — ان التفصيل بين الكل الموجود فعلاً وأجزائه خطأ ظاهر ، لأن قانون السببية عقلي ، والقوانين العقلية لا تقبل التخصيص والاستثناء، وإنما تقبله القوانين الوضعية والتشريعيـة — مثلاً — لنا ان نضع قانوناً ينص على ان كل من يخالف السير يعاقب بكذا إلا إذا كان غريباً عن

الوطن ، وليس لنا ان نقول بأن المساويين لثالث متساويان إلا إذا كانا من خشب [1] .

ثالثاً – لو كان الكل هو سبب الأسباب للزم ان لا يكون هناك قوة واعية تنشىء وتنظم، إذ لا شيء في الوجود إلا كتل من المادة لا حول لها ولا قوة،مع ان الكاتب قال في صفحة ٩٦ ما نصه بالحرف الواحد:

« ان حقيقة الحياة غير معروفة . انها حركة دبت في المادة . حركة واعية هادفة حرة . ولعلها مادة . ولعلها أي شيء . ولكنها ليست الجثة على كل حال » .

أليس هـــذا اعترافاً صريحاً بأن وراء المادة « الجثة » قوة مدركة « واعية » و « هادفة » تعمل لغاية حكيمة و « حرة » مختارة ؟! ثم ألا يتنافى هـــذا مع قوله في صفحة ١١١ : « الله في العقل الحديث معناه الطاقة الخام التي في داخلنا » ؟! وهكذا ناقض الكاتب نفسه بنفسه .

وقال في صفحة ١٠٠ : كان اسمه في فلسفة شوبنهور الارادة ، وفي فلسفة نيتشه كان اسمه المطلق ، وفي فلسفة ماركس كان اسمـه المادة ، وفي فلسفة برجسون كان اسمه الطاقة الحية ، وفي الأديان كان اسمه الله، وكثرت أمامي الأسماء ، وكثرت الأصابع التي تشير ، واتفقت كلهـا على رغم اختلاف ألوانها على ان هناك شيئاً داخل الخباء يحرك الخيوط.

أجل يا استاذ ، ان في الخفاء حقيقة محركة لا ينكرها حتى شوبنهور وماركس ونيتشه الذي قال على لسان زرادشت : « ان الله قد مات » . اعترف هؤلاء وغيرهم بأن في الخفاء قوة فاعلة ، حيث لم يجدوا وسيلة الى الانكار ، وأشاروا اليها بعبارات شتى ، وان دل هذا على شيء فانما يدل على ان تلك القوة لا يمكن معرفتها بالكنه والحقيقـة ، بل بآثارها وأفعالها .

---

١ ذكرت هذا النقض في كتاب « الإسلام مع الحياة » وهو من جملة النقوض التي أوردتها على الكاتب.

بقيت حقيقة الماء مجهولة مئات السنين ، وكان فلاسفة الإغريق كسقراط وافلاطون وارسطو يعبرون عنه بالجسم البسيط السائل بطبعه ، ثم اكتشف العلم انه مركب من الأوكسجين والهيدروجين . وحديثاً تبين للعلماء ان فيه مواداً أخرى لا تدخل تحت المجهر ، واذا كانت حقيقة الماء الذي نستعمله في كل شيء وفي كل آن غير معلومة بجميع نواحيها عند العلماء ، فكيف يستطيعون معرفة خالق الكون وحقيقته ؟! قال أحد العارفين : أنى لهذا الانسان أن يحيط بعظمة الكون وخالقه ، وقد كان نطفة ، ولا يزال جاهلاً مسيّراً إلا ما كان من ارادته في اتباع طريق الخير وطريق الشر ؟!

لقد حار العلماء في سر الكون بعد أن أدركوا وتحققوا انه لا يكتشف في المعمل ، ولا في جزء من أجزاء الطبيعة ، وبعد ان أخطأت جميع الفروض والحلول المادية التجأوا الى القول بأن وراء الطبيعة قوة مدركة تخلق وتبدع .

وقد يقال : ان فكرة قانون السببية تعتمد على ان قائلها لم يرَ موجوداً بلا موجد . وهذا لا يدل على انه لم يوجد ولن يوجد شيء من غير سبب ، إذ من الجائز أن يتحقق شيء كذلك ، ونحن لا نعلم به . وقديماً وقبل اكتشاف الكهرباء قيل : لا توجد نار بلا دخان ، ثم وجدت هذه النار .

والجواب : ان العقل هو الذي يحكم بأن الوجود يحتاج الى موجد ، ولا دخل للرؤية والاستقراء ، فهو يرفض رفضاً باتاً أن يكون العالم في جملته قد وجد بطريق الصدفة والاتفاق ، لأن الصدفة هي الفوضى بعينها ، والعالم يسوده النظام والاتساق . واجتماع النظام والفوضى محال ، وما أدى الى المحال فهو محال ، وعليه يكون حكم العقل بوجود الخالق بديهياً كحكمه بأن الكل أكبر من الجزء .

ثم من الذي خلق في كل صنف زوجين الذكر والأنثى ؟ ولماذا لم

تكن جميع الأصناف ذكوراً فقط أو اناثاً فقط ؟ وإذا أجاب مجيب بأن الغاية هي حفظ النوع قلنا له : أحسنت، كذا نقول نحن ، وعليه فلا يبقى مكان للصدفة .

وإذا أردت أن أذكر أمثلة من نظام الكون وأسراره ملأت مجلدات، ثم لم أفعل شيئاً . لذا أكتفي هنا بمثال واحد ، قرأته قريباً في كتاب « أضواء على الأرض والفضاء » لـ « مارغبت أ. هايد » ، ترجمة الأستاذ أسعد نجار صفحة ٣٤ . قال : يوجد في القارة الجنوبية المتجمدة نوع من الطيور يسمى « البانجوين » تضع الأنثى بيضها في أشهر الشتاء المظلمة ، حيث تتلبد الثلوج في الأرض والسماء ، تضعه في جيب جلدي في الطرف الأعلى من رجلها ، وتبقى الصغار في ذلك الجيب إلى أن تقوى ويشتد مراسها . فهل وجد هذا الجيب صدفة وجزافاً دون ارادة وحكمة ؟! وإذا كان الأمر كذلك فلماذا وجد الجيب في رجل الأنثى، ولم يوجد في ظهرها ؟!

وقد يقول القائل : إذا حلّت الحياة في جسم أخذت مجراها الطبيعي وكيّفته حسب حاجاته ومحيطه دافعة به إلى الأمام ، سالكة طريق الترتيب والتنظيم،أي ان الحياة هي القوة الخالقة والمبدعة في الكائن الحي.

الجواب :

ان الحياة عامل طبيعي ما في ذلك ريب ، ولكنها لا تسير على نظام وترتيب واعٍ بحيث لا تحيد عنه بحال . ولو كانت كذلك لأمكن التنبؤ عن مجراها وسلوكها في كل شيء،واستطاع المرء أن يتنبأ بمقدار ما ستحمله غداً هذه النبتة الصغيرة من الثمر والورق والزهر،وكم تزن من الخشب، والى أي جهة تتجه فروعها ، ولكن لم يدّع أحد مثل هذه الدعوى .

قال « ول ديورانت » في كتاب « مباهج الفلسفة » ج١ ص ١١١ :
« ان التفسير الميكانيكي أخذ يختفي من الفلسفة ، وعلم الحياة ، وعلم

وظائف الأعضاء ، بل وعلم الطبيعة » . ثم نقل أقوالاً لعلماء العصر الحديث تدل بصراحة على ان هذه النظرية أصبحت في خبر كان. هذا الى ان الترتيب موجود أيضاً في جميع العناصر غير الحية،حتى كتلة الحديد تمثل التوازن بين طاقتها الداخلية والطاقات الخارجية . وعليه فالذي أوجد الترتيب والتوازن في الجوامد أوجدها في الكائنات الحية ، وهي القوة المدركة التي تكمن وراء هذه الحياة .

عود على بدء :

ومرة ثانية نعود إلى أوهام المشككين،فقد يقول قائلهم : ان الاستغراب من رؤية نظام في الطبيعة من غير منظم لا يستند الى دليل ، بل هو استغراب وكفى ما دام وجود الخالق لم يثبت بالعلم .

ونجيب بأن الطريق الطبيعي الى معرفة الله سبحانه والايمان به هو العقل ، والنظر الى ملكوت السموات والأرض ، كما قدمنا ، وقد رجعنا اليه فوجدناه لا يتقبل وجود الكون بلا موجد ، وان ما فيه من تنظيم واتساق قد وجد بالصدفة والاتفاق ، ولو وجهنا هذا السؤال الى المشككين : كيف وجد الكون ؟ ومن أوجده ؟ ولماذا وجد؟لارتبكوا، ولم يهتدوا إلى جواب ، ولو كان لهم شيء من العلم والمنطق لأجابوا بثقة واطمئنان . لو ان قانون الجاذبية ونظرية النسبية وسنن القوة والطاقة وما الى ذلك يكفي في تفسير النظام وتعليل الكون لاحتجوا به واعتمدوا عليه .

وان قالوا : وجد الكون من غير موجد ، قلنا : بل أوجدته العلة الأولى . وان طالبونا بالدليل سألناهم بدورنا عن دليلهم . وان قالوا : ان كلاً منا لا يملك أية حقيقة يعتمد عليها . فعلينا جميعاً ان لا ننفي ولا نثبت ، اجبناهم .

أولاً — ان تفسير الكـون بالارادة الإلهية أقرب الى العقـل والضمير من فكرة وجوده بلا سبب ، أي ان ألفـة العقل تتطلب سبباً لهذا العالم ، وأقرب الأسباب ان يكون من صنع خالق مبدع يوجه كل شيء نحو غايته الحكيمة ، وثمرته المفيدة ، أما وجوده صدفة من غير عقل ولا أخلاق ولا حقوق ولا واجبات فبعيد عن العقل كـل البعد . ومن هنا نجد الذين أنكروا على الأنبياء رسالاتهم لم يجحدوا ويتنكروا لفكرة الألوهية ، بل رأيناهم يعترفون بوجود خالق الكون ، ولكنهم ينكرون ان يكون هؤلاء رسلاً مبعوثين من الله الى عباده .

ثانياً — لقد تقدم معنا ان التجربة ليست كل المعرفة . وقد اعتقـد العلماء بحقائق كثيرة ، مع ان العلم يعجز عن اثباتها بالتجربـة ، نذكر منها المثال التالي :

قال العلماء : ان كمية القوة الموجودة في الكون ثابتـة لا تزيد ولا تنقص ، لأنهـا اذا لم تكن كذلك أصبحت جميع المقاييس والنظريات باطلة ، حيث لا يمكن ضبطها واستمرارها على نهج واحد ، بل تتغير بين حين وحين تبعاً لزيادة القوة ونقصانها ، مع ان لدينا مقاييس علمية تضبط الحقائق بكل دقة . هذا مع العلم بأن مبدأ بقـاء القوة كما هي لا يمكن اثباتـه بطريق التجربة ، لأن العلماء مجتمعين لا يستطيعون ان يطلعوا على جميع ما في الكون من قوى ، ثم يتأكدوا بأنها ثابتة راسخة مدى الدهور والعصور .

إذن ليس من الضروري لنؤمن بشيء ان نراه رأي العـين ، فقد نؤمن بما نراه استنتاجاً واستنباطاً من المعقولات ايماننا بأنفسنا ، كالمثال المذكور ، وقد لا نؤمن بما نراه رأي العين احتراساً من خداع العيون. ولو حصرنا أسباب المعرفـة بالتجربة فقط لتهدمت معارفنا أو أكثرها من الأساس .

ثالثاً — نعيد هنا هذا التساؤل الذي ذكرناه في كتاب « الاسلام مع الحياة » : هــل هناك مخترع واحد وضع تصميمه على أساس نظرية الالحاد بحيث لو وضعه على أساس الايمان بالله لفشل التصميم ، واستحال ان يتوصل الى شيء .؟

الاديان وتطور الوعي

قال صاحب كتاب « الله والانسان » ص ١٠٨ :

« ان الأديان تمر بمرحلة انهيار تشبه المرحلة التي مرت بها ديانة الإغريق ، وهناك صفحة ثانية في طريقها لأن تطوى . والسبب هو نفس السبب في الحالين .. هو العلم وتطور الوعي وظهور المعارف الجديدة » .

يفترض هذا القائل ان جميع الديانات حتى الاسلام جهلٌ وخرافة تماماً كديانة الإغريق ، والنتيجة الحتمية لهذا الافتراض انه كلما تقدمت العلوم تأخرت الأديان . فالمقدمة بديهية ، والنتيجة طبيعية !.

ذكرني هذا القول بمنطق السفسطائيين وأقيستهم الماجنة .. رأى سفسطائي شاباً ، فقال له : هل تحب أن أبرهن لك بالعقل على انك حمار ؟

قال الشاب : تفضل واتحف السمع .

قال السفسطائي للشاب : أنا لست أنت ، أليس كذلك ؟

الشاب : أجل ، أنت غيري ؛ وأنا غيرك .

السفسطائي : وأنا لست حماراً .

الشاب : بكل تأكيد ، ان الحمار يمشي على أربع ،وأنت تمشي على رجلين .

السفسطائي ، وقد امتلأ سروراً بهذا الانتصار : اذن أنت حمار .

ولا فرق بين هذا القياس ، وبين تشبيه الاسلام – مثلاً – بديانة الإغريق . لقد قضى العلم على عقيدة الإغريقيين ، لأنهم عبدوا أعضاء التناسل والنبات والحيوان والانسان، وارتكب بعض آلهتهم،وهو زيوس، أسوأ العيوب وأقبح الجرائم ، فقتل أباه وضاجع بنته ، وطارد العرائس وغازل البنات .

أما الاسلام فقد حارب الوثنية بشتى ألوانها ، وبكل وسيلة ، ودعا الى الفضيلة ومكارم الأخلاق ، وحث على العلم ، وأثنى على الراسخين به . وذم التقليد وشبّه الجهل بظلمات ، بعضها فوق بعض ، والجاهل بالميت ، وبالأعمى الأصم الأبكم : وهل يرفع العدو من شأن عدوه ؟! وهل يقضي العلم على دين يقوم على أساس الحق والعدل ، ويقول : « يرفع الله الذين أوتوا العلم درجات » ؟! وهل ينكر العلم نبوة من قال : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .. أتيتكم بالشريعة السهلة السمحة» ! وهل يحارب العلم ديناً يخرج الناس من العبودية الى الحرية ، ومن الجهل الى العلم ، ومن الفقر إلى الغنى ؟! ولو صح قول هذا الكاتب بأن العلم إذا تقدم تأخر الدين لكان العلم عدو نفسه . والحقيقة ان العدو الأول للعلم هو الذي يتكلم عن الدين والعلم بلا دين ولا علم . فلقد تحدث الكاتب عن الأديان ، وهو لا يعلم عنها إلا ان ديانة الإغريق قد زالت من الوجود ، وإذا زالت هذه من الوجود فلا بد أن تزول جميع الأديان ، ومنها الاسلام ! ألا يشبه قوله هذا قول السفسطائيين الذين يلغون بالتهريج والتضليل ، ويتلهون بالمغالطات والسخافات !

وربما اعتذر معتذر عن الكاتب بأنه لم يتعرض للاسلام ، وانما قال ان الأديان تمر بمرحلة انهيار .

قلت : ان تركه لذكر الاسلام ، وعدم استثنائه من الأديان دليل واضح على انه لا يفرق بين الاسلام وسائر الأديان التي تسير في طريق الزوال والانهيار .

لقد أكثر القرآن من الحث على طلب العلم « وقل ربي زدني علماً » . وأوجبه الرسول الأعظم على الذكور والاناث : « العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » وأمر بارسال البعثات العلمية : « أطلبوا العلم ولو بالصين » . وقال الإمام علي بن أبي طالب : « العلم دين يدان به .. اعلم الناس من جمع علوم الناس إلى علمه » .

وهذه دعوة صريحة إلى التعاون الثقافي بين الأمم والشعوب ، بل إلى توحيد التربية والتعليم الذي هو أساس التآلف والتكاتف . فرب شعبين أو أخوين تباعدا ، لأن أحدهما يتخبط في ظلمات الجهل ، والآخر يهتدي بنور العلم ، أو لأن كلاً منهما جاهل بما عند الآخر ، أو يتجه بمعارفه وجهة معاكسة ، فاذا تعاهدا على التعاون الثقافي تم بينهما التقارب ، وأصبح كل منهما قوة لأخيه .

أمر الأسلام اتباعه ان يجمعوا علوم الناس الى علومهم ليسيروا في طليعة الأمم ، وليزدادوا يقيناً بعقيدتهم ، ودعا أهل الأديان الأخرى ان يتدبروا كل حكم من أحكامه، وكل آية من آياته « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها » ليتأكدوا انه دين العقل والعدل: « ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق ، ويهدي الى الصراط الحميد » . أجل،لقد رأى العلماء بعد ان تقدمت معارفهم ان في القرآن أسراراً لا تُفسر إلا بصدق الاسلام وعظمة المبدع وقد تجاوزت الآيات الواردة في وصف الكون حد الأحصاء[1] نذكر بعضها على سبيل المثال. فقد جاء في الآية ٣٨ يس : « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » . وكان العلم الى عهد قريب يرى ان الشمس ثابتة ، ولما تقدمت العلوم الرياضية وآلات الرصد اكتشف ما نطق به القرآن الكريم

---

١ انظر كتاب « التكامل في الإسلام » للأستاذ أحمد أمين الطبعةالأولى سنة ١٣٧٧هـ . وكتاب «نظرات في القرآن » للشيخ محمد الغزالي .

منذ أكثر من ١٣ قرناً من انها تجري لمستقر وهـذا المستقر نجمة تدعى بالنسر الواقع على شكل لولبي .

وجاء في الآية ٤٩ الذاريات : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » . اكتشف العلم الحديث ان الزوجية متأصلـة في كل شيء حتى ان الذرة مركبة من الالكترون والبروتون كهربائية سالبية، وأخرى موجبة، وان جميع ما في الكون من حيوان ونبات وانسان وجد بصورة زوجية ، فمن أوجد هذا الازدواج ، هل الصدفة أو قوة عظيمة حكيمة تسيطر على الكون بمن فيه وما فيه ؟

وجاء في الآية ١٤ فاطر : « ان الله يمسك السموات والأرض ان تزولا ، ولئن زالتا ان أمسكها من أحد من بعده » تشير الآية الكريمة الى ان الجاذبية ليست بين الأرض وما عليها فقط ، بل بينها وبين ما عداها من الكواكب أيضاً ، وان كل كوكب يجذب كل كوكب بقوة متناسبة . ولو ان العلماء درسوا القرآن بامعان ، وتدبروا ما أشار اليـه من حقائق ، ووضعوا تصاميمهم على أساسها لتكشفت لهم هذه الحقائق بوضوح من خلال دراستهم ومختبراتهم، ولتوفر عليهم الكثير من الوقت والجهد ، ولله در ابن عبـاس حيث قال : « في القرآن معان سوف يفسرها الزمن » وهذي المعاني هي اسرار الكون التي تكشفت للعلماء يوماً بعد يوم .

أين تلقى محمد (ص) هذه الدروس ! وعمن أخذ نظرية الجاذبية ، والتزاوج، وعلم الفلك، وغير ذلك مما عجز عن ادراكه كبار المخترعين، وعظماء المكتشفين ! وهل كان لديه آلات ومختبرات ، أو ان كل ذلك وجد صدفة ، ونزل الوحي به على قلب العربي الأمي صدفة !

ثم نود أن نوجه الى مصطفى محمود هذا التساؤل :

لقد حكمت دون تردد بأن الأديان تمر بمرحلة انهيار . وبديهـة ان الحكم في قضية ما يستدعي العلم بطرفيها ، فهـل أحطت بجميع أسرار

الكون ، وتتبعتها واحداً واحداً ، ثم استقرأت الأديان والآيات القرآنية والأحاديث النبوية بكاملها ، وبعد ان شاهدت وجربت رأيت ان الدين والعلم ضدان لا يجتمعان ، وعدوان لا يتفقان ! ثم انك أشدت بفضل العلم وعظمته ، لكنك في نفس الوقت شننت الحملات على دين يدعم العلم ، ويؤازره العقل ، ويحث اتباعه والناس أجمعين على البحث والنظر والتأمل والتفكير ، فكيف جمعت بين الضدين ! وعلى أي شيء يدل هذا التضارب والتناقض ! هل يدل على « العلم وتطور الوعي ! ». واذا كان الدين جهلاً وخرافة يتأخر كلما تقدم العلم، فبماذا تفسر – يا استاذ – تقدم العرب بعد الاسلام وتحولهم من جاهلية جهلاء الى حضارة أدهشت العالم ، وقلبته رأساً على عقب ، مما جعلتهم يدعون بجدارة آباء العلم الحديث ، كما قال نهرو رئيس وزراء الهند !

ان الاسلام لن يزول ولن ينهار ، لأنه حق « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » . ولأنه واقع « لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم » . أما الذي ينهار الى غير رجعة فهو الذي يقول بغير علم . ويعتقد قبل ان يتصور .. ان صح التعبير .

وبالتالي ، فهما تقدم العلم وتطور الوعي فان الاسلام أرحب وأوسع من أن يضيق به . ان عظمة الاسلام لا تظهر إلا بالعلم . ومن هنا لم ينكر هذه العظمة إلا جاهل أو مكابر .

إله ايزنهاور

بعد ان تكلم صاحب كتاب « الله والانسان » عن الإله بوجه عام عقد فصلاً خاصاً في آخر كتابه للكلام عن إله ايزنهاور، وإذا أخفق في آرائه هناك فقد أصاب كبد الحقيقة هنا .. ولو تحدث مصطفى محمود في كتابه عن الانسان وإله ايزنهاور فقط لأحرز الثقة والاعجاب من جميع الفئات ، ولرأيت فيه المنطق والذكاء ، والتفكير الصحيح، والصدق الذي ينبع من معين القلب ، والابداع والفن في ابراز الحقائق .

وهل تستطيع أن تملك نفسك ، وتمنعها عن الضحك والبكاء في آن واحد إذا قرأت كلماته التالية في صفحة ١٢٩ :

« لم ينزل القرآن في نيويورك . ولا الانجيل في هوليوود . ولا التوراة في كابري . وانما نزلت كلها في بلادنا . فلمَ هذا القول من جون بول والعم سام على تراثنا الديني ؟ ان في الأمر سراً » .

أجل يا أستاذ . وأي سر . انه عميق جداً ، عمق ينابيع البترول ، وخطير كشركات شل وفاكوم . نحن نعلم جيداً ان المستعمرين وأعوانهم لا يهتمون بالدين ولا بالثقافة ولا بالقومية العربية ولا بالقيم الأخلاقية إلا

إذا خافوا على مصالحهم، فعندها يصرخون بحرارة « الدين في خطر »[1].

وقال :

« ولنفس السبب تطبع السفارات ألوف المنشورات تمزج فيها ارادة الله بارادة ايدن ومولیه وایزنهاور ، وتجعل من الاستعمار وصياً وقيّماً على شؤون المساجد والكنائس والبطرخانات . انها تدخل علينا من الباب الوحيد الذي لا يقف عليه حراس .. باب الله » .

كلا ، يا أستاذ ، ان على باب الله صفوة من الحراس الهداة الذين نصحوا الله ورسله وكتبه وهم لا يستقبلون الا المطهرين من الدنس . ان الاستعمار يدخل من باب المزيفين الذين ينتظرون أوامر العملاء للكلام باسم الدين ، وهم أعدى أعدائه . انه يدخل من باب الذين لا يحرصون ولا يغارون على الدين إلا حين يقول ايزنهاور : « ان الكونغرس مجتمع لحماية الشرق من الالحاد » .

في هذا الوقت بالذات ينادون : « وادیناه! أصبح الدين في خطر » .

كلا ، إن الدين في حصن حصين « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » . ان الخطر يحيط بالمرتزقة من أتباع ايزنهاور الذين يحاربون الالحاد السياسي ، أما الالحاد الذي جاءنا من الأجانب ، وطغى طوفانه في المدارس والمسارح وفي كل مكان فهو عندهم ايمان وروح وريحان . قال مصطفى محمود :

« انهم يستعملون كلمة الله في السياسة الدولية كما يستعملون الجوكر

---

[1] أوضح هذه الفكرة مفصلا في كتاب مستقل الإمام المرحوم الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء ، أسماه « المثل العليا في الإسلام لا في بحمدون » . طبع مرات عدة في سنة واحدة . وأود لو يقرأه كل شرقي بخاصة الشباب ، ليعلموا ان في المسلمين علماء حقيقيين يجهرون بالحق وبه يعملون ، ولا يخدمون الاستعمار والاقطاع وأصحاب الجاه والمال وإن بذلت لهم الملايين .

– البعبع – ان الدين علاقة بين المواطن وربه ، وكل متدين حر في تصور هذه العلاقة وفهمها كما يجب . انها مسألة من صميم مسائله الشخصية ولا علاقة لها بالسياسة ، ولا بالقومية العربية ، ولا بالوحدة العربية ، وكل من يخرج بهذه العلاقة عن بساطتها الشخصية الى خضم الأحداث العالمية ، ويستخدمها ليخدع بها الجماهير ويمزجها بالسم والديناميت ويبرر بها مشاريعه مشعوذ ونصاب » . أي والله ، انه مشعوذ ونصاب وكذاب كل من يتكلم باسم الدين لمآرب شخصية ويبيعه سلاحاً للمستغلين والسفاحين.

ثم قال :

« ان الذي يدافع عنه ايزنهاور ليس هو إله الاسلام ،ولا إله المسيحية وانما هو عضو في مجلس ادارة شركة الزيت العراقية. اننا نعلن سقوط الرب الوثني الذي يدعو له ايزنهاور » .

سيسقط ، لا محالة ، هذا الرب الذي يعبده ايزنهاور وأعوانه الذين استعان بهم على ظلمه وطغيانه ، واتخذ منهم دعاة ضد الشعوب يحمون له البترول باسم التوراة والقرآن والأنجيل ، ويبقى ويدوم إله الجميع الذي « يؤمن الخائفين . وينجي الصالحين . ويرفع المستضعفين . ويضع المستكبرين . ويقسم الجبارين . ويبيد الظالمين ، ويهلك ملوكاً ويستخلف آخرين » [1] .

* * *

وبالتالي . فإن من يرمي خصومه السياسيين بالالحاد ويتهمهم بالمروق

---

[1] من دعاء يقرأه الشيعة في كل ليلة من أيام شهر رمضان المبارك ويسمونه دعاء الافتتاح ولعله إشارة إلى ما يعتقدونه من أن الأرض ستمتلىء قسطاً وعدلا بعد ما ملئت ظلماً وجوراً (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) .

من الدين بدافع السياسة والتجارة . ثم يسكت ويرضى عن الملحدين اذا كانوا حلفاءه على الباطل . وانصاره على العدوان . ان هذا أسوأ حالاً من الملحد . لأنه مراء يتاجر بقداسة الدين ويتستر باسمه كذباً ونفاقاً . ان المؤمن حقاً يحارب من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ولو كان مقيماً في مكة المكرمة ، والمدينـــة المنورة ، لأنه يكره الألحاد من حيث هو الحاد بقطع النظر عن الأشخاص والأفراد ، ويسالم من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ولو سكن في الحي اللاتيني بباريس ، أما الذين يحاربون إلحاد الشرق ، ويركعون لكفر واشنطن ولندن فأولئك عليهم ما يستحقون .

لقد دلتنا التجارب ان ادعاء القومية والوطنية والاشتراكية والديموقراطية ، وما اليها ان هي إلا تضليل وتمويه يختفي وراءها الحكام والزعماء لغايات شخصية ، وأغراض دنيوية ، ولذا لم نعد نثق بأحد ما لم نكن عـــلى يقين من دينه وإيمانه بالله والسير على نهجه القويم. وبقدر ما في نفسه من التقوى والخوف من الله بخدمة عبيده وما في أعماله من الخير والاحسان لوجه الله يكون حظه عندنا من الاحترام والتقدير .

وليت شعري ماذا يبتغي هؤلاء الناس الذين ينادون بالقومية والاشتراكية؟ هل يريدون محاربة الاستعمار والفوضى والفساد والاقطاع والاستعبــاد أو يريدون أن ينهضوا بالعرب ثقافياً واقتصادياً .

فاذا أرادوا شيئاً من هذا قلنا لهم : ان العرب كانوا أذلاء مستعبدين فأصبحوا سادة أعزاء بمحمد والاسلام وبالعروبة والاعراب . وكانـوا أمة أمية فأصبحوا اساتذة العلوم بفضل القرآن الكريم وسنّة الرسول العظيم. وكانوا فقراء بائسين فصاروابين عشية وضحاهــا وفي أيديهم مصادر الثروات والخيرات يتنعمون فيها كما يشتهون ، كل ذلك بفضل ايمانهم بالله واتباعهم رسول الله الذي هداهم الى الجد والعمل .

لقد كان العرب في جاهلية جهلاء ، فارتفعوا الى أسمى مكان باسم

الله واسم محمد بن عبدالله . وصدق الله العظيم : « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

قال الشيخ أحمد حسن الباقوري وزير الأوقاف السابق بمصر في كتاب « عروبة ودين » .

« ان أمة العرب قد عزت ومجدت بالدين ، فلا سبيل الى غير الدين ان أرادت البعث والحياة .. ان الأمة العربية لا تقوم إلا بما قام بــه أولها ، وهو الايمان بالحق وبالحرية والعزة والكرامة . والحق ان يستقيم الناس على طريق الدين ، ويلتزموا حدوده .. والحرية أن تتحرر العقول من الأوهام والخرافات ، وان تتصل اتصالاً مباشراً بالمعرفة .. ذلك هو الدين الحق ، وتلك المعاني التي تلقاها العـرب أول ما تلقوا من هدي السماء ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس » .

لذلك نحن لا نثق بزعــيم أو حاكم أو عـالم إلا على أساس الدين والتقوى. ونعني بالدين الايمان بالله مع البسالة والجرأة والتضحية والاستهانة بالموت في سبيل الحق ومن سكت عن الحق خوفاً من الناس لا من الله فقد دعانا إلى الشك في دينه وعدم احترامه .

عقائد المفكرين

ان فكرة خالق الكون يقترن تاريخها بتاريخ الانسان . فمنذ وجود الانسان البدائي حتى هذا اليوم وفكرة مدبر الكون حسب مشيئته وارادته تسيطر على العقول والقلوب بسلطان لا يقهر ولا يغلب حتى ظن كثير من الفلاسفة وعلماء النفس ان هذه الفكرة جبلّة متأصلة في الانسان، وقد ظهر سلطانها في كل عصر بمظاهر شتى من الطقوس والضحايا والقرابين ، ومن بناء المعابد والهياكل ، وما إلى ذلك من دلائل الاحترام والاجلال.

ولو أراد الانسان ان يدرس تاريخ الأديان والأدوار التي مرت بها لظهرت أمامه صور شتى تختلف في المظهر ، وتتفق على وجود خالق قدير . وفي نفس الوقت نجد الأدلة على وجود الخالق مختلفة في الشكل والأسلوب ، ومتفقة في الهدف والقصد ؛ فلعلماء الطبيعة أدلة غير أدلة الأدباء ، وأدلة علماء النفس والاجتماع غير أدلة الأطباء،بل أدلة الفلاسفة تختلف عن أدلة المتكلمين ، ولكنها تتوافى الى نتيجة يجمع عليها الكل وان دل هذا على شيء فانما يدل على صدق ما قاله الشاعر :

عجبت للعبد كيف يعصي الإ　　له ويجحد آلاءه الجاحد

وفي كل شيء له آية　　تدل على انه واحد

وقد أخذ الشاعر هذا المعنى من قول الإمام علي : « ما رأيت شيئاً الا رأيت الله معه » وترجع هذه الحقيقة في أصلها الى القرآن الكريم : « وان من شيء الا يسبّح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم »[1] .

ومن الخير والفائدة أن نشير إلى كتاب للأستاذ العقاد اسمه « عقائد المفكرين في القرن العشرين » جمع فيه عدداً غير قليل من مفكري هذا العصر الذين يعتقدون بدافع من تفكيرهم وتجاربهم الخاصة بوجود قوة وراء الكون تديره بحكمة ونظام . ولم يتأثر هؤلاء المفكرون ببيئة أو مدرسة أو كتاب يمت إلى الدين بسبب ، وفيهم العلماء والأدباء والفلاسفة والأخلاقيون .

الدكتور الكسس كاريل :

فمن العلماء الدكتور الكسس كاريل ، ولد بفرنسا سنة ١٨٧٣ ومات فيها سنة ١٩٤٤ ، وهو طبيب متخصص في بحوث الخلية ونقل الدم والأعضاء . اشتغل بالطب علماً وجراحة واشرافاً على معاهد العلاج ، وصاحب جائزة نوبل ١٩١٢ ، ومدير معهد الدراسات الانسانية بفرنسا .

يؤمن بأن الله لازم للانسان لزوم الماء والاوكسجين ، لأنه لاحظ من تجاربه بأن كل خلية في الجسم تهتدي بالعقل الأبدي الى موضعها من البنية المرسومة،وتعمل في كل من خطواتها كأنها ترى تكوين الجسم كله ماثلاً أمامها .

---

١ تسبيح كل شيء بحسبه ، فالعاقل يسبح الله بقلبه ولسانه ، وغير العاقل يسبح بدلالة الحال على وجود الله وتوحيده ، إذ كل موجود سوى الله مفتقر اليه تعالى ، والافتقار اليه دليل قاطع على تعظيمه وتقديسه . قال الرازي في تفسيره : إن التسبيح باللسان لا يكون إلا مع العلم والفهم والنطق ، وكل ذلك محال في الجماد ، فلم يبق إلا التسبيح بلسان الحال .

الصلاة :

ووضع هذا العالم رسالة في الصلاة قال فيها :

« إن الصلاة تسامٍ الى أوج اللامادية من الدنيا ، وهي على أكثر ما تكون شكاية أو ابتهال أو صرخة أو استغاثة،وهي في بعض الأحايين تأمل خالص في أصول الوجود ومصادره ويصلح ان يقال : انها ارتفاع الى المقام الإلهي وعنوان للتوجــه بالحب والعبادة الى الذي منه صدرت الأعجوبة التي هي الحياة .. وبالصلاة يسمو الانسان الى الله ، ويدخل الله سريرته وهي ضرورة لا غنى عنها لنمو الانسان في أرفع حالاته ».

فرانز ويرفل :

من الأدباء وكتاب القصة العالميين الأديب النمسوي فرانز ويرفـل ، توفي سنة ١٩٤٥ ، قال في كتاب « بين السماء والأرض » :

« ان تفسير الكون بالقياس والتعقيب هو أنجح أحابيل الشيطان، لأن حجته التي تقوم عليها جميع المذاهب الوضعية المادية هي ان الشيء يساوي نفسه ، والأمة وليدة الأقليم الجغرافي والفرد محكوم بظروفه ، ومطالب الشعب تتوقف على حاجاته الاقتصادية ، والفيل له جلد فيل « لأنــه ضروري له .. وقد نجح الشيطان في تزويغ الأصول الأولى من المسألة كلها ، وهي أصول الخلق والكينونة ووجود الله .. ان الله أعظم جداً من ان يحتوي كلام الانسان برهاناً على وجوده » .

الدين بعد مليون سنة :

ما زلنا نسمع ونقرأ ان مستقبل الدين في خطر ، والـــذين يقولون

هذا القول منهم المؤمنون الذين يغارون على الدين حقاً ، ومنهم الذين يعبرون عن أمنيتهم وعدائهم للدين ، وتأتي كلمة العلم لترد على هؤلاء ، وتبشر أولئك .

نقل الاستاذ العقاد ان لداروين الشهير حفيداً ، اسمه السير شاول داروين ، قد بلغ من العلم مبلغ الرياسة والأستذة ألف كتاباً اسمه « بعد مليون سنة » قال فيه :

« ان الانسان سيحتفظ بالعقيدة الدينية في المليون السنة المقبلة قياساً على المعهود من تاريخه القديم والحديث .. ولهذا كانت العقائد على جانب عظيم من الأهمية بالنظر الى المستقبل لأن العقيدة تبعث الأمل فعلاً في دوامها بعد صاحبها ، وفي سيطرة الانسان على مصيره بفضلها » .

وبالتالي، فالى كتاب « عقائد المفكرين في القرن العشرين » يا شباب هذا العصر ، لتتبينوا ان موقف العلماء والأدباء والفلاسفة في عصر الذرة من الدين ، موقف التسليم والاذعان .

النُّبُوَّةُ وَٱلعَقْل

تمهيد

ان مسألة النبوة التي نتكلم عنها في هذه الصفحات ليست من الموضوعات الحديثة ، ولا من المسائل المعقدة الغامضة،فقد عرفها الناس منذ عشرات القرون ، وتحدثت عنها كتب الدين والكلام والفلسفة باسهاب وتعمق ، وآمن بها ألوف الملايين في العصر الحاضر والغابر .

ونحن لا نجد شيئاً جديداً نضيفه إلى أقوال العلماء الراسخين ، وانما غرضنا الوحيد أن نوضح ونبسط آراءهم للشباب ، لعلهم يقرأونها فيما يقرأون من هذه الكتب الحديثة التي تزخر بها المكتبات ، والتي صرفتهم عن كل قديم ، حتى ولو كان دواء لا داء بعده ، وهدى لا ضلالة فيه .

ظنوا ان الدين حافل بالبدع والخرافات ، وانه لا عمل لرجال الدين الا أن يسيروا في ركاب الجائرين ، ويزينوا لهم البغي والعدوان على المستضعفين ، فتنكروا للدين وأهله ، ونفروا منه ومنهم .

ونحن لا نريد منهم الا أن يقرأوا كتاب الله وسيرة النبي الكريم ، ثم يحكموا بما يشعرون ، كما يفعل المفكر الرشيد، ومتى قرأوا وأنصفوا يتم الصلح بينهم وبين العلماء الذين ينزهون الاسلام عن الأساطير والأوهام .

وتشاء الصدف أن يقع في يدنا كتابان ، ونحن نبحث ونتتبع المراجع القديمة والحديثة التي تتصل بهذا الموضوع . وقد وقفت عند الكتابين طويلاً ، لأن أحدهما موعظة وذكرى ، والآخر فيه تجن وهوى ، واسم الأول « محمد . الرسالة والرسول » ألفه دكتور مسيحي من أقباط مصر ، درس الأديان وقارن بينها ، ثم انتهى الى الإيمان بنبوة محمد وتعاليمه . ويجد القارىء ملخصاً لهذا الكتاب في الفصول الآتية بعنوان « الرسالة والرسول » واسم الكتاب الثاني « قشور ولباب » وصاحبه دكتور مصري وهو زكي نجيب محمود ، وقد تعرض فيه لمفهوم الأدب والعلم والفلسفة ، وحمل على الميتافيزيقيا ، ونسب كل ما يتصل بما وراء الطبيعة الى الأوهام والأساطير ، وأطال الكلام في الأدلة على دعواه هذه ، ثم انتهى الى النتيجة التالية :

« وما دامت الميتافيزيقيا كلها كلاماً فارغاً على النحو الذي بينّا ، فما نحن صانعون بهذه الاسفار الضخمة التي تراكمت لدينا على مر القرون مما كتبه الميتافيزيقيون ؟ انه لعزيز عليّ وعليك ان تلقي هذه الاسفار ، كما ينبغي لها طعاماً لألسنة النار ، أو اثقالاً في قاع البحر ، وإلا فلنبق عليها ، ليقرأها القارىء ، اذا أخذه الحنين الى الماضي ، كما يقرأ أساطير الأولين [1] » .

وليس بجديد علينا هذا القول ، فقد ألفناه منذ القديم ، وناقشناه في ما نشرنا من مقالات ومؤلفات ، ولكن الجديد الذي لم نعرفه من قبل ، ولم نسمعه من أحد هو قول المؤلف في ص ١٥٥ :

---

١ ص ٢١٩ و ٢٢٠ طبعة ١٩٥٧ .

« ان فتح النوافذ والأبواب أمام المدنية الغربية لم يصادف هوى عند طائفة من الناس ، فبين ظهرانينا فريق كبير جداً كان يتمنى بحكم تربيته أن يكون نهوضنا كله نمواً من الداخل ورجوعاً الى الماضي ، فلما رأوا ان تيار الحضارة الغربية العلمية جارف يمس أوضاع الحياة كلها ، لم يروا بداً من الحركة في اتجاههم ، وهو الجري الى الوراء لاستخراج كنوز الماضي ، لعلهم يجابهون بها الغرب الدخيل ، ولكنهم لم يقتصروا على مجرد نشر القديم نشراً مزدوجاً بالشرح والتعليق ، بل أضافوا الى ذلك « تعقيل » هذا التراث ما استطاعوا الى ذلك من سبيل » .

وهو يريد بقوله هذا رجال الدين وغيرهم من قادة الفكر ، لأنه ضرب مثلاً بمفكر وضع كتاباً في الشعر العربي القديم ، وبإمام فسّر القرآن تفسيراً راعى فيه أن تظهر أحكامه للناس متسقة مع العقل العلمي الحديث .

ولو ان الدكتور زكي درس الاسلام ، واطلع على أحكامه وتعاليمه لاستثنى قادة الدين من قوله : « أضافوا الى ذلك (تعقيل) هذا التراث » ولعلم انهم لم يحاولوا اعطاء الاسلام أية قيمة أجنبية عنه ، وانما كشفوا عن بعض قيمه وخصائصه ، وانهم لم يذكروا من كنوزه وأسراره إلا القليل .

ان أئمة المسلمين لم يرسموا لتفسير القرآن خططاً من عندهم تتلاءم مع العقل الحديث أو القديم ، بل ان القرآن هو الذي أرشدهم إلى منهج العلم والعقل ، وأمرهم بنبذ الخرافات والأوهام ، ولو ان رجال الدين اتبعوا منهج القرآن في التفسير والتشريع لما رأينا في أقوال بعضهم ما يلام عليه . لذا ترانا نحتج بالقرآن وباسم الدين على من ينحرف عن طريق الفطرة والعقل ، ولكن البعض يتجاهل هذه الحقيقة ، ويعكس الآية ، فيحتج على رجال الدين اذا تركوا البدع والضلالات ويزعم

انهم يتكلفون ويتمحلون ! كأن الدين « بصّارة براجة » أو تغسيـل أموات ، وتلاوة آيات !

قال المستشرق الفرنسي جاستون : « ان القرآن هو منبع الدين العقلي ودستوره ، فقد احتوى على أسس تستند اليها حضارة العالم » . ويقول دكتور مسلم : « لقد أضاف القادة إلى تراثنا التعقيـل » ، أي أعطوا العقل لما لا يعقل !

ان العلماء الراسخين لم ينفوا عن الدين ما هو منه ، ولم يضيفوا اليه ما خرج عنه . انهم لم يفعلوا شيئاً أكثر من الكشف عن الواقع ،وازاحة الستار عن جوهر الدين وحقيقته « رأوا من يخطىء فهم الدين ، ويلقي عليه التبعات ، كما رأوا تحكّم القوي بالضعيف،وشيوع الفسق والفحش، والاضطراب في الأعمال والأخلاق ، فشعروا بالمسؤولية أمام الله والضمير عن معاني الحق والفضيلة ، فبينوها للناس ، ودافعوا عنها ودعوا اليها، ورفعوا أصواتهم مع أصوات المعذبين في كل شعوب العالم ، وأثاروا في النفوس النزعة الانسانية نحو الخير ، وربطوا مسائل الدين بصالح الجماعة، وبرأوه من كل ما يضير الانسان ، كما جعلوه وسيلة للتعاطف والتفاهم، وطريقاً للعدل والأمن والسلام .

وهذا هو ذنبهم عند البعض ! مساكين أهل العلم ، ان سكتوا قيل كسالى مهملون ، وان تكلموا قيل متعصبون متمحلون ، ولكـن يهون الخطب ان من يقول هذا القول هم شذاذ الأحزاب الـذين لا يرضون عن أي انسان وبخاصة عن رجل الدين إلا إذا طبّل لهم وزمّر،وحرّف لهم كلام الله وسنن الأنبياء والصالحين،ورمى من لا يشايعهم على الضلال بالزيغ والانحراف . وصدق الله العظيم حيث خاطب نبيّه الكريم بقوله: « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل ان هدى الله هو الهدى . « البقرة — ١٢٠ » . وقد علمتنا الأيام والتجارب ان

أخوف من يخاف منه المجرم المأجور هو رجل الدين الذي لا يؤثر على عقيدته شيئاً .

وإذا فسر المتحذلقون أقوال رجال الدين بأنها تمحل وتعصب لدينهم وعقيدتهم ، فبماذا يفسرون قول الدكتور فيليب حتي المسيحي المعاصر ، والمؤرخ الكبير الذي وصف الاسلام بأنه حضارة عامة شاملة تنتظم كل من يعيش تحت سمائها في حرية وصفاء،ويعيش غير المسلمين مع المسلمين على قدم المساواة وتربطهم بروابط المحبة والأخوة » !

واذا عقل غـــير المسلم فضل الاسلام وعظمته ، ونطق بكلمة الحق لوجه الحق ، فهل يكتمها علماء المسلمين ، وقد أحيـا الله قلوبهم بنور الاسلام منذ عرفوا الحياة ؟! كلا سيمضون في هذا الطريق غير مبالين ولا مكترثين ، يجهرون بالحق،ويدفعون عنه بصراحة وشجاعة لا تأخذهم رغبة في منصب ومال ، ولا رهبة من قوة وسلطـان ، ولا يبتغون إلا وجه الله ، وخدمة الاسلام .

الحسن والقبح

قال بعض الشعراء :

رُبَّ قبح عند زيد هو حسنٌ عند عمرو
فهما ضدان فيه وهو وهمٌ عند بكر
ليت شعري فمن الصادق فيما يدّعيه
ولماذا ليس للحسن قياسٌ ، لست أدري

بل ، ان قياس الحسن موجود ، ولو كشف عنه الغطاء لم يختلف فيه اثنان ، والذي دعا الشاعر الى نفيه ، وأوقعه في الحيرة والتشكك ما قرأه في بطون الكتب من الآراء والأقوال المتضاربة حول تحديد قياس الحسن وبيان مفهومه ومعناه .

لقد اتفقت الكلمة على ان للحسن واقعاً ، وان له قياساً دون ريب ، ولكن وقع الاختلاف في حقيقة هذا القياس ، فذهب الأشاعرة [1] الى أنه ليس للفعل صفة يكون باعتبارها حسناً أو قبحاً ، بل ما أمر به

[1] الأشاعرة هم أتباع أبي الحسن الأشعري المتوفي حوالى ٣٣٠ ه .

الشرع فهو حسن ، وما نهى عنه فهو قبيح ، ولو أمر بالقبح لصار حسناً ، أو نهى عن الحسن لأصبح قبيحاً .

فالصدق والكذب ، والأمانة والخيانة ، سيان في الواقع قبل ان ينص الشرع على التحليل أو التحريم ، ومما احتج به هؤلاء — الآية ٢٣ من سورة الأنبياء — : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » والنتيجة المنطقية لهذا القول ان لا فضائل ولا رذائل في الأفعال قبل أمر الشرع ونهيه .

ويكفي للرد على القائلين به ان عقولنا تدرك حسن الصدق النافع ورد الوديعة ووفاء الدين ، وقبح الكذب الضار والخيانة والتعاون على الأثم كما ندرك ضوء الشمس ، وكما نعلم ان ضم واحد الى مثله يصبحان اثنين ، أجل ان الله سبحانه لا يأمر إلا بالحسن ولا ينهي إلا عن القبيح ، كما قال الإمام علي ، ولذا لا نقول : هذا حسن لأن الله أمر به ، وذاك قبيح لأنه نهى عنه ، وانما نقول : ان الله أمرنا بهذا لأنه حسن ونهانا عن ذاك لأنه قبيح .

أما معنى قوله تعالى « لا يسأل عما يفعل » فهو ان العبد لا يحق له أن يقول لله لمَ فعلت ؟ لأنه سبحانه قادر على كل مقدور ، وعالم بقبح القبائح وهو غني عنها . ومن كان كذلك استحال أن يفعل القبيح بخلاف العبد ، حيث يجوز عليه ذلك ، ولذا كان مسؤولاً .

وقال المعتزلة والإمامية : ان الأفعال منها ما هو حسن بحكم العقل لا باعتبار حكم الشرع ، كالصدق النافع وما اليه ، ومنها ما هو قبيح كذلك ، كالكذب الضار ، ومنها ما لا يستقل العقل بالحكم عليه سلباً أو ايجاباً ، فنحتاج حينئذ إلى الشرع ، كوجوب الوفاء بعقد البيع ، وتحريم أكل لحم الميتة ، وما كان من النوع الأول يعبّرون عنه بالحسن أو القبح العقلي ، والنوع الثاني ينعتونه بالشرعي .

وبالجملة « ان العقل يستقل بحسن شيء وقبح آخر ، ولو في بعض

الأشياء وعلى سبيل الموجبة الجزئية ، ولو عزلناه كلية لتهدم اساس اثبات الصانع ، ولزم افحام الأنبياء ، حيث يجيز العقل ، والحالة هذه ، ان تظهر المعجزة على يد من يدّعي النبوة كذباً وافتراء »[1] . ومؤدى هذا القول ان العقل يدرك شيئاً من الحسن والقبح ، ولا يدرك شيئاً منهما ، والذي يدرك كل شيء هو الله وحده جل وعلا .

وقال آخرون : كل ما يحقق رغبات الفرد وميوله فهو حسن، وكل ما يتنافى معها فهو قبيح ، وهؤلاء هم الفوضويون الذين لا يدينون بشيء ولا يعترفون بكائن غير أنفسهم .

ولو أخذنا بنظريتهم هذه لبقي الانسان كما كان يعيش في الكهوف والغابات يقتات النبات والحشرات ، ولم يتقدم خطوة واحـــدة في مضمار الحياة ، وكيف يستطيع الفرد أن يحقق غاياته إذا لم تتفق مـــع غايات الآخرين . انه جزء من كل يرتبط وجوده بوجود غيره ، فلو عمـــل على أساس تجاهل الحقائق وعدم المسؤولية لتحطمت حرية الجماعة وكرامتها، ولتعذر على أي انسان أن يحقق شيئاً مما أراد . وماذا يبقى لك أو لي أو لغيرنا اذا أنكرنا الشرائع والأخلاق ؟!

وفئة ثالثة ذهبت الى ان الحسن ما يستحسنه الناس ، ويألفه المجتمع . وهذا القول لا يصح في المجتمع الفاسد ، فقد وأد أهل الجاهلية الاناث، واعتبروهن سلعاً تشترى وتباع ، وكان المصريون يزفون بناتهم الى النيل ويغرقونهن أحياء ، والى اليوم نسمع بوجود أكلة لحـــوم البشر ، وان الانسان يقدم قرباناً للآلهـــة ، ففي « اوينتشا » يقدم أهلها كل سنة شخصين قرباناً لآلهتهم ! وكذا تدفن الزوجة في بعض بلاد الهند حيـة مع زوجهـــا ؛ وكلنا يعلم كيف يعـامل الملونون في اميركا وجنوب افريقيا !

---

[1] تقريرات المرزا النائيني للخراساني ج ١ ص ٢٢ طبعة ١٣٤٥ هـ .

والحقيقة ان كل ما ينهض بالحياة، ويرفع من شأنها بجهة من الجهات الروحية أو المادية فهو حسن ، وكل ما يؤخرها عن التقدم ، ويقف في طريق نموها وازدهارها فهو شر وقبيح ، فنهضة الصناعة والزراعة والثقافة ، والتحرر من العبودية والصدق والامانة وضبط النفس عن الحرام والرذيلة والجهاد والتضحية ، وما الى ذلك مما يحل مشكلات المجتمع كله خير وحسن في ذاته وعند العقل والناس أجمعين .

أما الركود والجمود ، أما الكذب والدس ، والاعانة على الظلم والاستغلال فشر وقبيح ، لأنه الموت والهلاك بعينه . اذن ، العقل يدرك الكثير مما ينفع الانسانية ويضرها كالأمثلة المتقدمة ، ويخفى عليه الكثير كأكل لحم الميتة وما اليه فنحتاج والحال هذه الى حكم الشرع ليكشف لنا الحقيقة .

وقد يتساءل : اذا كان العقل يدرك الكثير من حسن الاشياء وقبحها، وكان القياس الذي يميز بينهما بهذا الوضوح وهذه البديهة ، فلماذا وقع الخلاف في تحديده بين أهل الرأي والنظر !؟

والجواب ان اختلاف هؤلاء في معنى الحسن وقياسه لا يدل على عدم وجوده ، أو خفائه وغموضه ، وانما يدل دلالة واضحة على أنهم لم يدركوا حقيقة العالم الذي عاشوا فيه ، ولم يعرفوا شيئاً عن حياة المجتمع وفئاته ، فلقد كانوا يعيشون في برج عاجي ، ويرتفعون الى السماء ، ويتكلمون عن أهل الأرض دون ان يعرفوا عنهم شيئاً ، ومن نأى باحساسه ووجدانه عن حياة الناس ، لا يحق له أن يتكلم عنهم وعن مقاييس حياتهم .

ومهما يكن فان الحسن حقيقة واقعة وقياسه جلي وواضح، وان كثرت الأقوال وتضاربت الآراء في شرحه وتفسيره . ومن النتائج المترتبة على ادراك العقل للحسن والقبح أن كل شيء يحكم العقل بحسنه فهو محبوب شرعاً ، وما يحكم بقبحه فهو مكروه كذلك ، وهذا معنى قول طائفة

من فقهاء المسلمين : « كل ما حكم به العقل حكم به الشرع ... والعقل رسول في الباطن ، والشرع عقل في الظاهر – مثلاً – إذا أدرك العقل ان العدل حسن والظلم قبيح نحكم بأن العدل محبوب لله ، والثاني مكروه له ، لأن المفروض ان أوامر الله ونواهيه تتبع المصالح والمفاسد في نفس الأفعال التي تعلقت بها .

وقد ندرك الجهة الداعية لأمر الله ، والجهة الباعثة على نهيه ، وقد تخفى علينا تلك الجهات غير اننا نعلم علم اليقين بأن ما خفي علينا لو اطلعت عليه عقولنا لكان حكمها موافقاً لحكم الشرع تماماً ، لأننا نثق بعدل الله وحكمته أكثر مما نثق بمقدرة الطبيب واخلاصه الذي نستسلم له ولتعاليمه من دون قيد وشرط .

ومرة أخرى نقول : إذا عزلنا العقل عن ادراك الحسن والقبح للزم أن تكون الأشياء كلها في نظره على نسق واحد ، فلا حق ولا باطل، ولا خير ولا شر ، ولا صواب ولا خطأ ، وللزم أيضاً أن يجيز العقل على الله سبحانه اللغو والعبث ، والترجيح بلا مرجح ، وانه لا مانع أبداً أن يأمر بقتل الأطفال والنساء والطيبين الأبرياء ، وان يعذب بناره الشهداء والأنبياء ، ويدخل جنته السفاكين وقتلة الشعوب ، وان يصدق الكاذب ، ويكذب الصادق .

إذ المفروض ان العقل لا يقر ولا ينكر ، لا يستحسن ولا يستقبح، وانما توجد جهة الحسن في الشيء بعد ان أمر الله به ، وتتحقق جهة القبح فيه بعد ان ينهى عنه ، مع ان العكس هو الصحيح ، أي ان الله أمر بهذا لأنه حسن ، ونهى عن ذاك لأنه قبيح ، بدليل قوله عزّ من قائل : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي .. أحل لكم الطيبات ، ويحرّم عليهم الخبائث ... وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا،والله أمرنا بها ، قل ان الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون » .

أجل ، ان حكم العقل بحسن هذا وقبح ذاك يتفق تماماً مع الارادة الالهية ، ويستلزمها بالضرورة ، فإن عدل الله الشامل ، وقدرته على كل مقدور ، وتنزيهه عن اللغو والعبث ، وعلمه بالخفايا والأسرار ، وحكمته التي تستوجب ان تكون أفعاله وأوامره ونواهيه كلها على أتم ما ينبغي ، وأبلغ ما يتصور ، بحيث تترتب عليها المصالح والمنافع ، وتندفع بها المضار والمفاسد ، ان هذه وما اليها تستدعي ان يفعل الله الحسن دون القبيح .

وعلى هذا الأساس ، أساس ادراك العقل للحسن والقبح ، وعدالة الباري وقدرته وحكمته سنتكلم في الفصل التالي بعنوان: النبوات ، نتكلم فيه عن هذه الحقيقة : « هل يحكم العقل بأن ارسال الرسل مبشرين ومنذرين حسن أولاً ؟ » ومتى اثبتنا هذا بحكم العقل ثبت بالضرورة والبديهة ان الله قد بعث انبياءه هداة للناس .

النبوات

نبدأ هذا الفصل بذكر الصفات التي يجب توافرها بالنبي ، ليصبح أهلاً لتلقي الوحي ، وبيان الغاية من ارساله وبعثته ، ومنهما يتضح حكم العقل بثبوت النبوات وارسال الرسل .

النبي انسان مبعوث من الله الى الناس ، من الحق الى الخلق ، ولا يبعث الله رسولاً حتى تجتمع فيه الصفات التالية .

صفات الرسول :

١ — ان يكون كامل العقل والذكاء بحيث يدرك ما يسمع ويقال له على حقيقته،ويفطن الشيء بسرعة وان كان خفياً ، ولا يتحير ويتردد في الامور .

٢ ان يكون كبير النفس يسمو بطبعه الى الأرفع والأفضل .

٣ — ان يكون سليم الجسم من الأمراض المنفرة كالجذام والبرص وما اليهما .

٤ ـ أن يكون أميناً ومنزهاً عن الفظاظة والغلظة ، وعن دناءة الآباء وعهر الأمهات . وكل ما يشوه السمعة والسيرة ، لئلا تنفر منه الأذواق السليمة ، فلا يحصل من بعثته الغرض المطلوب ، وهو حمل الناس على الحق والابتعاد بهم عن الباطل .

٥ ـ أن يكون شجاعاً غير هياب لا يجبن ولا يتخاذل في سبيل الحق والعدل ، مهما تحرجت الأمور وأنذرت بالشدائد والمحن ، لأن الرضوخ والتخاذل لا يتفق مع الوفاء للعقيدة والمبدأ . وان يكون كريماً يؤثر على نفسه ، ولو كان به خصاصة .

٦ ـ ان يكون زاهداً غير شره على الشهوات،لأنها تحول بين المرء وعقله ودينه .

٧ ـ أن يكون بليغاً يعبّر عما يريد بأكمل وأوضح بيان، لأن ذلك أدعى في التأثير ، وأجدى في التبشير .

٨ ـ أن يكون معصوماً عن الزلل والخطأ والسهو في تبليغ الأحكام، لأن الغرض من بعثته ارشاد الناس إلى الحق وردعهم عن الباطل ، فلو جاز عليه الخطأ والمعصية لذهب الغرض المطلوب . وقديماً قيل : « فاقد الشيء لا يعطيه » .

ومن هذه الصفات يتبين معنا ان النبي بشر كسائر النـاس لا يختلف عنهم في شيء الا انه انسان كامل خصه الله بوحيه ورسالته « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ انما إلهكم إله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه، فصلت ٦ » .

الغاية من البعثة :

أما الغاية المتوخاة من وجود الأنبياء فهي أن يسمعوا أهـل الأرض

نداء السماء ، ان يدعوا إلى الايمان بإله لا شريك له ولا مثيل ، وإلى الخشوع والخضوع للحق بنية خالصة مخلصة ، وان يرشدوا إلى ما فيه الخير والسعادة للجميع دنيا وآخرة ، فيبثوا روح التعاطف والتراحم بين الناس ، وحث العدل والحق ، ويهيئوا كل فرد بوازع من عقيدته وإيمانه إلى عمل الخير وترك الشر ، إلى التحرر من المنافع الشخصية ، والقيام بالواجبات الاجتماعية ، وأبلغ كلمة تعبّر عن مهمة النبي قول الرسول الأعظم : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

ومن الخير أن ننقل هنا كلمة صغيرة كبيرة لبعض المخلصين خاطب بها مرجعاً دينياً كبيراً ، قال :

« تذكر ان الدين هو صاحب السيادة لا أنت ، وانما انت واحد من الناس ، وأخ بين أولئك الذين يجدون غبطة في الله : وشريك مع الذين يخافونه ، وفيما عدا ذلك فاعتبر نفسك مجبراً أن تكون وجه العدالة ، ومرآة القداسة ، ونموذج التقى ، ومعيداً الى الحقيقة حريتها ، ومدافعاً عن الإيمان ، ومعلماً للأمم ، وداعياً للشعب ، وسيداً للحق ، وملجأ للمظلومين ، ومحامياً عن الفقراء ، وأملاً للمتألمين ، وحامياً للأيتام ، وقاضياً للمترملين ، وعيناً للمكفوفين ، وعصا على الاقوياء ، ومطرقة على الطغاة ، وأباً للملوك ، ومديراً للقوانين ، ومراقباً للأنظمة ، فأنت ملح الأرض ونور العالم ؛ وخادم الرب العظيم . تذكر ما أقول لك ، وليعطك الله فهماً » .

وبهذه الصفات يصبح صاحبها طريق الحق وصراط الله القويم، والعقل الكامل للانسانية جمعاء . وعليه تكون بعثة الأنبياء حسنة بحكم العقل والضرورة ، وكل حسن فهو محبوب ومراد لله سبحانه . وإذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . اذن البعثة كائنة ومتحققة بالفعل .

وسئل الإمام جعفر الصادق عن الدليل على البعثة فقال :

« لما اثبتنا ان لنا خالقاً متعالياً عنا ، وعن جميع ما خلق ، وكان

ذلك الصانع حكيماً لا يشاهده خلقه ، فلا يلامسهم ولا يلامسونه ، ولا يباشرهم ولا يباشرونه ثبت ان له سفراء في خلقه وعباده يدلونهم على مصالحهم ومنافعهم ... وهم الانبياء والصفوة من الخلق » .

البراهمة :

وقال البراهمة [1] : لا حاجة لبعثة الأنبياء ، لأن النبي اما أن يأتي بما يوافق العقول ، واما بما يخالفها ، فان جاء بما يوافق لم تكن اليه حاجة ، ولا فيه فائدة ، لأن العقل يغني عنه ، وان جاء بما يخالف وجب اهماله ورده .

والجواب : اننا لا نشك بأن العقل يدرك حسن بعض الأفعال كالصدق والعدل ، وقبح بعضها كالكذب والظلم — كما أسلفنا — وهو يحكم أيضاً بأن فاعل الحسن يستحق المدح ، ومرتكب القبيح يستوجب الذم، ولكن هناك أموراً كثيرة لا يدركها العقل ، ولا يحكم بها سلباً أو ايجاباً ، كشكل العبادات التي تقربنا من الله سبحانه ، وكالوفاء بعقد الزواج والبيع والهبة ، وكيفية تقسيم الميراث ، ونوع العقاب الذي يستحقه المجرم ، وكحقوق الزوج والزوجة، والوالد والولد والربا والزنا واللواط ، وأحكام الشركات والبلديات والنقابات، وما إلى ذلك من حاجات المجتمع التي لا يبلغها الاحصاء .

ان الانسان يمتاز عن الجمادات والحيوانات بأنه لا يستطيع أن يحتفظ بكيانه ، ويحقق غاية من غاياته الاجتماعية ، كانسان اجتماعي الا بشريعة عادلة واعية يخضع لها في سلوكه وأفعاله . وهذه الظاهرة لازمت المدنيات والحياة الاجتماعية منذ وجودها حتى اليوم ، وستلازمها الى آخر ساعة .

---

[1] قيل : ان البراهمة طائفة في الهند تنتسب إلى برهم أحد حكماء الهند القدامى .

من هو المشرّع ؟

وهنا سؤال يفرض نفسه : من أين تستمد قوتّها هذه الشريعة؟ ومن الذي يجب أن نأخذها عنه ، ونرجع بها اليه ؟

وتقدم معنا اننا لا نستمدها من العقل وحده كما يدعي البراهمة ، فالعقل لا يلزمك ان تتحمل مرارة العيش ومتاعب الحياة من أجل زوجتك وتربية أولادك،وأن تعمل ليل نهار تغرس وتبني للاجيال المقبلة التي لا يربطك بها رابط بعد أن تفارق الحياة ، وعقلك لا يلزمك أيضاً بأن تضحي بدمائك وأموالك وأولادك في سبيل وطن ولدت فيه،وأرض الله واسعة الفضاء . هذا ، الى ان أكثر من يدّعون النظر والتفكير يشرحون بمنطق العقل – كما يزعمون – حوادث لا تمت اليه بصلة . وفي كل يوم نسمع ونرى العشرات من المتعلمين وغير المتعلمين يفعلون ويتركون بدافع من عاطفتهم ورغبتهم ، وهم يحسبون ان ما أقدموا عليه ، وأحجموا عنه كان باملاء العقل وحده ، وانهم لا يأتمرون الا بأمره ، ولا ينتهون الا بنهيه .

وقد يقال : نأخذ الشريعة من الفلسفة،ونجيب : ان للفلسفة مذاهب شتى فعلى أيها نعتمد ، على الفلسفة المثالية أو المادية ، ثم بأية مثالية نأخذ ، بالمثالية القائلة بأنه لا وجود للطبيعة أبداً الا في خيالنا وأذهاننا، أو بالمثالية الزاعمة بأن الطبيعة موجودة،ولكن العقل يعجز عن ادراكها ، واذا تركنا هذه ورجعنا الى الفلسفة المادية ، فهل نعتمد المادية الميكانيكية أو الديالكتيكية [1] .

---

[1] الفرق بينهما ان الميكانيكية تفسر الوجود تفسيراً آلياً محضاً ، وتخضع كل كائن لقوانين صارمة يستحيل تغييرها أو تبديلها تماماً كالاجرام السماوية التي تدور في أفلاكها برتابة ولا تحيد عنها قيد شعرة على العكس من المادية الديالكتيكية فانها تنمو وتتطور على الدوام ، وبنتائجها تتفاعل وتتبادل التأثير ، وتأتي بنتائج أخرى ، وهكذا إلى ما لا نهاية .

أو يقال : نأخذ الشريعة من العلم . وكلنا يعرف ان العلم لا شأن له بالشريعة والتشريع ، وانما يكشف عن قوى الطبيعة ، وحقائق الأشياء وخواصها ، وما ينتج عنها ، على ان العلم في هذا العصر قدم لنا القنابل والمدمرات والناسفات ، واتخذ منه المحتكرون والمستغلون أداة للصوصية والقرصنة .

أو يقال : نأخذ التشريع من الملوك والامراء ، كما كانوا يفعلون من قبل . أجل ، لقد بنى فرعون مصر الاهرام ، وانفق عليه ما يبني أكثر من سدّ عالٍ ، بناه لا ليطعم الجائعين ، بل ليحفظ جثته وجثث ذويه وحاشيته بعد الموت . وكل الملوك والأمراء فراعنة وملاعنة .

أو يقال : نأخذ القوانين من البرلمانات والهيئات الدولية .

وجوابنا ان عصبة الأمم أقرت اعتداء موسوليني على الحبشة والبانيا . وأقر مجلس العموم البريطاني ، والبرلمان الفرنسي احتلال هتلر لتشيكوسلوفاكيا قبيل الحرب الثانية ، كما أقرت الامم المتحدة الحرب في كوريا ، واعتداء اسرائيل على فلسطين ، واعترفت بفرموزا ، وأنكرت الصين الشعبية .

ان أكثر القوانين الحديثة التي أقرتها أمثال هذه الهيئات قد وضعت لصالح الفئات واستغلال الأقلية للأكثرية . أما ما نراه في بعض القوانين من حقوق العمال ، والضمان الاجتماعي بزعم واضعيها فلا تجتث المشكلة من الجذور ، لأنها وضعت على أساس النظام الاقتصادي الموجود . وأغرب ما في هذه القوانين انها تحتوي على مواد تبعث على التسول والتشرد ، ومواد أخرى تنص على عقوبة المتسولين والمتشردين ، فهي تخلق الاجرام وتعاقب عليه في آن واحد ، وصدق القرآن الكريم : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً — النساء ٨١» .

اذن ، نحن في حاجة الى نظام لا يستمد قوته من المذاهب الفلسفية ، ولا من أصحاب المصانع والشركات الاحتكارية ، ولا من المجالس

والهيئات السياسية . وكيف تؤخذ القوانين والأحكام من المصالح والمنافع الشخصية ؟! ومن الذي يقبل شهادة من يجر النار الى قرصه ويبتغي النفع من شهادته ؟! وأية هيئة مهما بلغت مقدرتها وفطنتهـا تستطيع أن تأتي بنظام يتناسب بأسسه ومبادئه مع جميع العصور والشعوب والفئـات وفي كافة الأحوال ؟! كما هي الحال في الشريعة الاسلامية .

والنتيجة المنطقية لذلك ان لا غنى للنظام السليم والشريعة الصحيحة من الاعتماد على قوة مدركة عالمة بما ينفع الانسان ويضره ، ويصلحـه ويفسده ، وغنية منزهة عن الغايات وعن كل نوع من أنواع النفع ، ولا يتوفر هذان العنصران إلا بالوحي من الله الغني العليم « فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول — النساء ٥٨ » .

ومن هنا يتبين الخطأ فيما ذهب اليه البراهمة من الاكتفاء بالعقل عن الشرع [١] . أجـل ، يجب ان لا يكون في الشرع شيء يخالف العقـل ويناقضه .

دلائل النبوة :

تعرف نبوة النبي بأمور ثلاثة :

١ — ان لا يقرر ما يخالف العقل والواقع ، كتعدد الآلهـة ، وان الأرض ليست كروية ، وان تتفق تعاليمه مع الفطرة ، ولا تتنافى مع الغرائز البشرية وطبائعها ، كتحريم الزواج وذم العلم ، وما إلى ذلك .

٢ — ان تكون دعوته طاعة لله ، وخيراً للانسانية .

٣ — ان يظهر على يده معجزة تظهر صدق دعواه .

---

١ تعرضنا في كتاب « الإسلام مع الحياة » لقول البراهمة عندما تكلمنا عن الوحي ، واجبنـا عنـه بأسلوب آخر .

وقال المتكلمون في تعريف المعجزة : انها ثبوت ما ليس بمعتاد مع خرق العادة ، كانقلاب العصا حية ، أو نفي ما هو معتـاد ، كمنع القوي عن رفع أخف الأشياء ، كالريشة [1] وسنرى فيما يأتي معجزة محمد وانها الحق والصدق في كل ما أتى به ، وأنزل اليه من ربه .

[1] قال علماء الإسلام : ان المعجزة تنفرد عن الكرامة بأن الأولى لا تظهر إلا على يد الانبياء ، ولذا يشترط فيها التحدي بأن يقول النبي لمن بعث اليهم : ان لم تقبلوا قولي فافعلوا مثل هذا الفعل ، أما الكرامة فتظهر على يد الصالحين والأولياء من غير تحد ، كقصة مريم وحملها بالسيد المسيح .

معجزة محمد

روى المجلسي في كتاب البحار عن كتاب المناقب انه كان لمحمد من المعجزات ما لم يكن لأحد من الأنبياء ، وقد بلغت أربعة آلاف وأربعمئة وأربعين معجزة ، وانها تنقسم الى أربعة أنواع : النوع الأول كان قبل ميلاده . والثاني بعد ميلاده . والثالث بعد بعثته . والرابع بعد وفاته .

وسواء أكان له كل هذه المعجزات أو بعضها ، فلسنا بحاجة اليها ما دام القرآن الكريم ، وشريعة الاسلام وشخصية محمد أقواها وأبقاها . ولله در من قال :

« وما الشهادة للنبوة إلا أن تكون نفس النبي أبلغ نفوس قومه ، حتى لهو في طباعه وشمائله طبيعة قائمة وحدها ، كأنها الوضع النفساني الدقيق الذي يُنصَّب ليُصحح الوضع المغلوط للبشرية » .

وهذه هي بالضبط نفس محمد وأخلاقه ، انها آية كبرى تثبت صدقه لدى العارفين المنصفين ، وتصحح الوضع المغلوط . أما أهل الغباوة والبلادة ، أما المكابرون الذين لا يؤمنون حتى يشاهدوا بأعينهم انشقاق القمر ، وتكلم الحصى والشجر ، أما هؤلاء ومن اليهم فلا خير فيهم

ولا في ايمانهم ، انهم تماماً كبني اسرائيـــل ، آمنوا بموسى ، وعندما رأوا قوماً « يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . قال انكم قوم تجهلون ، ان هؤلاء متبرّ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال أغير الله أبغيكم إلهاً ، وهو فضلكم على العالمين ـ الاعراف ١٤٠ » .

وقد يتساءل : كيف فضّل الله اليهود عـــلى عالمي زمانهم ، وهذا شأنهم ؟! وأجيب عن هذا السؤال بأن التفضيل لم يكن لصفة حسنـــة فيهم ، وانما فضلوا بأن موسى منهم ، وبنجاتهم من أذى فرعون وقومه ، كما يدل عليه قول الله سبحانه في الآية اللاحقـــة : « واذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتّلون أبناءكم ويستحيون نساءكم » . وعلى الرغم من نجاتهم من سوء العذاب ، وتحررهم من العبودية فما ان انتقل موسى الى ربه حتى اتخذوا من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار .

وقد ابتلي محمد بأمثال هؤلاء ، وبأشد منهم توحشاً . قال صاحب كتاب البحار : ان جماعة جاءوا الى الرسول ، فقال له أحدهم : لن نؤمن لك حتى يشهد لك هذا البساط الذي نجلس عليه . وقال آخر : لا أصدقك حتى يعترف لك هذا السوط الذي في يدي . وقال ثالث : وأنا لا أقر لك بالنبوة حتى ينطق حماري هذا الذي أركبـــه بأنك على حق . ثم قال صاحب البحار : بالرغم من ان محمداً قال لهم : ليس لنا أن نقترح على الله ، وانما علينا التسليم والانقياد لأمره ، فقد ألقى كل من البساط والسوط كلمة طويلة ، وهدد السوط صاحبه بالضرب حتى الموت ، والحمار راكبه بالرفس حتى الهلاك .

ومهما يكن ، فان الذي جاء بالهدى ودين الحق لا يحتاج الى شهادة الحمير والسياط والبساط . وان دلت هذه الرواية على شيء فانها تدل

على ما كان يلاقيه الرسول من المكابرين والمتعنتين . وقد جاء في الآية ٩٠ من سورة الاسراء : « وقالوا لن نؤمن لك حتّى تفجّر لنا من الأرض ينبوعاً، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً،أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى الى السماء ولن نؤمن لرقيك حتّى تنزّل علينا كتاباً نقرأه قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولاً » . وجاء في الآية ١١١ الانعام : « ولو اننا أنزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا الا ان يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون . وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الأنس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً » .

أرأيت الى هذه القلوب ؟! الى هذا الداء الأصيل الذي لا دواء له الا الموت ؟! وهل سمعت بصلافة وغواية أشد من هذه ؟! وبأي لفظ نعبّر عن هؤلاء ؟! انهم لئام وكفى ، فهم لا يؤمنون ، وان كلمهم الموتى أو أتاهم الله والملائكة والناس أجمعين .

وهؤلاء الشياطين موجودون في كل طائفة وكل بلد وكل زمان . ابتلي بهم محمد بالأمس ، والمخلصون اليوم ، وسيبتلى بهم كل طيب غداً . تأتيهم بالحقيقة فيقولون لك : ولكن لماذا كان كذا ، ولم يكن كيت ؟! وتجابههم بالمنطق الذي لا سبيل الى رده وانكاره فيأبون الا التعنت والمكابرة ، وتكافح الاستعمار والاقطاع والعملاء فيقولون تجاوزت الحدود ، وتدعو الى الدين فيقولون طائفي متعصب ، وتسكت فيقولون سلبي انعزالي . وما داموا كذلك،فما عليك اذن الا ان تشد من عزمك وتمضي في طريقك .

ونحن لا نعجب ولا نستغرب من موقف هؤلاء ، لأننا على يقين

بأنهم ليسوا من ذوي العقائد والمبادىء . ان صاحب المبدأ لا يفتري ولا يختلق الأكاذيب ، فثقته بعقيدته تغنيه عن التزييف والتلفيق ، وصاحب المبدأ لا يستنكر من غيره ما يرتضيه لنفسه ، ولا يستعمل العنف ، ولا ينهش لحوم الغائبين ، بل ينصح ويصفح ، ويتهم نفسه ، ويسأل الله الهداية له وللناس كافة . وبكلمة ان أصحاب المبادىء يتجنبون الأقذار والأوزار .

ونعود إلى رسالة محمد ، وما يدعمها من أدلة العقل وهي تفوق الحصر ولا يبلغها الاحصاء ، كانت في عهده وما زالت حتى الآن يستطيع النظر اليها من شاء ، فهذا القرآن الكريم ، وشريعة الاسلام ، وسيرة الرسول في متناول كل يد ، فعلى طالب الحقيقة أن يقرأ ويتدبر ، أما القول تعصباً وبغير علم فهو جور وفتنة وتضليل .

وسنروي في الفصل التالي قصة دكتور مسيحي من أقباط مصر ، اطّلع على الأديان وقارن بينها ، وانتهى الى الإيمان بمحمد ، ووضع كتاباً للدفاع عن رسالته . وأراهن أن من قرأ هذا الكتاب لا بد أن يؤمن بكل ما جاء فيه ، من حيث يريد أو لا يريد ، لأن الواقع يفرض نفسه . وقبل ان ننتقل الى قصة الكتاب وصاحبه والى الكلام عن القرآن وبعض خصائص الرسول الأعظم نشير إلى حقيقتين تتصلان بنبوة محمد وصدق رسالته :

١ — من الآراء السائدة اليوم ان الهدف الذي يؤلف بين المجتمع ، أي مجتمع ، لا بد ان يتصل من قرب أو بعد بالعلاقات الاقتصادية ، والضرورات المادية ، وإن أي إصلاح أو حركة لا يكتب لها النجاح والدوام إلا اذا قامت على عنصر مادي ، سواء أكان القائم بها سياسيون أو دينيون أو فلاسفة .

وعلى هذا المنطق يحق لنا القول بأن نجاح محمد في دعوته ينبغي ان

يعد من أهم المعجزات وخوارق العادات ، لأن رسالته قامت في بدئها على نبذ الأصنام وعبادة مبدأ أعلى ، وعلى الإيمان بالجنة والنار ، والثواب والعقاب بعد الموت ، فدعوته والحال هذه ، كانت دعوة غيبية بدافع من حاجات العقل والروح ، أي انها دعوة ميتافيزيقية ، وعليه لا مناص من أحد أمرين : اما الايمان والتصديق بنبوة محمد لظهور هذه المعجزة على يده ، واما الاعتراف بأن الضرورة الاقتصادية ليست كل شيء ، وانه لا بد أن ندخل في حسابنا عناصر أخرى ، ومن أهمها دعوة الانبياء الى الايمان بالله واليوم الآخر .

٢ — ان كل من اعترف بمبدأ النبوة من حيث هو ، وآمن بنبوة نبي واحد كائناً من كان يلزمه قهراً ان يعترف ويؤمن بنبوة محمد ، ومن أنكر نبوة محمد يلزمه أن ينكر نبوة جميع الأنبياء ورسالة جميع الرسل ، لأن ما من صفة أو آية كانت لنبي إلا كان لمحمد مثلها أو أعظم منها ، وقد قيل: « ما حصل به الاتفاق لا يكون سبباً للافتراق » فاذا قلت : كل انسان فان ، فلا يحق لك أن تفرق في هذا الحكم بين زيد وعمرو ، فتقول : هـذا فان ، وذاك باق . لأن القانون العام يصدق على الجميع . وصدق الله حيث قال : « ان الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلاً ، أولئك هم الكافرون حقاً ، وقد اعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً — النساء ١٥٠ » .

ان من يؤمن ببعض الرسل دون بعض فهو كافر بالله بحكم القرآن ، اذ لو كان صادقاً في ايمانه بالله سبحانه لصدق جميع رسله ، لأن الدليل الذي دل على نبوة البعض قد دل في نفس الوقت على أصل النبوة من حيث المبدأ ، فاذا صدقنا البعض لزمتنا الحجة بألا نكذب البعض الآخر ، وإلا كان انكاراً بلا سبب ، وتفاضلاً بلا موجب .

ومن هنا آمن المسلمون بالانبياء جميعاً دون استثناء ، وفي طليعتهم موسى وعيسى عليهما السلام .

وفي الصفحات التالية نتكلم عن « الرسالة والرسول » و « القرآن » و « محمد » في بعض خصائصه ، وكفى بها حجة واعجازاً .

الرسالة والرسول

الدكتور نظمي لوقا من الأقباط المصريين تولد من أبوين مسيحيين ، كانا يقرآن له فصولاً من الانجيل كل يوم ، ويرسلانه الى الكنيسة ، ولوالده أجداد كثر من القسيسين وذوي الطيالس السود ، والدكتور نظمي عالم وأديب وله ما يقرب من أربعين كتاباً في مواضيع شتى ، وقد قرأ القرآن وحفظه وقارن بين الأديان وتعمق في دراسة السيرة النبوية، وأخلاق الرسول الأعظم ، واطلع على الكثير من أسرار الاسلام وشريعته وتعاليمه فآمن بمحمد وما أنزل اليه من ربه ، آمن به عن علم وبصيرة، وبدافع من الاخلاص للحق وأهله ، ووضع في هذه السنة ١٩٥٩ كتاباً خاصاً تحدث فيه عن شخص الرسول ورسالته ، وأثبت صدقها بالأرقام ومنطق العقل والوجدان ، وان جميع تعاليمها تقوم على أساس الصدق والعدل والمساواة ، وتهدف الى تقديس الانسانية وسعادتها ، وهذه هي مهمة الدين الصحيح ، أما محمد فقد اجتمعت له صفات الأنبياء والرسل بكاملها .

وأسمى المؤلف كتابه « محمد . الرسالة والرسول » ، وصدره بهذه الآية « وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً . أولئك لهم أجرهم

عند ربهم » . مشيراً بهذه الآية الى انه أحد المعنيين بها . ونحن نلخص للقراء بعض فصول هـذا السفر الخالد ، وهدفنا ان نبين ان الحق لا يلتمس بما أليف الانسان من عادات ، وما ورث من تقاليد فحسب ، ونجمل أقواله فيما يلي :

ان آفة العقول البشرية هو التعصب الذميم ، لأنـه العمى والصمم ، أما الصدق والانصاف ، اما الاعتراف بالحقيقة وانصافك لخصمك فيشهد لك بالفضل وحسن الرأي وأي شريعة ادعى للانصاف من رسالة محمد التي تقول « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا ، اعدلوا هـو أقرب للتقوى .. واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .

وأي انسان لا ينصف ديناً تنادي شريعته بالحق والعدل فهو جاهل أو متعصب لا يستأهل التكريم والاحترام. وكيف يستكثر غير المسلم الانصاف على رسول كمحمد لا لشيء الا لأنه أتى بغير ما كان يؤمن به آباؤه ويدينون . ومن فعل ذلك فقد ظلم نفسه وحملها على الجحود والجور . ان من يحتكم الى العقل يرى ان محمداً قد اجتمعت له آلاء الرسل ومفاخر البشرية بكاملها ، ومن أراد الخير للانسانية فلا يحق له ان يثلب أبطالها وهداتها ، ويهدم عزها ومجدها .

ثم ما من نبي حمل الى الناس صكاً مذيلاً بتوقيع الله بأنه رسول من عنده ينطق بلسانه ، وانما الدليل الوحيد الذي يشهد بصدق النبي ، ولا يغني عنه ألف دليل ودليل هو ان يطمئن العقـل الى ما جاء به بحيث يبدو ان كل ما يباينه هزيل واضح البطلان .

واذا نظرنا من هذه الكوة الى رسالة محمد لمسنا فيهـا آيات الصدق والحق ، ولم نجد أي شيء يدمغها بالزيف والبطلان ، أو يبرر الشك والريب ، ومن أنكر هذه الحقيقة فلا حجة له الا قوله : « هذا رأي وكفى » . ومثله لا يعول له على رأي لأنه مكابر بغير حجة . واليك أدلة العقل على نبوة الصادق الأمين :

١ — ان الانسان بطبيعته في حاجة الى عقيدة سليمة ، ولا تكون كذلك الا اذا صححت ما تردت فيه الانسانية من الأخطاء في الأفكار والتقاليد ، والا ان تتجه الى الناس كافة ، لا فرق بين شعب وشعب ولا بين جيل وجيل ، ولا بين فئة وفئة . ومن أهم هذه الأخطاء التي وقعت فيها البشرية الاعتقاد بتجسيم الخالق وتعدده ، والتفاضل بين الناس على أساس عنصري أو جغرافي أو نسب أو مال . وقد صحح القرآن الكريم الانحراف الأول بسورة الاخلاص « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » ولا شيء أقرب الى طمأنينة العقل والقلب ، وأدعى الى كرامة الانسان من الايمان بإله واحد منزه عن كل مثيل وشبيه . وصحح الخطأ الثاني بالآية الكريمة : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . وقال الرسول : « كلكم من آدم وآدم من تراب » .

٢ — ليس في عقيدة المسلمين تأليه ولا شبه تأليه لمعنى النبوة ، فقد صرح القرآن على لسان محمد « قل انما أنا بشر مثلكم » . وفي اختيار لفظة مثلكم معنى مقصود به التسوية والحيلولة دون الارتفاع بفكرة النبوة فوق مستوى البشر بحال من الأحوال ، بل نجد في القرآن ما هو أصرح من هذا : « فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ان عليك الا البلاغ ... انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ... قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً الا ما شاء الله ... ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسني السوء » . ومثل هذا كثير في القرآن والحديث . أراد محمد أن يشعر الناس بأنه مثلهم حقاً وصدقاً ، يمسه السوء والثكل ، ولم يستعمل الاحتيال مع أحد ، كما نستعمله نحن مع الأطفال ، ليقبلوا على ما نريد ، ويعزفوا عما نكره .

٣ — جاء الاسلام بشريعة تجمع في مملكة الحق والعدل بين الدنيا

والآخرة : « وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخـــرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » . « واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » . وتستوحي هذه الشريعة تحسين حال الجماعة تحسيناً ينعكس على كل فرد ، وتربط حسن الأخلاق بالمصلحة الاجتماعية ، فالخير ان تبتغي الرزق بالعمل ، وتتعاون مع الناس على البرّ والتقوى . والشر ان تعيش على حسابهم ، وتتخذ من الرياء والنفاق أداة للكسب . وهذه هي شريعة الحياة بعينها ، تتفق مع الفطرة ، وتساير التطور الطبيعي،وتسمح للانسانية بالتسامي الى أقصى ما يمكن أن تصل اليه .

٤ — ان الرسالة التي تسير بصاحبها على الورد ، ويكون هدفها الغُنْم له ولذويه فهي افتراء وزور ، أما الرسالة التي يلاقي صاحبها في سبيل انتشارها وبقائها العنت والجهد فهي صدق وعدل . وقد امتحنت الخطوب محمداً بما لم تمتحن به أحداً ، وحين كتب لدعوته النصر، وتم له الفتح لم يظفر من الدنيا الا بما كان لعامة جنده وفقراء رعيته،وكان في وسعه ومقدوره أن يكون أغنى الأغنياء .

جاء المشركون الى عمه أبي طالب ، وقالوا له : ان ابن أخيك شتم آباءنا ، وسفه أحلامنا ، وعيّب آلهتنا ، فقل له ان يترك هذا الأمر ، ونحن نقيمه علينا ملكاً ، ونقاسمه جميع أموالنا ، والا نازلناه ونازلناك حتى يهلك أحد الفريقين . وتقدم اليه عمه وقال له : يا ابن أخي أبقِ عليّ وعلى نفسك ولا تحملني ما لا أطيق . فأجابه الرسول : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري لم أترك هذا الأمـر حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

لقد آثر محمد الفقر والعناء على السلطان والثراء ، لأنه صاحب رسالة لا طالب مال أو جاه،وأصحاب الرسالة لا يرون الحياة الا في مبادئهم، والتضحية في سبيلها بالنفس والنفيس. ومن هنا كتب لدعوة محمد الخلود والصمود ، وآمن بها مئات الملايين .

ثم ختم الدكتور لوقا كتابه بجملة من صفات الرسول قال : كان محمد رسول السماء ليس فوقه إلا الله ، ومع ذلك اطراه أصحابه مرة بالحق الذي يعلمون فقال لهم : لا تطروني كما اطرت النصارى ابن مريم انما أنا عبد الله . وأتاه اعرابي يوم الفتح ليبايعه ، وحين وقف بين يديه أخذته الرهبة وارتعد من هيبة الحق فقال له : هون عليك،أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة . وفي ذات يوم خرج على جماعة فنهضوا تعظيماً له ، فنهاهم قائلاً :لا تقوموا لي كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً . وكان اذا مرض المريض من أدنى الناس يعوده ويقبل دعوة المساكين الى الطعام ، ويداعب الأطفال ، ويجلسهم في حجره ، ويمازح أصحابه ، ويتبسط معهم في الحديث ، ويقوم بحاجة الفقير والضعيف ، ويحلب الشاة ويقطع اللحم ، ويعقل البعير .

وحين شعر بدنو أجله تحامل على نفسه ، وخرج الى المسجد،وخطب في الناس خطبته الأخيرة قائلاً :

أيها الناس مَن جلدتُ له ظهراً فهذا ظَهري ، ومَن أخذتُ له مالاً فهذا مالي ، ليأخُذه منه ، ولا يخشى الشَحناء من قِبلي ، فانها ليست من شأني . ألا وان أحبّكم اليّ من أخذَ مني حقاً ان كان له ، أو حللني منه ، فلقيتُ ربي طيبَ النفس . فقال سواد بن غزية: يا رسولَ الله أوجعتَ بطني بالقضيب يومَ بدر وأنتَ تسوي الناسَ صفاً صفاً ، فمكنّي من نفسك لاقتصّ منك . فوقف النبي ودعاهُ للاقتصاص منه بالقضيب . فقال الرجل : ان عليك قميصاً ، ولم يكن على بطني يومذاك قميص ، فرفع الرسول قميصه عن بطنه متأهباً للقصاص من نفسه ، فما كان من سواد إلا أن عانقه وقبّل بطنه العاري ، ليمس جسده الشريف قبل أن يفارق الدنيا .

أبعد كل ما قدمت يا أبا القاسم لقومك من البر والخير والفضل ، وبعد ما أخرجتهم من الظلمات الى النور ، أبعد ما نصحت لهم وجاهدت

وتحملت من أجلهم ما تحملت تقف لهم موقف « المذنب » ليقتصوا منك، ويستوفوا حقوقهم من شخصك .

أي رحمــة أوسع ؟! وأي خلق أكرم ؟ وأي عدل أبلغ ؟! وأية معجزة أعظم من هذه ؟! وهل نحتاج بعدها إلى دليل على صدق محمد؟ إذن « ليس يصح في الافهام شيء » . هذا مع العلم ان سيرته وتعاليمه كلها معجزات وآيات لا تترك للجاحد إلا التعنت والمكابرة .

وبعد ، فقد قدم المؤلف في كتابه هذا خدمة عظمى للحق والعدل ، وأتمنى ان يقرأه كل انسان ، ثم يرجع القــارىء إلى نفسه ليرى وقع الكتاب ، وسيكون على يقين من ايمانه بكل ما جاء فيه من حيث يريد أو لا يريــد ، لأن الواقع يفرض نفسه ، شئنا أم أبينا . وجزى الله الدكتور لوقا جزاء المجاهدين في سبيل الحق والعدالة .

القرآن

كان الإمام زين العابدين اذا ختم القرآن يناجي ربه بدعاء طويل ، يفتتحه بقوله :

« اللهم انك أعنتني على ختم كتابك الذي أنزلته نوراً ، وجعلته مهيمناً على كل كتاب أنزلته ، وفضلته على كل حديث قصصته ، وفرقاناً فرقت به بين حلالك وحرامك ، وقرآناً أعربت به عن شرائع أحكامك ، وكتاباً فصّلته لعبادك تفصيلاً ، ووحياً أنزلته على نبيك محمد صلواتك عليه وعلى آله تنزيلاً ، وجعلته نوراً نهتدي به من ظلم الضلالة والجهالة باتباعه ، وشفاء لمن أنصت بفهم التصديق الى استماعه ، وميزان قسط لا يحيف عن الحق ، ونور هدى لا يطفأ عن الشاهدين برهانه ، وعلم نجاة لا يضل من أمّ قصد سنته ، ولا تنال أيدي الهلكات من تعلق بعروة عصمته » .

تحدث القرآن الكريم عن الله وصفاته ، وعن الآخرة والحساب والجزاء ، وجادل أهل التوراة بتوراتهم ، وأهل الانجيل بانجيلهم ، وأهل الشرك بأصنامهم .

وبيّن من أنواع العبادات ما يذكّر الناس بالله ، ويبعثهم على الاخلاص

له في القول والعمل ، فهي ركوع وسجود في صورها ، وخلق كريم في جوهرها .

وشرع نظاماً انسانياً شاملاً لأحكام العقود والموجبات ، والزواج والطلاق والوصايا والمواريث ، والحدود والعقوبات ، وما إلى ذلك مما يحتاج إليه الفرد والجماعة ، أو قل ان القرآن حدد مسؤولية الانسان تجاه نفسه وخالقه وغيره ، وبيّن له كيف يواجه هذه المسؤوليات ويمارسها .

وسجل أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية .

وأرشد الى حقائق علمية تكشف عن أسرار الكون ، كما أمر بالتأمل والتفكير واتباع العلم .

وتضمن أخباراً عن الغيب ، وتنبأ بحوادث تحققت على النحو الذي أخبر به .

وقد عاش محمد بن عبدالله بين قومه كما عاشوا ، وسعى كما سعوا ، وكانوا خلواً من العلوم والفنون لا يملكون معملاً ولا جهازاً ، ولا مختبراً ، بل ولا وعياً يستنبطون به القوانين كفلاسفة الإغريق ، وكان هو أمياً ، لا يقرأ ولا يكتب ، كأكثر أبناء قومه وبيئته . اذن كيف امتاز عنهم ؟ ومن أين جاءته هذه العلوم اذا لم يكن نبياً يوحى اليه ؟!

قال المعاندون فيما مضى : ان القرآن سحر ، بعد ان انقطعت جميع أعذارهم ، وانسدت عليهم المسالك والمذاهب ... فبماذا يتعللون اليوم ، والسحر في أذهان الناس حديث خرافة ؟!

أجل ، لقد تعللوا وقالوا : ان محمداً عظيم في أخلاقه ، وعظيم في بلاغته ، وعظيم في مواهبه وجميع أعماله التي لا يسع أحداً الا اكبارها وتقديرها . فهو عظيم ، وهذا القرآن مظهر من مظاهر تلك العظمة ، وبالتالي فهو من وحيه لا من وحي الله .

والجواب : ليس من شك في ان الانسان قد يكون عظيماً ولا يكون نبياً ولكن هل يمكن ان يكون عالماً دون ان يتعلم أو دون أن توجد

علوم بالمرة ؟ واذا افترضنا ان محمداً قرأ قصة آدم وحواء ، واخبار الماضين في كتاب قديم ، أو نقلها اليه ناقل ، فأين درس التشريع والعلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية وغيرها مما اشار اليه القرآن ؟! واذا افترضنا ان محمداً أدرك بصفاء فطرته ان في القصاص حياة الناس، فهل أدرك بفطرته هذه الشريعة الانسانية الكاملة الشاملة للاحوال الشخصية والصناعية والتجارية والزراعية والجنائية والعسكرية والسياسية ، وكل ما يحتاج اليه الفرد والمجتمع والدولة ؟! هل أدرك ربيب الصحراء هذه الشريعة التي تصلح بمبادئها وأسسها لكل زمان ومكان والتي وضعت مئات المجلدات لأحكامها وأصولها وقواعدها وتأسست لدراستها ومعرفة أسرارها الكليات والجامعات ؟! وهل في التاريخ رجل واحد له هذه المكانة في عالم التشريع ؟!

ان الذي نعهده أن الشرائع الوضعية تضعها الهيئات لا الأفراد ، وانه يعرض عليها التقليم والتطعيم بمرور الزمن ، لاخطاء تظهر بعد التطبيق والاختبار ، وما عهدنا رجلاً واحداً استقل بوضع نظام كامل شامل ، مهما بلغت مواهبه ، واتسعت معارفه ... اذن فالشريعة الاسلامية ليست من الانسان ، بل من خالق الانسان ومبدعه ، فهي أشبه بالتعاليم التي نجدها مع زجاجة الدواء وبعض الآلات ترشدنا الى كيفية الاستعمال ، ووضع الشيء في مكانه خوفاً من الفساد والافساد ، انها من مخترع الآلة لا من غيره .

ثم هذه الحقائق الكونية والأسرار العلمية التي تضمنها القرآن ، كيف وصل اليها محمد – والمفروض انها لا تعرف إلا بمعونة المختبرات والأدوات الفنية التي لم يكن لها من قبل عين ولا أثر ؟! هل تلقاها من استاذ ، ومن يكون هذا الاستاذ ؟! أو هي هاجسة من هواجس فكره وظنٌ من ظنونه ؟! والظن لا يغني عن الحقائق شيئاً . اذن هي من وحي الخالق الذي أوجدها وأوجد كل شيء .

كنا قد ذكرنا في القسم الأول « الله والعقل » نماذج من تلك الأسرار التي أشارت اليها الآيات القرآنية ، ولم يكتشفها العلم إلا بعد ثلاثة عشر قرناً ونصف القرن ، ونذكر هنا طرفاً آخر منها ، مع الاعتراف بأننا لم نبلغ من العلم بها إلا النقل عن علماء الغرب !..

لقد عني المسلمون بالقرآن عناية كبرى شملت العديد من نواحيه ، أفاد منها الدين والعلم بشتى فروعه ، فلقد وضعوا خدمة لكتاب الله مئات المؤلفات في النحو والصرف والبلاغة والتجويد ومفردات اللغة ، والتفسير والفقه والأصول وعلم الكلام والأخلاق وغيرها . وزخرت المكتبة العربية ، ومكتبات أخرى أجنبية بهذه الكتب ، وما زال المسلمون حتى يومنا هذا يواصلون هذا النشاط .

ولا نغالي إذا قلنا : انه لم يلاق كتاب من الكتب السماوية والأرضية من العناية ما لاقاه القرآن على أيدي المسلمين . ولو انهم اهتموا بالناحية العلمية في القرآن ، كما اهتموا بغيرها لكنا الآن أمام طائفة من النظريات الرائعة التي تسرع بالحياة نحو الحضارة والمدنية ، ولكانت الحقائق التي نسميها اليوم بالنظريات الحديثة من مخلفات الماضي البعيد .

لقد اهتم المسلمون كثيراً بالكشف عن كنوز الدين والشريعة والأخلاق والفلسفات ، وعن خصائص اللغة مما صرفهم أو كاد عن الحقائق الكونية ، ولعل لهم العذر ، لأن العلم يومذاك كان في دور التكوين أو الانتقال ، على انهم أخرجوا للناس من ثمرات العلوم ما كان له أطيب الأثر في حياة الجماعة الانسانية وتطورها .

وعلى أي حال ، فلو تسنى للمسلمين أن يهتموا بالعلوم العملية ، كما اهتموا بالعلوم النظرية لكنا في غنى عن البحث والتنقيب عن أقوال الغربيين لنسوق الأدلة المحسوسة على عظمة الكون وحكمة خالقه. ونتعرض هنا لآيتين أحداهما في علم الفلك ، والأخرى في علم الحيوان .

في علم الفلك:

لاحظ الفلكيون خلال السنوات الأخيرة ان المريخ كوكب حي، فيه مخلوقات تحس وتدرك . واذا وجدت الحياة في المريخ فمن الممكن ان توجد في كواكب أخرى . وفي القرآن آيات تشير الى هذه الحقيقة ، منها الآية ٤٤ الاسراء: « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن» . والآية ٤٠ النور : « ألم تر ان الله يسبح له من في السموات والأرض » ولفظة « من » يعبر بها عن العاقل المدرك .

في علم الحيوان:

أثبت العلم ان الفيلة تعقد المحاكم للمخالفات التي تقع من بعضها ، وتصدر المحكمة حكمها على الفيل المذنب بالنفي عن الجماعة ، ليعيش وحيداً في عزلته[1] .

وفي كتاب « الله والعلم الحديث » لعبد الرزاق نوفل ص ١٢٨ : « ان العالِم « رويال ديكنسون » ، وهو عالِم في التاريخ الطبيعي، قال في كتابه « شخصية الحشرات » :

لقد درست مدينة النمل عشرين عاماً في بقاع مختلفة من العالم ، فوجدت ان كل شيء يحدث في هذه المدينة بدقة بالغة، وتعاون عجيب ، ونظام لا يمكن أن نراه في مدن البشر . لقد راقبت النمل وهو يرعى أبقاره ، وهي خنافس صغيرة رباها في جوف الأرض زماناً طويلا حتى فقدت في الظلام بصرها .

ولا أحد يدري في أي عصر بدأ النمل حرفة الرعي، وتسخير الأبقار،

---

[1] كتاب التعايش الديني في الإسلام لمحمود العزب ص ٤٩ .

وكل ما نعلمه ان الانسان ان كان قد سخر نحواً من عشرين حيوانـاً لمنافعه ، فان النمل قد سخر مئات الأجناس من حيوانات أدنى منه جنساً فان بق النبات حشرة من الحشرات يعسر استئصالها ، وان أجناساً كثيرة من النمل ترعى تلك الحشرات ، ففي الباكر يرسل النمل الرسلَ لتجمع له بيض هذا البق ، فاذا جيء به وضعه في المستعمرة موضع البيض ، ويعنى به حتى يفقس وتخرج صغاره ، ومتى كبرت تدر سائلاً حلواً يقوم على حلبه جماعة من النمل ، لا عمل لها الا حلب هذه الحشرات بمسها بقرونها ، وتنتج هذه الحشرة ٤٨ قطرة من العسل كل يوم ، أو بمقدار يزيد مئة ضعف عما تنتجه البقرة .

ولاحظ العالِم المذكور ان النمل قد زرع مساحة بلغت خمسة عشر متراً مربعاً من الأرض، وان جماعة من النمل تقوم بحرثها على أحسن ما يقضي به علم الزراعة ، وحين ينبت الزرع تخرج معه أعشاب مضرة، وتتجمع عليه الديدان . فتختص جماعة من النمل لازالة هذه الأعشاب والطفيليات، وأخرى لحراسة الزرع من الديدان . وهكذا رأى هذا العالِم قرى النمل مزدحمة بالعمل والعمال ، والتدبير والنظام ، والتعاون على الصالح العام » .

والى هذا الاحكام والابداع العجيب أشار القرآن الكريم في الآية ٣٨ الانعام : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطـير بجناحيه الا أمم أمثالـكم » . فسبحان من أعطى كل نفس هداها وجعل من الذرة آيات لأولي الألباب !

لقد أمضى العلماء سنوات في الجامعات والمختبرات يدرسون ويتعلمون، ثم قضوا أمداً طويلاً يبحثون ويلاحظون بمعونة أدواتهم الحديثـة حتى اهتدوا الى شيء مما أشارت اليه الآية الكريمة وما خفي عنهم من أسرار

الكون التي أشار اليها القرآن يعدل أضعاف ما اكتشفوا حتى اليوم[1] .
وعلى هذا نكرر ما قدمناه من التساؤل : من أين أتت هذه المعلومات الى محمد ؟!

ولنفترض أن علوم هذا العصر بجامعاتها وكتبها ومختبراتها وآلاتها كانت موجودة في عهد محمد فهل استطاع أن يحيط بكل العلوم ويتقنها جميعاً لا يعزب عن علمه منها كبيرة ولا صغيرة ؟! ان محمداً عظيم ما في ذلك ريب،ولكن عظمته لا ترتفع به ما فوق الانسانية . اذن فالنتيجة الحتمية لهذا الذي قدمناه أن القرآن من وحي خالق الكون ومبدعه « قل لئن اجتمعت الأنس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .

وسيقول المعاندون إن هذا إثبات للقرآن بإلزام العقل لا بطريق التجربة والمشاهدة اذ جعلتم إستحالة صدور القرآن عن محمد دليلاً على أنه من عند الله وهذه طريقة عقليـــة لا توصل إلى يقين ما دمنا لم نرَ الموحي بأعيننا ونسمعه بآذاننا .

ونجيب بأن إلزام العقل يؤدي إلى اليقين ، تماماً كالمشاهدة والتجربة، فان علماء الفلك قد رأوا كوكباً « اورانوس » يتحرك حركات لم يستطيعوا تعليلها إلا بفرض وجـــود جرم سماوي آخر لم يكونوا قد رأوه بعد ، وأطلقوا على هذا الجرم السماوي المفروض اسم « نيبتـون »[2] . وإذا دل هذا على شيء فانما يدل على أن للحواس حداً لا تستطيع أن تتجاوزه بحال ، كما فصلنا ذلك في بحثنا « الله والعقل » .

---

[1] لا بد من يوم تتكشف فيه هذه الاسرار بعد أن انطلقت العلوم والانهار الاصطناعية من عقالها ، وفي ذلك اليوم الذي لا ريب فيه يقف كل إنسان وجهاً لوجه أمام عظمة المحرك الأول ، ولا يبقى على وجه الأرض منكر ولا مشكك . ومن يعش ير .

[2] كتاب « قشور ولباب » للدكتور نجيب زكي محمود ص ٢٤٨ .

وإذا أجزتم للعلماء أن يستدلوا بعقولهم على وجود كوكب ربما كان أكبر من الأرض بآلاف المرات ، وأن يضعوا له أسماً فلماذا لا تجيزون ان نستدل نحن بعقولنا ؟!

* * *

وقد أفرد علماء الاسلام القدامى والمحدثون لاعجاز القرآن كتباً [1] لا يحيط بها الحساب ، ولا يتسع المقام لنقل أقوالهم . ومن مضامينها :

ان العرب كانوا في عهد محمد أكثر الناس فصاحة وكلاماً، فدعاهم القرآن إلى أن يؤمنوا به أو يعارضوه ببضاعتهم التي يفاخرون بها،ويأتوا بسورة من مثله إن كان كاذباً ، فحاولوا وتكلفوا ، ولكن على غير جدوى ، فهجاهم القرآن وقرعهم بالعجز والنقصان ، وازداد لهم تحدياً، فلم يجدوا حيلة ولا وسيلة . أما سر عجزهم عن المعارضة فهو فصاحة اللفظ ، وصدق المعنى ، وسمو الهدف ، وإيجاز دون إخلال ، ومعارف إلهية ، وشريعة إنسانية،وسلامة من التناقض ، ومن الخرافات والأباطيل، كما له من الموسيقى وطراوة الأسلوب ما تجعله جديداً في كل زمن .

وفي كتاب الله وجوه أخرى للاعجاز لا تقل في عظمتها عن الاعجاز العلمي ، ولا نحتاج في تفهمها إلى العلوم والأدوات الفنية ، فيكفي أن نتجه اليها بأفكارنا لنشعر بروعتها ، ونؤمن بأنها من لدن حكيم عليم . من تلك الوجوه هذه الصور المتنوعة لحيـاة الناس وفئاتهم التي جلاها القرآن وأظهرها أمثالاً وأضداداً من حياة الفقراء الكادحين إلى الأغنياء المرابين . ومن الزهاد والعباد إلى الملحدين والمستهترين ، ومن المبذرين

---

[1] آخر كتاب قرأته عن القرآن كتاب « نظرات في القرآن » للشيخ محمد الغزالي . وفيه آيات بينات لقوم يسمعون ويعقلون .

المسرفين إلى الأشحّـــاء والمقترين ، ومن العملاء الخائنين إلى المخلصين المجاهدين .. الخ ولو أردنا تعداد هذه الصور وشرحها لطال بنا المقام وحسبنا أن نتدبر الآيات التالية :

فقد جاء في الآية ١ من سورة الممتحنة : « يا أيها الذين آمنوا لا لا تتخذوا عدوّي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق » . اقرأ هـــذه الآية لترى فيها صورة أولئك العمـلاء الذين اتخذوا من أعداء الله والوطن أولياء وأصدقاء يلقون اليهم بالمودة والاخلاص، ويمهدون لهم سبيل البغي والعدوان عـلى أمتهم ووطنهم ، وهم يعلمون أنهم لا يدينون دين الحق ، ولا يحرمون ما حرم الله .

وجاء في الآية ٨ من سورة الحج : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » . وأي عالم لم يمر بهذه التجربـة ويخاصمه المكابرون بغير دليل من البديهة والتجربة ، ولا من منطق العقل، ولا من وحي منزل . وقد ارشدتنا الآية ٦٨ من سورة الحج نفسها انه لا علاج لهذا المرض إلا السكوت والاعراض : « وان جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون » . لأنه لا دواء للمرء والاستمساك بالجهل الا التجاهل واللامبالاة . وهـــل يقهر الجاهل بالحجة والعلم ؟ ! وصدق من قال : « ما حاججت جاهلاً الا حجّني » ان الجاهل يدافع عما قال لا لأنـه صواب ، بل لأنه قاله وكفى .

أما العلماء فيدركون ان آراءهم ليست هي الواقع بعينه ، بل صورة عنه تخطىء وتصيب . لذا قال بعض العلماء : « لقد حرمت على نفسي أن استعمل قولاً يدل على رأي قاطع مثل : قطعاً . وبلا شك . وعلى التحقيق . وصرت أستعمل بدلاً من ذاك : أحسب . وأظن . ويبـدو

لي . وقد أكون مخطئاً ، وما الى ذاك »[1] .

وهذه سبيل من يشعر من نفسه انه عرضة للخطأ والسهو. ومن الناس من لا حجة له الا السيف والنطع ، كالذي خطب بين يدي معاوية حين طلب من الناس أن يبايعوا ولده يزيد . قال الخطيب : « ان مات هذا فهذا ،ومن أبى فهذا » . وأراد فرعون مصر أن يقتل نبي الله موسى ، لا لشي الا لأنه قال له : « الله ربي لا أنت » .

ونقتطف من أقوال الغربيين في القرآن الكلمات التالية :

قال المستشرق سيل : « ان أسلوب القرآن جميل وفياض ، ومن العجب انه يأسر بأسلوبه أذهان المسيحيين ، فيجذبهم الى تلاوته ، سواء في ذلك الذين آمنوا به أم لم يؤمنوا به وعارضوه » .

وقال هرشفلد : « ليس للقرآن مثيل في قوة اقناعه وبلاغته وتركيبه، واليه يرجع الفضل في ازدهار العلوم بكافة نواحيها في العالم الاسلامي » .

وقال استنجاس هوز : « يمكننا أن نقول بكل قوة ان القرآن أعظم ما كتب في تاريخ البشر ... ومن هنا لا يصح أن نقيس القرآن بأي كتاب آخر ... لقد نفذ الى قلوب سامعيه بكل قوة واقناع ، واجتث من ثناياها كل ما كان متأصلاً فيها من وحشية وانتزع كل همجية مما أوجد ببلاغته وبساطته أمة متمدنة من أمة متوحشة متبربرة » .

وقال غوته الشاعر الألماني الكبير : « ان القرآن سيحافظ على تأثيره الى الأبد ، لأن تعاليمه عملية » .

---

١ من الخير أن ننقل قاعدة قرأناها في علم الأصول وهي : إذا تعارض دليلان في موضوع واحد ، ينظر فان تساويا في القوة من جميع الجهات أسقط كل واحد منهما الآخر ، وتكون النتيجة وكأنه لا دليل يصلح لاثبات أو نفي ، وإذا كان أحدهما أقوى من الآخر أسقط القوي الضعيف ، وبقي وحده حجة بلا معارض . وهذا المبدأ يعمل به كل من طلب الحق لوجه الحق ، وأنصف من نفسه كما انتصف لها . أما من يجادل ليري الناس أن مرجع القول اليه وحده دون سواه فلا بد أن يجره هذا القصد إلى الضعف والتعنت والقول بغير علم ، وان درس العلوم وألف المجلدات .

وقال جاستون : « احتوى القرآن على أسس تستند اليهــا حضارة العالم » .

وجاء في دائرة المعارف البريطانية : « أن محمداً اجتهد في الله وفي نجاة أمته ، وبالأصح اجتهد في سبيل الانسانية جمعاء »[1] .

1 عن كتاب « التمايش الديني في الإسلام » لمحمود العزب .

محمد في بعض خصائصه

جاء في كتب السير : ان الله خصص محمداً (ص) بفضائل لم تكن لنبي قبله ، ولن تكون لانسان بعده. وسرد بعض الرواة هذه الخصائص فبلغت مئة وخمسين ، وسواء أصح هذا القول أم كان مبالغاً فيه فان محمداً عاش كما عاش سائر النبيين وعامة الناس في عهده ، لم يدخل مدرسة ، أو يجلس الى فيلسوف ، وأدى الرسالة كما أداها الأنبياء من قبل ، واحتمل في سبيلها ألواناً من الجهد والمشقة كما احتملوا وصبر كما صبروا .

ولكن اذا رجعنا الى آثار النبيين الموجودة بين أيدينا وجدنا الفرق كبيراً بين محمد وغيره من الأنبياء :

١ – لمحمد شريعة ثابتة الأصول كاملة الأركان تشمل أحكامها شؤون الحياة بشتى فروعها ونواحيها . وقد اعترف البعيد قبل القريب بأنها تستجيب لتطور الحياة ، وتسمو بالفرد والجماعة إلى الأفضل والأكمل .

٢ – نزل على محمد كتاب من الله سبحانه تحدى كل جيل مضى منذ نزوله ، ويتحدى كل جيل يأتي بأسلوبه وبيانه ، وبما يحويه من المعاني والحقائق ، فهو كتاب الدهر الذي يعرّف الناس بحقيقتهم ومصيرهم ، وبأسرار الكون وعظمته .

٣ — دين محمد للناس كافة ، وليس لشعب دون شعب ، كدين بني إسرائيل الذين يعبدون رباً يمنحهم القوة والغلبة على الناس أجمعين، ويشرع لهم من الأحكام ما يستحلون بها الدماء والأموال ؛ كما أنه لم يزهّد الناس في هذه الحياة ، ويبن لهم قصوراً في الجنة، ويوزع الثواب على أهل القبور فقط ، لم يجعل من الشيطان وقيصر شريكين لله، فيعطيه الآخرة ، لأنها طهر ، ويعطيها الدنيا لأنها رجس ، « بل الأمر لله جميعاً ... له ملك السموات والأرض » ، ولا شيء للشيطان وقيصر ، ولا للشركات والحكام . وما كان لله فهو للناس، ولذا خاطبهم بقوله: « يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً . لا تحرموا طيبات ما أحل الله . هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » .

٤ — لا نعرف أحداً من الأنبياء وغيرهم ، دعا إلى العلم ورغّب فيه ورفع من شأنه وحث أتباعه عليه كما دعا اليه محمد ، فمن أقواله :

« ليس مني إلا عالم أو متعلم » . لأن المتدين بدون علم لا حصانة له ، فقد يستجيب إلى غرور الشيطان ، وباطله المموه ، وقال : « من ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حقه » . أي أن العلم لا نهاية له ، ويدل هذا القول على بعد في النظر لا يدرك مداه . وقال : « ليس الحسد من خُلق المؤمن إلا في طلب العلم .. مجالسة العلماء عبادة .. عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد » . وقوله: الحسد في طلب العلم من خلق المؤمن، دعوة صريحة للتنافس والمباراة على صعيد الحاجات الثقافية. ويشير بقوله: ينتفع بعلمه، الى العلوم العملية التي تثمر ثمراً محسوساً ملموساً. أما « العلوم » التي لا تتجاوز الكلام فهي نافلة وفضول . روي ان النبي دخل المسجد ، فاذا جماعة قد أحاطوا برجل . فقال ما هذا ؟ قيل علاّمة . قال وما العلامة ؟ قيل اعلم الناس بأنساب العرب . قال : ذا علم لا ينفع من علمه ، ولا يضر من جهله .

أما قوله : « اطلب العلم ولو في الصين ... الحكمـة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها » وفي رواية ثانية : خذ الحكمة ، ولا يضرك من أي وعاء خرجت . وفي ثالثة : خذ الحكمة ، ولو من مشرك – أما قوله هذا فدليل واضح على ان العلم لا يجنس بدين ولا بلغة أو وطن ، وان على طالبه ان يسعى وراءه أنى يكون، بصرف النظر عن دين صاحبه وبلده وأخلاقه . وبعد فهل يدرك هذه الحقائق ، ويدعو اليها رجل أمي عاش في الجاهلية الجهلاء اذا لم يكن نبياً ؟! لقد طار العلم الى القمر وتجاوزه الى ما لا نهاية، وما زال جمهرة من الناس يتنكرون لهذه الحقائق، وينصبون العداوة والبغضاء لمن يجهر بها .

لقد فتح محمد النوافذ للعرب والمسلمين على علوم العالم كلها والأفكار كلها بغير قيد ولا شرط، لأنه يعلم علم اليقين ان العلوم هي الأساس الأول للنجاح ، والأداة الفعالة للتطور . وقد وجدت دعوته الى العلم صداها بين أتباعه، وبفضلها انتهت اليهم « زعامة العالم كله » كما قال «دربير» المدرس باحدى جامعات الولايات المتحدة .

ولو أخلص المسلمون لتعاليم نبيهم ، واستمروا على الخطة التي رسمها لدامت لهم الزعامة العلمية الى الأبد ، ولوزعوا الفنيين والخبراء على أهل الشرق والغرب ، ولما استجدوا المساعدات والمعونات من هنا وهناك ، لو جاهد المسلمون في الله ، وابتعدوا عن أعدائه وأعدائهم ولم يتخذوا منهم بطانة وأولياء، لو تناهوا عن المنكر والشقاق كما أمرهم الله ورسوله لما كان للاستعمار والصهيونية في بلادهم عين ولا أثر . ولو عملوا بقول الرسول الأعظم : « لا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون » لما سمع العالم بلفظ الاشتراكية وأحزابها وأقطابها .

ان النصوص والقوانين تظل جامدة وأموراً شكلية حتى تطبق عملياً وتتحول الى وقائع . ولولا ان تجد الاشتراكية أمـة تناصرها وتمارسها لكانت مجرد كلمات نقرأها كما نقرأ جمهورية افلاطون، ومدينة الفارابي.

ان النصوص أشبه بمخطط لعمارة لا يظهر أثره إلا بعد البنـــاء والانتهاء من العمل . قال الرسول الأعظم :

« الاسلام أحوج إلى الجماعة من الجماعة إلى الاسلام » . يشير بهذا إلى أن أية فكرة لا تعتمد على جماعة من الناس تؤمن بها وتدافع عنها محكوم عليها بالفشل ، وهذه النظرية من أحدث النظريات التي اكتشفت في عصرنا هذا . وكم في تعاليم محمد من أفكار لو كشف عنها الغطاء، وقورنت بالأفكار يومذاك ، لتبين أنها سبقت عصرها بآلاف السنين .

يقول علماء التربية : إن الانسان نتيجة لعوامل كثيرة ، منها الزمان والمكان ، وتقاليد من يعاشر ، بل منها غذاؤه وكساؤه ، والهواء الذي يستنشق ، والصوت الذي يسمع ، والضوء الذي يرى ، وما إلى ذاك، ولذا إذا أرادوا معرفة شخص على حقيقته درسوا مهنته وبيئته والظروف المحيطة به .

ومحمـــد كان غريباً عن قومه في أخلاقه وأفكاره . كانوا يعبدون الأوثان ، وكان أبغض الناس لهـــا [1] وكانوا يظلمون ويكذبون ، ولا يتورعون عن المنكرات والفواحش ، وكان أشد الناس نفرة من الظلم والكذب والمنكر والفحشاء ، ومن كل مـــا يشين حتى أسموه الصادق الأمين . وكانوا يعيشون في عزلة عن الأمم وأفكارها وعلومهـا ، حتى تغلبت عليهم البداوة بأجمع معانيها ، وكان هو معدن العلوم ومصدرها. وإذا كان فكر الانسان لا يتجاوز حدود المعارف في عصره مهما سمت مواهبه وعبقريته ، فمن أين هذه العلوم في القرآن والحديث ؟!

---

١ قبل أن يبلغ محمد سن الرجال ، قال له البعض ، يا غلام أسألك بحق اللات والعزى الا أخبرتني عما أسألك . فقال له محمد : لا تسألني باللات والعزى : فوالله ما بغضت شيئاً بغضهما . وكان بينه وبين رجل اختلاف في شيء ، فقال له الرجل : احلف باللات والعزى فقال له : ما حلفت بهما قط ، واني أعرض عنهما .

ربما يوجـد فرد أو أفراد يمتازون عن بيئتهم بالوعي والادراك ، فينفرون – مثـلاً – من الرق والعبودية ، ويحبون لغيرهم ما يحبون لأنفسهم ، وربما يوجد من العباد والزهاد من يخالف قومه في التقاليـد والعادات ، فيعتزل عنهم في صومعة لا يبرحها مدى الحياة ، يصلي فيها ويصوم ، ولا يعرف عن شؤون الناس كثيراً ولا قليلاً . أما ان يعيش رجل في بيئة أبعـد ما تكون عن الحضارة والمدنية ، ثم يدرك أسس العلوم ، وأصول التشريع ، وأسرار الحكمة ، ولا يشتبه عليه الحق مهما خفي ، ويجمع بين القلوب المتنافرة ، ويوجد أمة من العدم تقود الأمم ، وتحدث في العالم العجب العجاب ، اما هذا فلا يبلغ هذه المنزلة إلا اذا نطق بكلمات الله وعلمه وحكمته .

محمد خاتم النبيين

جاء في الآية ٤٠ من سورة الأحزاب : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليماً » .

ونتساءل : لماذا ختمت النبوة بمحمد ؟! وما هو السبب لهذا الاحتكار والاستئثار ؟! واذا حكم العقل بضرورة البعثة للناس كافة ، وحاجتهم الماسة اليها ، كما سبق ، فان حكمه هذا لا يختص بزمان دون زمان وجيل دون جيل .

والجواب : ان مهمة النبي هداية الناس الى التي هي أقوم، وارشادهم بأن لهم خالقاً عظيماً ، من حقه أن يُعبد ويُطاع ، وانهم مبعوثون ومسؤولون،وان يبلغهم ما يحتاجون اليه من القوانين في معاشهم ومعاملتهم وسائر أفعالهم ، وان يلقي الحجة عليهم بالتبليغ « رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ــ ١٦٤ » .

وهذا القرآن فيه بلاغ من الله ونصائح للناس ، وتبيان كل شيء : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ــ النحل ٨٩ » . وما دام القرآن قائماً وخالداً ولم تنله يد التحريف والتقليم والتطعيم فبأي شيء يأتي النبي الجديد ؟! فان جاء بما يوافق لم يكن اليه حاجة ، أو بما يخالف

وجب رده وتكذيبه ، لأن القرآن تام كامل ، وكل ما فيه من العقائد والمعارف والأخلاق والأحكام حق وصدق، فدين محمد وشريعته وتعاليمه قد بلغت الغاية والكمال ، والزيادة على التمام نقصان ، كالاصبع السادسة في الكف وكل ضوء مع نور الشمس عدم .

ثم نسأل من يستكثر على محمد ان تُختم به النبوة ، وعلى الاسلام ان تنتهي به الأديان : هل من أمة اتخذت الاسلام ديناً ، وطبّقت تعاليمه كما يجب فعاقها عن التقدم والنهوض في سبيل الحياة ؟!

وعلى الرغم من ان أطفال المدارس يعلمون ان الدنيا بكاملها والأجيال القديمة والحديثة قد استفادت من الاسلام حتى الذين لم يعتنقوه ويؤمنوا به ، لأنه نور ، والنور يضيء طريق السالكين مهما كان لونهم، والشمس تشرق على المؤمنين والجاحدين سواء بسواء ، على الرغم من ذلك فاننا ندع الجواب لغيرنا ، لغير المسلمين من كبار الأدباء والفلاسفة والعلماء .
قال غوته الألماني الذي اعترفت اوروبا بزعامته الأدبية : « ان محمداً رجل خارق للعادة ، وانه نبي ليس بشاعر[1] » . وقال هـ . ج . ويلز الانكليزي الشهير في كتابه « موجز تاريخ العالم » عند كلامه عن العرب « كان العلم يثب على قدميه وثباً في كل موضع حل فيه الفاتح العربي » .

وقال نهرو رئيس وزراء الهند في كتابه « لمحات من تاريخ العالم » : « كان محمد واثقاً بنفسه ورسالته . وقد هيأ بهذه الثقة ، وهذا الايمان لأمته أسباب القوة والعزة والمنعة ، وحولها من سكان صحراء الى سادة يفتتحون نصف العالم المعروف في زمانهم ، كانت ثقة العرب وايمانهم عظيمين . وقد أضاف الاسلام اليهما رسالة الأخوة والمساواة والعدل ... وثب الشعب العربي بنشاط فائق أدهش العالم وقلبه رأساً على عقب ؛ وان قصة انتشار العرب في آسيا واوروبا وافريقيا والحضارة الراقية والمدنية

---

[1] كتاب « التعايش الديني في الإسلام » لمحمود العزب ص ١١٣ .

الزاهرة التي قدموها للعالم هي اعجوبة من اعجوبات التاريـــخ ... لقد امتازوا بالروح العلمية الاستطلاعية مما يجعلهم يدعون بجدارة آباء العلم الحديث» .

وكل كلام بعد هذا نافلة وفضول سوى هذه الجملة، وهي ان اهتمام العرب بالعلم منبثق من أصل العقيدة الاسلامية التي رفعت العلم الى أسمى المراتب .

وقال كاتب من كتاب هذا العصر : « ان الانبياء كانوا مجددين حقاً، لأنهم ثاروا على القديم، غير ان اتباعهم المتمرسين على فهم الدين ونشر تعاليمه رجعيون ، لأنهم حافظوا على ذلك القديم مع مرور الزمن، وبهذا استحال الدين من انبيائه التقدميين الى رجاله الرجعيين ، لأن الفكرة التي تكون جديدة بالقياس الى عهدها تصبح قديمة بالنسبة الى ما بعدها .

والجواب ان رجـــال الدين تقدميون أيضاً اذا ساروا بسيرة انبيائهم وقاموا على سنتهم ، ولم يتخـــذوا من دينهم اداة للكسب ، ويستغلوا عواطف الناس الدينية لصالح الحكام والشركات والاقطاعيين . لقد جاء الأنبياء بالحق ، وأقروا من حيث المبدأ كل جديد مفيد كان ويكون . والحق لا يقاس بمقاييس العصور والأجيال، فهو كالنور والماء والهواء جديد أبداً ودائماً ، فمن آمن به وعمل له فهو مجدد وتقدمي دينياً كان أو زمنياً ، ومن عانده فهو رجعي خرافي كائناً من كان . ان الرجعية ليست وقفاً على رجـــال الدين ، ولا التقدمية منحصرة بغيرهم ، واذا كان لبعض رجـــال الدين من ذنب فهو الجهل بروحه وحقيقته ، أو التضليل والتلبيس على الابرياء لمآرب يأباها الدين والانسانية .

ومرة ثانية الى النبي الجديد .

لقد أقر الاسلام مبدأ التوحيد والعدل في العقيدة . ونزه الخالق عن كل ما يشين ، وأثبت له جميع المعاني التي تعبر عنهـــا الأسماء الحسنى من القدرة والحكمة والعلم والغنى والحب والرحمة والجود والمغفرة والعزة والكرامة ، وما إلى ذاك من صفات التقديس والتعظيم التي يجيز العقـل

ان نصف بها الذات الإلهية، كما نزه الانبياء عن الجهل والخطأ والشهوات، وأثبت لهم جميع صفات الجلال والكمال التي يمكن لبشر منقذ ان يتحلى بها.

وركز الاسلام شريعته وحلاله وحرامه على قانون الطبيعة ومبدأ العدالة، فكل ما فيه الخير والصلاح للناس بجهة من الجهات فهو حلال ومحبوب، وكل ما فيه الشر والفساد بجهة من الجهات فهو حرام ومكروه. وأقر الاسلام مبدأ الاخوة والمساواة في المجتمع، وحث على التعايش السلمي[1] وحل المنازعات والخصومات بالحكمة والموعظة الحسنة: «قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم – آل عمران ٦٣»، أي تعالوا الى العدل والمودة لا إلى المؤامرات والدسائس والضغائن والى الثقة والتبادل الثقافي والاقتصادي لا الى السلب والنهب، والى الأمن والأمان لا الى الأحلاف العسكرية والاستعدادات الحربية.

وأقر الاسلام مبدأ الفضيلة في الأخلاق، فنهى عن الكذب والرياء والقسوة والجفاء والزنى والخيانة وجميع المظالم والفواحش ما ظهر منها وما بطن. وسلام على من قال: «انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

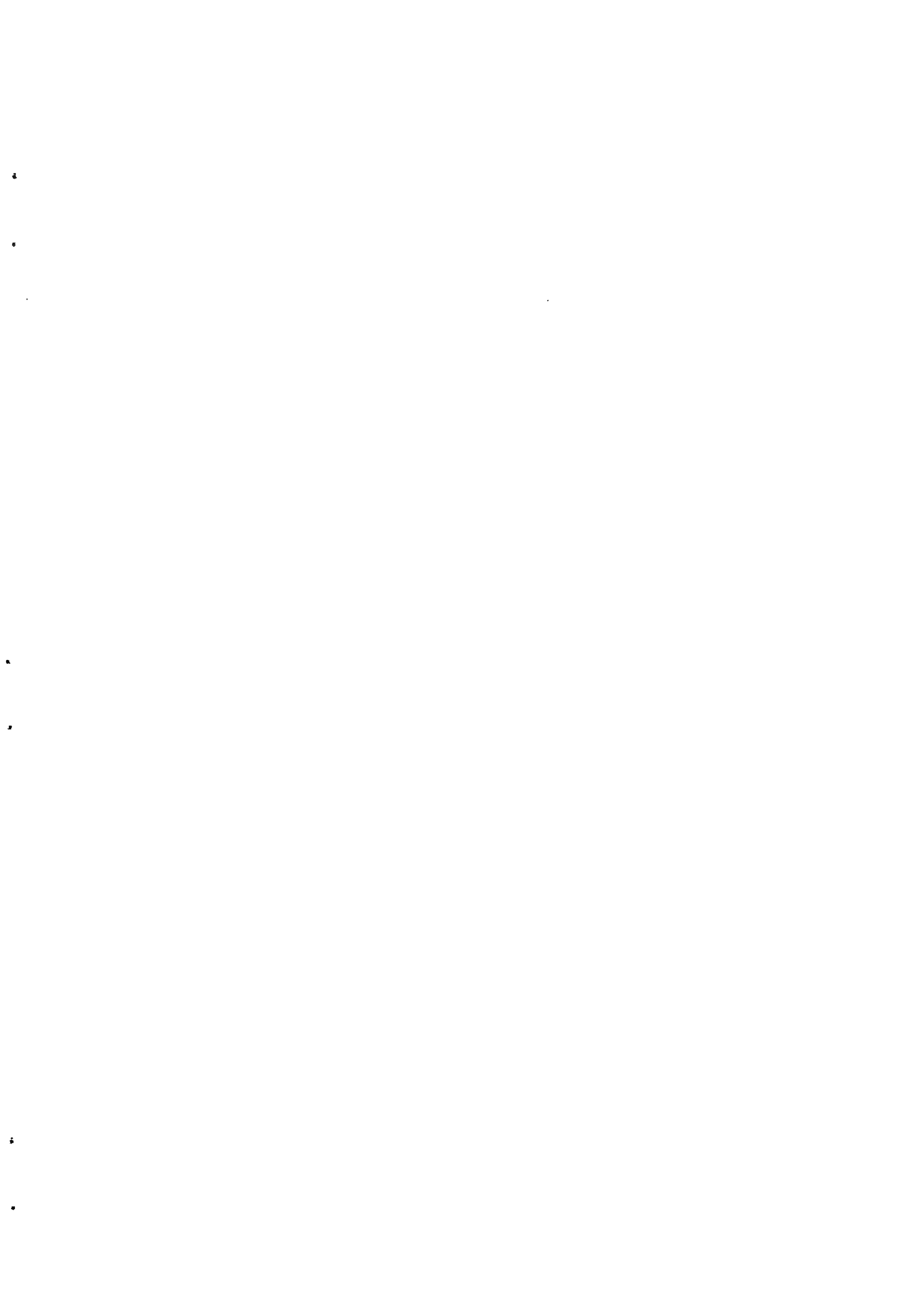
واذا كان دين محمد هو دين الفطرة والانسانية، فماذا يبقى للنبي أو المتنبي الجديد؟! اللهم الا ان يغير فطرة الله التي فطر الناس عليها، فيأمر بالحروب والاستغلال والسرقة والخيانة والكذب والزنى والقمار والخلاعة، وينهى عن السلام والحرية والأمانة والصدق والعفة!!

تنبيـــه:

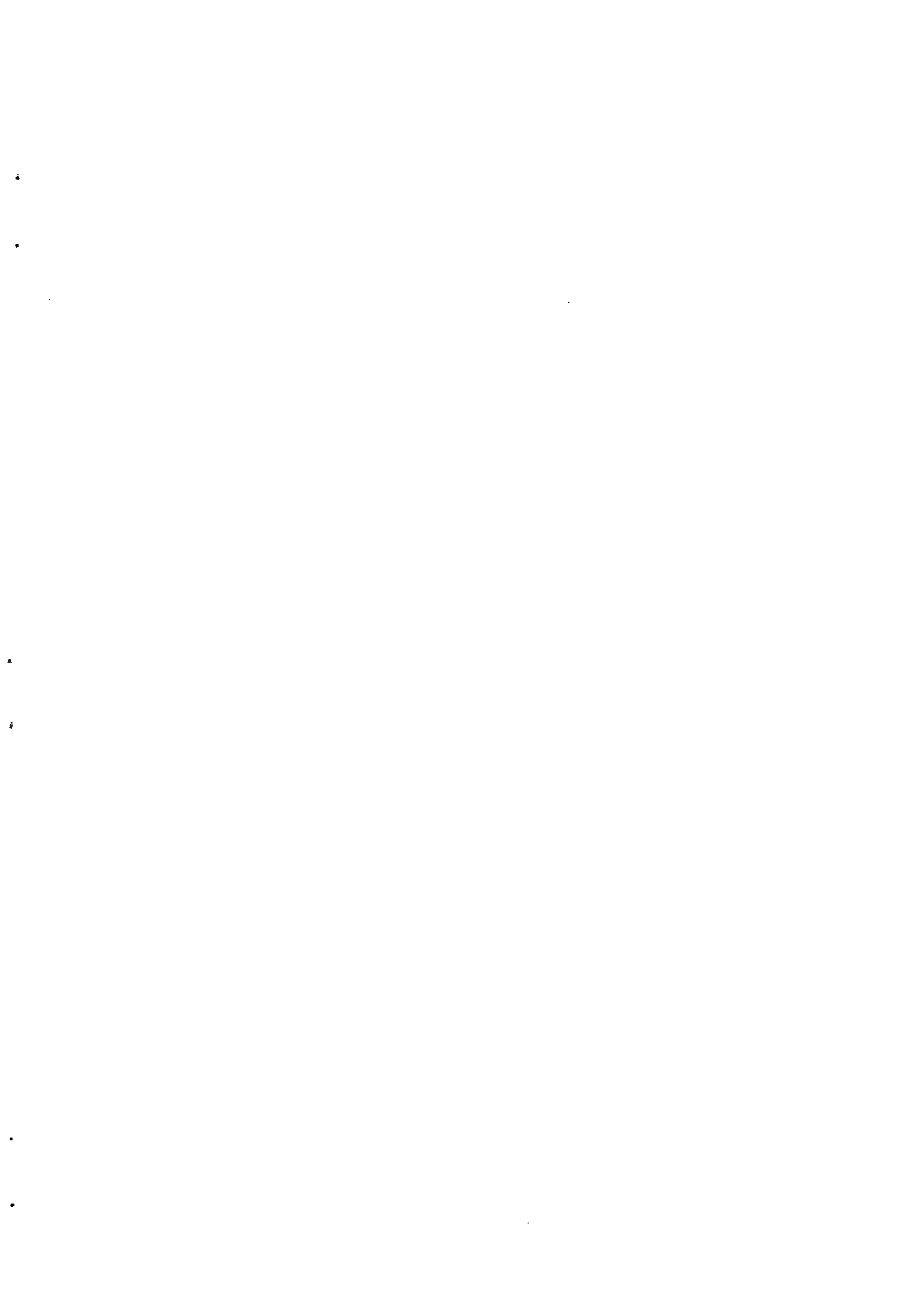
قلنا في بحثنا «الله والعقل» سنتعرض لكتاب «الدين والضمير» مفصلاً في بحثنا «النبوة والعقل». وحيث لم تتسع هذه الصفحات لملاحظاتنا على الكتاب المذكور لأنها بلغت ما يقرب من عشرين صفحة فقد أرجأناها الى فرصة ثانية، ولعلها تسنح في البحث الثالث أو الرابع. ومن الله سبحانه نستمد الهداية والتوفيق.

---

١ اقرأ كتاب «التعايش الديني في الإسلام» لمحمود العزب.



الآخِرَةُ وَالعَقْل



تمهيد

قبل أن أبدأ في وضع هذا الفصل قال لي أحد الأخوان : ان موضوع الآخرة أصعب الموضوعات التي تعالجها ، لأنك تتوخى التوضيح واقناع الناشئة، وهذا الموضوع معقد شديد الغموض .

وفي الحق اني اقتنعت بقوله ، وأخذني الوهم في بداية الأمر ، لأني من الذين يؤمنون بأن السهولة والتوضيح حق للقارىء على الكاتب، ولكنني ما شرعت بالكتابة حتى وجدت الأمر أيسر وأسهل مما توهمت ، ولم أر أي فرق بين موضوع الآخرة وموضوع المبحثين السابقين « الله والعقل » و « النبوة والعقل » .

وأخال ان البعض اذا قرأ الاسم عن قرب أو بعد سيقول : وأي شأن للعقل في هذا الموضوع ؟!

ولا جواب لدي الا الدعوة الى قراءة هذه الصفحات، وسيجدها القارىء سهلة ومقنعة بحول الله تعالى ، فان تردد في شيء مما فيها فليتهم فهمه، أو يتهمني بالتقصير في البحث والتنقيب ، أو الخطأ في طريقة العرض . أما أصل الفكرة والمبدأ نفسه فحق لا ريب فيه، والله سبحانه المسؤول ان يجعلها من الأعمال التي تنفعنا يوم نلقاه ، انه سميع مجيب .

أوهام الجاحدين

الناس في أمر الآخرة والبعث على طوائف :

منهم طائفة : تجمع بين انكار الخالق ، وانكار البعث .

وثانيـة : تعترف بالخالق ، وتنكر البعث .

وثالثـة : تعترف بهما معاً ، وهي أرسخ علماً وأكثر عدداً .

ورابعة : تشكك لا تنفي ولا تثبت .

ولمنكري البعث ألوان من التفكير :

منها ، ان الانسان ليس إلا هذا الهيكل المحسوس الذي تلمسه اليد، وتراه العين ، ولا شيء وراء ذلك ، أما الحياة وسائر القوى التي نسميها الروح والعقل فهي عرض زائل كالماء في النبات ، والنار في الحطب ، والزيت في الزيتون تنعدم وتتلاشى بالموت ، ولا يبقى إلا العنـاصر التي يتكون منها الجسم .

الجواب :

١ ـ ان هذا القول لا يستند الى دليل من العقل ، ولا من التجربة، ولا من المشاهدة ، وانما هو حدس في حدس .

٢ ـ ان العلماء يعرفون حقيقة هذه العناصر التي يتألف منها الجسم،

ويستطيعون تركيبها في صورة انسان ، ولكنهم يعجزون عن بعث الحياة في خلية واحدة، ولو كانت النفس عرضاً وصفة تتولد قهراً من تركيب الجسم وضم الأجزاء بعضها الى بعض لاستطاعوا أن يوجدوا انساناً ساعة يشاءون ، تماماً كما يوجدون الطائرة والسيارة، لأن الأسباب اذا تكررت أدت الى نفس النتائج التي حدثت أولاً ، مع ان العلماء حاولوا وجربوا وكرروا التجربة مرات ومرات ، وبعد أن بذلوا جميع الجهود أتوا بكائن محنط ظنوه شبيهاً بالحي ، وبعد الدرس والتمحيص اتضح لهم انه أبعد ما يكون عن الكائنات الحية بمعناها الحقيقي . وجل الذي قال : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب – الحج ٧٣ » .

٣ – لو صح هذا القول لتساوت أفراد الانسان في جميع القوى والمواهب ، ولكان مخترع الأقمار الصناعية كأي انسان سواء بسواء، لأن المادة والهيئة واحدة في الجميع لا تختلف في فرد عن فرد ، حيث أثبت العلم ان الانسان يتكون في أصله من خلية واحدة ، ينشأ منها الطويل والقصير والأسود والأبيض ، « وما به الاجتماع لا يكون به الافتراق».

٤ – أي عاقل يصدق بأن هذا الانسان الذي يتفجر عبقرية وذكاء لا يفترق في حقيقته عن النبات والحشرات ، هذا المخلوق العجيب الذي غير وجه الأرض ، وقلبها رأساً على عقب ، ثم صعد الى القمر ، وتجاوزه الى المريخ وأحال علم الفلك من علم مراقبة ومشاهدة الى علم التجريب ، هذا الرأي جعل المستحيل ممكناً ، واجتمعت فيه قوى العالم بكاملها حتى قيل فيه :

وتحسب انك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

هذا الانسان الذي تجلى في محمد وعلي وسقراط وغاندي وآينشتاين

والمعري [1] ، وعبر عنه القرآن الكريم انه خليفة الله في أرضه ، والأنجيل بأنه ابن الله . وخاطبه الجليل بقوله : « وكان فضل الله عليك عظيماً » هذا الانسان يتألف من بضع مواد كيماوية فقط لا غير !.

قال بعض العلماء : في الانسان من الدهن ما يكفي لصنع سبع قطع صابون ، ومن الكربون ما يكفي سبعة أقلام رصاص ومن الفوسفور ما يكفي لرؤوس ١٢٠ عود ثقاب ، ومن الملح ما يصلح جرعة للاسهال ، ومن الحديد ما يصنع منه مسمار متوسط الحجم ، ومن الجص ما يبيض بيت دجاج ، ومن الكبريت ما يطهر جلد كلب من البراغيث .

أهذا هو الانسان ، وهذي حقيقته !؟ استغفر الحق أو العلم .

ومن تفكيرهم أيضاً ان الانسان يولد نتيجة التزاوج بين الذكر والأنثى ، ويموت نتيجة لمرض أو قتل أو لانهيار جسمه بعد أن يصل الى الشيخوخة .

وهذا القول لا يختلف عن سابقه الا في التعبير غير انه أكثر شبهاً بقول القائل :

كأننا والماء من حولنا   قوم جلوس حولهم ماء

ومن يشك في ان الانسان يولد ثم يموت ؟! ولكن أي دليل في هذا على ان الانسان اذا مات فات ؟! ان الدعوى لا تصلح أساساً للاستدلال ، فاذا قلت : بلغ فلان من العمر عشرين سنة ، لأن عمره

---

[1] قرأت في جريدة وطني المصرية تاريخ ١٨ – ١٠ – ٥٩ ان ريتشارد بوجين كان يحفظ مؤلفات الشعراء والفلاسفة ويحدد مكان أية كلمة من أية صفحة ، وان يوسف مزوفاني يتحدث بسبعين لغة بلهجاتها المعقدة ، وان شاباً من كورسيكا تلي عليه ستة وثلاثون الف كلمة فحفظها بمجرد سماعها ، وفي العرب القدامى العديد من هذا النوع ، كابن عباس والمعري والاصمعي وغيرهم ، ومن أحب الاطلاع فعليه بالجزء الأول من تاريخ آداب العرب للرافعي .

عشرون سنة كان قولك هذا نوعاً من الهراء والهذيان . وقد رد القرآن على هؤلاء وأحزابهم بالآية ٢٣ من سورة الجاثية : « وما لهم به من علم ان هم الا يظنون » .

ومن تفكيرهم أيضاً ان الجسم بعد ان تأكله الديدان ، ولا يبقى منه الا عظام نخرة يعود ثانية ! ان هذا لشيء عجـــاب ! ومن شاهد أو سمع ان ميتاً عاد الى الحياة بعد أن أصابه البلى ، وذهب في التراب ؟!

ونحن لا نجد سبباً لهذا الاستبعاد سوى قياس فعل الله على فعل البشر فاذا عجزنا نحن عن احياء الموتى يجب أن يعجز الله عنه أيضاً ! تعالت قدرته « انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » .

لقد استبعد هؤلاء البعث ، لأنه مخالف للمعتاد والمألوف ، وبديهة ان الاستبعاد لا يصلح دليلاً للنفي ولا للاثبات . فبالأمس القريب كنا نرى أشياء مستحيلة الوقوع ، ثم أصبحت حقيقة واقعة كالتلفون والتلفزيون وما أشبه . وقد أشار الله سبحانه الى استبعاد المنكرين في مواضع عدة، منها الآية ٤٨ من سورة الاسراء : « أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً » . ورد عليهم في آيات ، منها الآية ٥ من سورة الحج ، « يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة » .

خاطب الله سبحانه المرتابين بهذا الأسلوب البعيد عن الاستعلاء القريب الى كل قلب ، فبعد ان سألهم : هل داخلهم الشك ؟ لفت نظرهم الى آيات الله التي يشاهدونها في غيرهم وفي أنفسهم ، والى انشائهم وابتداء خلقهم ، وكيف أوجدهم من العدم ، وانتهى بهم الى نتيجة لا يسعهم الا التسليم بها ، والاذعان لها ، وهي ان من يقدر على ايجاد المعدوم فهو على اعادة الموجود أقدر ، ان صح التعبير[1] . ابتدأ معهم

---

[1] لا يوجد بالنسبة إلى الله شيء أسهل أو أصعب من شيء ، فخلق الذرة وخلق الكون سواء لديه تعالى .

من الشك والتساؤل ، وانتهى بهم الى اليقين والاطمئنان .

قال الكندي فيلسوف العرب : ان خلق الانسان أو احياءه بعد الموت أيسر من خلق العالم الأكبر بعد ان لم يكن ، وهذا هو مضمون آيـــة « أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على ان يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم » .

وهكذا لا تجد في أقوال منكري البعث أية حجة مثبتة لدعواهم سوى عجزهم عن الفهم والادراك ، وكثيراً ما يكون هـذا العجز لنقص في الأفهام وعدم ملاءمة الظروف فنحن نشاهد الشمس والقمر وآلاف النجوم، ولها تأثير بالغ في حياتنا ، ومع ذلك نعجز عن ادراك حقائقها ومعرفة أسرارها .

وقد يقال : ان الذين يؤمنون بالبعث جهال مقلدون .

ونسأل بدورنا : من هو الجـــاهل المقلد ؟ سقراط أو افلاطون أو الفارابي أو ابن سينا أو ابن رشد وغـير هؤلاء الكبار الذين آمنوا بالله واليوم الآخر ، ووضعوا في اثبات المعاد المؤلفات الطوال ؟! أو من قلد سقراط وافلاطون وابن سينا ؟! واذا كانوا مقلدين فمن هم الفلاسفـــة المتنورون الذين تكشفت لهم اسرار الكون وحقائق الحياة ، وما قبلهـــا وما بعدها ؟!

وفي الحق اننا لم نر أحـداً يحسن التقليد ويتقنه كهذه « الحزمة » من الشباب الذين استخفوا بدين آبائهم ، واتهموا كل من يؤمن بالله واليوم الآخر بالتقليد لا لشيء الا لكلمة سمعوها من اباحي متحذلق،أو قرأوها في كتاب أو صحيفة تبث السموم ، وتنشر الفوضى والفساد .

والخلاصة ان الفرق كبير جداً بين ممتنع الوقوع ، وممكن الوقوع ، فالأول لا يتحقق بحال ، فـان ادعاه شخص يكذَّب بمجرد الدعوى ، ودون ان يطالب بالدليل ، فاذا قـــال قائل : رميت حجراً من علو فارتفع نحو السماء ، أو قال : ان الشمس كوكب بارد ، عليه أحياء

من أنواع شتى جاز للسامع أن يقول له بدون توقف هذا محال ، لأن الأرض تجذب الأجسام اليها ، وحرارة الشمس تمنع من وجود الحياة عليها . أما الثاني أي الممكن فلا يصح تكذيب مدعيه بمجرد الدعوى ، وانما يطالب بالدليل ، فاذا قال القائل : ان رجلاً صعد الى القمر ، ثم عاد سالماً الى الأرض فلا يقال له : هذا كذب « ضربة واحدة ». وانما يسأل عن الدليل لأنه يدعي وجود شيء ممكن ان يتحقق متى تهيأت له الأسباب . والحياة بعد الموت من النوع الثاني ، أي ممكنة غير ممتنعة .

فكرة الاخرة وتأثيرها في السلوك

ان العوامل التي تتحكم في سلوك الانسان ، ويخضع لها في حركاته وسكناته تنقسم الى نوعين : الأول العوامل الخارجية، كالبيئة والحوادث العامة والخاصة ، وليس لهذه من ضابط معين ، لأنها تختلف باختلاف المحيط والمجتمع الذي يعيش فيـــه ، وتتنوع حسب الظروف والأحوال التي لا تدخل في حساب . النوع الثاني العوامل الداخلية ، كالمشاعــر والنزعات النفسية ، وهي كثيرة منها :

١ – منطق الحياة الذي يفرض حكمه بعيداً عن تأثير الارادة والاختيار ، كالتنفس ، ونمو الجسم ، وتطور الأعضاء وقدرتها على القيام بوظائفها الخاصة .

٢ – منطق العاطفة ، وهو مصدر لأكثر ما نقوم به من أعمال في حياتنا اليومية ، كالمحافظة على الأبناء وتربيتهم ، والثناء على من نحب ، والطعن فيمن نكره ، ولا يسلم من سلطان هذا المنطق أحد حتى أهـل الفضائل والذكاء .

٣ – منطق العقل ، وهو مصدر الادراك والتفكير ، وأصل العلوم

والصناعات ، وبه يتغلب الانسان على الطبيعة ، ويميز بين الحق والباطل والضار والنافع .

٤ — منطق العدوى والتقليد ، كالأفكار المتولدة من الكتب والجرائد والخطب ، وكالنظر بدون شعور الى جهة ينظر اليها الغير ، وما الى ذاك .

٥ — منطق العادة ، كشرب الدخان ، والنوم في وقت معين ، وما الى ذاك .

٦ — منطق الدين ، ويتضمن الكثير من التعقل والتأمل وقد مثل دوراً عظيماً في تاريخ الأمم والأفراد حيث كان وما يزال المقياس الوحيد لأفعال المتدينين وأقوالهم ، كما أن له تأثيراً بارزاً في الفنون والآداب والسياسة والأخلاق . وهذه النزعات تتفاعل مع العوامل الخارجية ، فتتأثر بها وتؤثر فيها .

وغرضنا من هذا البحث يتصل بمنطق التدين ، وبنوع أخص الاعتقاد بالبعث ، وكيف يؤثر في أخلاقنا وسلوكنا . وكلنا نعلم أن شعور الانسان بأن عليه رقيباً يعلم السر وأخفى، وأنه مسؤول عن كل كبيرة وصغيرة، وانه يحاسب ويعاقب ان أساء ، ويثاب ان أحسن . ان هذا الشعور يبعثه — في الغالب — على فعل الخير وترك الشر ، وعلى أن يكبح الانسان جماح نفسه ، ويمنعها من أن تحقق أهواءها وشهواتها .

ورب قائل يقول : لقد رأينا أفراداً يعتقدون بالجنة والنار مع انهم يرتكبون أكبر الخطايا وأحط الأعمال،ورأينا آخرين أفضل منهم أخلاقاً ، وعلى حظ من الخير مع انهم لا يدينون بشيء .

الجواب :

ان الذين يدعون انهم من الدين وأهله ، ثم يخالفون عن أمره ، ويستخفون بتعاليمه على نوعين : النوع الأول منهم لا يعرفون من الدين

أصلاً ولا فرعاً ، ولا يعنيهم من أمره كثير أو قليل ، وانما يصرخون باسم الدين ، ويتشبثون بأذياله كلما خرج « آدمي » عن طاعتهم، وكلما فشلت لهم مؤامرة ، وكلما هزم لهم لص مدرب عـلى الاجرام . انهم يرددون لحن الدين بأنغام شتّى لا يعرفها نبي ولا وصي نبي. وهنا موضع التساؤل ، بل موضع الشك والريب ! لماذا هذا التهويش، وهذه المناداة بالويل والثبور وعظام الأمور واظهار الغيرة على الدين أكثر من الأنبياء والأولياء ؟! مع انهم لا يؤدون فرضاً من فرائضه ، ولا يتورعون عن مخالفة أمره ونهيه[1] .

وهذا دليل واضح فاضح على انهـم سماسرة أديان يتسترون باسمها اتقاناً للخديعة ، وخوفاً من الفضيحة . وما قرأت كلمة تعبر عن حقيقة هؤلاء أجمع من قول سيد الشهداء الحسين بن علي : « الناس عبيـد الدنيا ، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معائشهم،فاذا محصوا البلاء قبل الديانون » .

النوع الثاني من الناس يؤمنون بالله وحسابه وعقابه ، ولكنهم يتنازلون عن بعض ما يدينون رغبة في منصب ، ورهبة من قوي ، أو خوفاً من عوز ، أو لضعف في الارادة والتفكير ؛ وما إلى ذلك من الأسبـاب التي لا يملكون معها المناعة الكافية اذا تصادمت مع عقيدتهم . ان هؤلاء مؤمنون بلا ريب ولكنهم ضعفاء لا يحتملون الهم والمتاعب . والانسان، أي انسان في صراع مستمر مع الخوف من العواقب . والقوي من ثبت على عقيدته حتّى وان زالت الأرض من تحته ، وأطبقت السماء على رأسه .

---

١ خاطب الله نبيه محمد بقوله : « ما عليك من حسابهم من شيء .. وقل الحق من ربك فمن شـاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ... لكم دينكم ولي دين » وما إلى ذلك من الآيات . وقد اتفق علماء الإسلام على هـذه القاعدة : « من كفر واعتزل تركناه » . ولكن الخائن دائماً يكون ملكياً أكثر من ملك .

ومهما يكن فان الفرق بعيد جداً بين من يضمر الجحود ، ويظهر الإيمان كذباً وافتراء ، وبين من يؤمن بالحق ، ولكن لا يثبت عند الصدمات . ان الفرق بين الاثنين كالفرق بين من سار الى المعركة مع الجند ليتجسس ويدبر المكائد والمصائد ، وبين من هرب من الجندية حرصاً على حياته وحياة أولاده ، فالأول تعمد الاجرام والعدوان ، وتاجر بالدماء والأرواح ، لغاية الكسب والربح . أما الثاني فكل ما يبتغيه « سلامات يا راس » ولا يضمر لأحد شراً . وقد يشعر بالخطيئة والخجل من نفسه ، ويطلب السماح والغفران ، بل قد يحس بالراحة عندما يعاتب أو يعاقب ، وقد رأينا من يعترف بالذنب علناً ، ويطلب ايقاع العقوبة به ، ليخلص من توتر الأعصاب ، وتأنيب الضمير الذي لازمه في ليله ونهاره . واليك – مثلاً واحداً من آلاف الأمثلة :

كان بعض القدامى يرفض ما يصطدم مع دينه ووجدانه ، وهو في مقتبل العمر ؛ وعندما تقدمت به السن ، وأصبح ذا عيال وأطفال تقبل بعض ما كان يرفض من قبل ، وفي ذات يوم رجع الى نفسه، وقارن بين يومه وأمسه ، فذاب قلبه حسرات أرسلها مع أنفاسه الملتهبة في هذين البيتين :

عصيت هوى نفسي صغيراً وعندما رماني زماني بالمشيب وبالكبر
اطعت الهوى عكس القضية ليتني ولدت كبيراً ثم عدت الى الصغر

وليس من شك أن الكريم سبحانه قد غفر لهذا الشاعر الذي تحرق ألماً من ذنبه ، ونكس رأسه حياء من ربه .

قدمنا ان الإيمان باليوم الآخر يخلق في الانسان حافزاً الى عمل الفضائل والخيرات ، وتجنب الشرور والموبقات . وللتدليل على هذه الحقيقة نذكر

طرفاً من معاملة الانسان في العالم الثاني : عن أي شيء يسأل ؟ وبماذا يكافأ ؟.

جاء في الحديث : « كلكم راع ، وكل راعٍ مسؤول عن رعيته» . وليس من شك ان مسؤولية كل انسان تكون على قدر وسعه ومقدرته، فمسؤولية الحاكم غير مسؤولية المحكوم ، وما يُطلب من الغني لا يطلب من الفقير ؛ وتكليف العالم غير تكليف الجاهل ، ومن هنا قيل : ان الطرق التي توصل الى الله بعدد أنفاس الخلائق ، أي ان السبيل اليه سبحانه سهلة يسيرة ، وآمنة لا هول فيها ولا خوف ، يستطيع ان يسلكها كل فرد ، ما دام الله لا يكلف نفساً إلا وسعها .

وفي يوم القيامة يسأل المرء عن أفعاله وأقواله ، وما أبداه وأخفاه من خير أو شر ، ثم يلقى الجزاء وفاقاً على ما كان يصنع « كل نفس بما كسبت رهينة » فالعمل وحده مقياس الثواب والعقاب ، فمن أحسن فله الحسنى وزيادة ومن أساء فجزاء سيئة بمثلها ، ولا سيئة مع السهو والخطأ ولا مع الاضطرار والالجاء ، ومن تعمد فباب التوبة مفتوح من دخله كان آمناً .

ومما جاء في الحديث ان الانسان يسأل غداً عن عمره فيمَ أفناه ، وعن جسده فيمَ أبلاه ، وعن ماله مما اكتسبه وفيمَ أنفقه . وفي حديث آخر يقال له : هل علمت ؟ فان قال نعم . قيل له هلا عملت ؟ وان قال لا قيل له هلا تعلمت حتى تعمل ؟ فمقياس الفضيلة والرذيلة ؛ والقرب من الله والبعد عنه هو الاعمال وحدها ، لا الصور والاشكال ، ولا الاحساب والأنساب ، ولا الجاه والمال ، ومن اعتمد على شيء منها فقد غفل عما يراد منه « أحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون » .

ومن طريف ما قرأت عن ديانة زرادشت ان عمل الانسان ان كان حسناً أتاه غداً في صورة فتاة جميلة يسر بحسنها ، ويتمتع بجمالها متى

يشاء وكيف شاء ، وان كان عمله سيئاً أتاه في صورة عجوز شمطاء مفزعة لا تفارقه لحظة ، ولا يستطيع التهرب منها بحال . أجارنا الله واياكم .

واذا اعتقد الانسان انه لا يترك مهملاً من غير تكليف يسأل عنه ، ويؤخذ به ، تورع عن محارم الله ، وتردد طويلاً قبل أن يقدم، وتحفّظ ما استطاع .

ومن أغرب ما قرأت أن كاتباً فرنسياً يدعى « بيار جوايو » زعم أن الناس خلقوا للخداع والسرقة ، والقتل والاغتصاب ، وانه وضع كتاباً شرح فيه فلسفته هذه وأصدره سنة ١٩٥٣ ، وأسماه « لم يكن شيء وهذا كل شيء » !.

وماذا يبقى من الخير اذا انتشرت هذه الفلسفة ، أو الفلسفات الأخرى التي لا تعترف بالبعث والنشر ؟!

أجل ، ان هناك أناساً لا يعترفون بعالم الغيب ، ومع ذلك تراهم على كثير من الخير ، وربما أكثر من الذين يؤمنون – كما قدمنا – وكثيراً ما تغرس التربية الشعور بالمسؤولية في نفوس الكبار والصغار ، وتحملهم على احترام القانون حتى ولو لم يكن من رقيب وحسيب .

أجل ، نحن لا ننكر هذا ، ولكن الاحساس بوجود قوة عالمة عادلة دونها كل قوة لا بد أن يترك أثراً ملموساً لا يتركه الضمير والأخلاق. ان الضمير يؤنب ولا يعذب ، ويعاتب ولا يعاقب ، وليس كل الناس علي بن أبي طالب عبد الحق لذات الحق : ولا يتنكر له مهما تكن النتائج ، بل أكثرهم يبكون ذنوبهم ولا يكترثون لها، ومنهم من يستمرىء الجرائم ، ويكررها بنشوة وقسوة ، ويتبجح قائلاً دون خجل : « الدنيا فريسة الشاطر » ، ومنهم من يفعل الخطيئة ، ثم يقذف بها الأبرياء ، ويتهمهم زوراً وبهتاناً ، ومنهم من تبلغ به الحال ان يعاقب الطيبين

الأخيار على ذنب هو صاحبه وفاعله .

وبالتالي ، فان الدين وحده العاصم ، ولا سلطان فوق سلطانه ، أما الضمير فهو أشبه بالناصح الذي لا يملك نفعاً ولا ضراً ، وكثيراً ما يغلب على أمره ، فيكف ويعتزل .

ثم اذا كان الضمير وازعاً من الداخل ، والسجن أو المشنقة وازعاً من الخارج فان الايمان بالله واليوم الآخر يجمع بين الاثنين بحيث لا يستطيع المؤمن التهرب منهما بحال ، ويبقى شاعراً بالمسؤولية ، خائفاً من عقاب الله وعذابه ، حتى ولو اختفى بجريمته عن أعين الناس ، وأمن ملامتهم ، وعقوبة الحكام ، اذ لا مفر له من حكم الله وسلطانه، واليك هذا الشاهد :

روي أن رجلاً تكررت منه المعاصي وكلما حاول التوبة والاقلاع عنها غلبته نفسه ، فأتى الحسين بن علي وقال له :

يا بن رسول الله اني مسرف على نفسي ، فاعرض عليّ ما يكون لها زاجراً أو مستنقذاً .

قال الحسين : ان قبلت مني خمس خصال فقدرت عليها لم تضرك المعصية .

فابتهج الرجل وقال : جاء الفرج .

قال الحسين : اذا أردت أن تعصي الله عز وجل فلا تأكل رزقه .

قال الرجل : كيف ؟ اذن من أين آكل ، وكل ما في الأرض من رزقه .

قال الحسين : أفيحسن بك أن تأكل رزقه ، وتعصيه ؟

قال الرجل : لا بأس ، هات الثانية ؛ فربما كانت فرجاً ومخرجاً .

قال الحسين : اذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئاً من بلاده .

قال الرجل : يا سبحان الله ، هذه أعظم من تلك ، فأين أسكن ، وله المشرق والمغرب وما بينهما .

قال : يا هذا ، أيليق بك أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه؟!

قال : لا حول ولا قوة الا بالله ، هات الثالثة ، فربما كانت أهون الثلاث .

قال : اذا أردت أن تعصيه فانظر موضعاً لا يراك فيه،وهناك افعل ما شئت .

قال : ماذا تقول ؟! ولا تخفى على الله خافية .

قال : أتأكل رزقه ، وتسكن بلاده ، ثم تعصيه ، وهو بمرأى منك ومسمع ؟!

قال : هات الرابعة ، والى الله المشتكى .

قال : اذا جاءك ملك الموت ، ليقبض روحك ، فقل له أخرّني حتى أتوب .

قال : لا يقبل مني . فقال له : أكرهه على القبول .

قال الرجل : كيف ولا أملك لنفسي معه شيئاً ؟

قال : اذا كنت لا تقدر ان تدفعه عنك فتب قبل أن يفوت الاوان.

قال الرجل : على أي حال بقيت الخامسة . فهاتها .

قال : اذا جاء الزبانية يوم القيامة ليأخذوك الى الجحيم فلا تذهب معهم .

فقال الرجل : حسبي حسبي . أستغفر الله وأتوب اليه ، ولن يراني بعد اليوم فيما يكره .

وهكذا تزجر المواعظ عن الرذائل من أحيا الله قلبه بهيبته وجلاله، والخوف من غضبه وسطوته .

وقبل ان نترك هذا الفصل لا بد من الاشارة الى أن الدين لم يفرض

علينا الايمان باليوم الآخر كوسيلة ولا ترغيباً في عمل الخيرات ، وانما أوجبه كغاية في نفسه ، لأنه حقيقة ثابتة لها وجود واقعي ، فالإيمان به ايمان وتسليم بالأمر الواقع ، أما الوقوف عند الحدود فهو فرع لهذا الأصل ، وثمرة من ثمراته . « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربني لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين – سبأ ٣ » .

دليل الاخر

تنقسم أفكارنا من حيث أصلها الى نوعين : أفكار فطرية لا يحتاج اثباتها الى الأدلة والبراهين ، كالشعور بأن الاثنين أكثر من الواحد ، والبصر خير من العمى ، وما الى ذاك من البديهات التي تثبت نفسها بنفسها .

وأخرى مكتسبة لا نتوصل الى معرفتها مباشرة ، بل لا بد من النظر ، وعملية الاستدلال ، واستخراج المجهول من المعلوم — مثلاً — اذا جهلنا مقدار حرارة المريض أو تبدلاتها ، فلا نعرفها بالفطرة ، بل بواسطة ميزان الحرارة ، ومشاهدة ارتفاع الزئبق .

وقد اتفقت كلمة العلماء على العمل بالأفكار الفطرية التي لا يحتمل فيها الكذب والخطأ ، لأن مصدرها اما الرؤية الواضحة ، واما الغريزة التي جبلت فينا ، وأصبحت جزءاً من عقولنا . والعلماء لا يتكلمون عن هذه الأفكار ، كغاية مستقلة بنفسها ، بل كوسيلة ومقدمة يتألف منها الدليل والقياس ، أما الأفكار المكتسبة فتدخل في صلب العلوم ، وقد أولاها العلماء اهتماماً بالغاً ، واعتبروها الغاية القصوى والمثل الأعلى لبحوثهم وجهودهم .

ولكنهم اختلفوا في نوع الدليل الذي يعصم الأفكار المكتسبة منه عن الخطأ ، ويجعلها مطابقة للواقع : هل هو الحواس كالسمع والبصر أو العقل ، أو التجربة والمشاهدة[1] أو الدين ، أو الاتصال المباشر كما يزعم المتصوفة[2] ، أو لا يمكن الحصول على المعرفة بحال ، كما يقول السفسطائيون الشاكون في كل شيء حتى في انهم شاكون . وقد ذكرنا هذه الأقوال في البحث الأول « الله والعقل » بعنوان « سبب المعرفة » وأشرنا الى ما هو الحق . القصد من هذه الاشارة معرفة الطريق الذي ينتهي بنا الى الايمان بالمعاد هل هو العقل أو الوحي ؟ هل هو البراهين العقلية ، أو الكتب السماوية ؟ هذا مع العلم بأن المعاد لا يمكن فيه التجربة والمشاهدة .

وقد ذهب كثير من الفلاسفة ، وعلماء الأديان والملل الى ان العقل وحده هو السبيل الى معرفة المعاد ، وانه يحكم بوجوده مستقلاً عن كل شيء ، كما يحكم بوجود الله . وقال آخرون : ان مسألة المعاد لا تمت الى العقل بصلة مباشرة ، لا يحكم به سلباً ولا ايجاباً . أجل ، انه يرى امكان الاعادة بعد الموت ، وعدم استحالتها ، وعليه يكون الأمر بيد الله ، فان شاء أعاد وان شاء أبقى ما كان على ما كان ، وحيث أخبر القرآن الكريم وسائر الكتب السماوية أن المعاد كائن لا محالة ، وقد حكم

---

١ كانوا يفرقون بين التجربة والمشاهدة بأن المشاهدة تختصر على الملاحظة فقط كمراقبة النجوم والنظر إلى الاجرام السماوية ، أما التجربة فلا بد فيها من التحليل والتركيب والعملية الدقيقة ، وبعد الاقمار الصناعية تحول علم الفلك من علم المشاهدة إلى العلم التجريبي .

٢ قال المتصوفة : إذا تجردت النفس من عوارض الشهوات حصل لها الكشف الروحاني ، والقي العلم فيها القاء دون أية واسطة من الحواس أو التجربة والعقل . وبديهة ان هذه الطريقة ليست من العلم في شيء ، والا بطل النظر والتفكير ، وكانت الكليات والجامعات والمصانع والمختبرات كلها عبثاً في عبث !..

العقل بامكانه ، فيكون والحال هذه ، حقيقة ثابتة يجب التصديق بها على وفق الشرع .

ونحن نعتمد هذا الطريق ، لاثبات المعاد ، لأنه أيسر الطرق وأقربها الى الافهام ، ولأنه يجمع بين حكم العقل بالإمكان وعدم الامتناع ، وبين حكم الوحي بالوقوع والثبوت .

أما حكم العقل بالامكان فلأن اعادة الانسان بعد الموت تماثل خلقه وايجاده في هذه الدنيا بعد أن كان عدماً . والعقل لا يفرق بين المتساويين ، ويجعل وجود أحدهما دليلاً على امكان وجود المساوي الآخر – مثلاً – اذا استطاع نجار أن يصنع باباً لهذا البيت فبامكانه أيضاً أن يصنع مثله أو دونه لبيت آخر .

والانسان لم يكن شيئاً مذكوراً ، فأوجده الله من تراب [1] ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم جعلها عظاماً ثم كسا العظام لحماً ، وأقرها في الارحام محاطة بثلاثة أغشية [2] لا ينفذ اليها الماء والنور ولا الهواء ، ثم أخرجها طفلاً ليبلغ أشده ، وجعل له أعضاء مختلفة الصور والقوام حتى أصبح في أحسن تقويم ، ثم وهبه النطق والعقل قاهر الطبيعة ، وصانع المعجزات ورائد المسافرين الى الكواكب . ومن أخرج هذا الانسان من العدم الى الوجود فهو قادر بلا ريب على أن يعيده ثانية قياساً للاستئناف على الابتداء لأنهما متساويان بل البدء أعظم وأخطر ومن استطاع أن يبني قصراً فأولى به وأجدر أن يبني كوخاً : « قل

---

١ أثبت العلم الحديث ان الإنسان يحتوي من العناصر ما تحتويه الأرض .

٢ جاء في الآية ٦ من سورة الزمر « يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث » وفسر القدامى الظلمات الثلاث بظلمة البطن والرحم والمشيمة . وأثبت العلم الحديث ان الجنين في بطن أمه يحاط بثلاثة أغشية تقيه الماء والضوء والهواء وتعرف هذه الأغشية باسم المنارية ، والامنيونية ، والخرنوبية .

من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » .

أما الوحي فقد اتفقت الشرائع والأديان حتى الصابئة على وجود الحياة بعد الموت ، وان اختلفوا في صفة الوجود ، فذهب جمهور المتكلمين وعامة الفقهاء وأهل الحديث الى انه جسماني فقط ، وقال الفلاسفة : انه روحاني فقط ، وذهب الغزالي والكعبي والراغب الاصفهاني ، وكثير من علماء الامامية منهم الشيخ المفيد والمرتضى والشيخ الطوسي وغيرهم – ذهبوا الى القول بالمعاد الجسماني والروحاني معاً ، ثم اختلف القائلون بالمعاد الجسماني ، فنهم من قال يعاد هذا البدن بعينه ، ومنهم من قال يعاد بمثله لا بعينه [١] .

وليس من غرضنا تحقيق هذه الأقوال ، وبيان المختار وانما المهم لدينا أصل الفكرة ، وعودة الانسان كيف اتفق الى حياة ثانية يحاسب فيها ، ويجزى بأعماله ، ان خيراً فخير ، وان شراً فشر ، وهي أي العودة – محل وفاق عند الجميع ، لأنها ممكنة عقلاً ، وواقعة حتماً بنص القرآن وسائر الكتب السماوية .

أما وجوب الأخذ بالقرآن ، والتصديق بخبر النبوة فقد اثبتناه في مبحثنا الثاني « النبوة والعقل » ، فمن اعترف بالوحي يجب عليه التصديق بالآخرة بعد ان أخبر الصادق الأمين بوقوعها ، كما يجب تصديق الطبيب العارف اذا أخبر بوجود الداء ونوع الدواء . ومن أنكر الآخرة بعد اعترافه بالوحي والنبوة كان كمن يعترف بأن في البيت رجلين وامرأتين ، وينكر أن المجموع ٤ ، وبكلمة ثانية أنه لا يمكن بحال الجمع بين الاعتراف بالوحي والنبوة وانكار الآخرة ، لأن انكارها انكار للوحي بالذات .

---

١ كتاب المبدأ والمعاد لصدر الدين الشيرازي ، المعروف بالملا صدرا المقالة الثالثة من الفن الثاني .

أما من ينكر وجود الخالق فليس من الحكمة أن نحاول اقناعه بالآخرة، وانما نحيله على البحث الأول « الله والعقل » .

قدمنا فيما سبق أننا نعتمد لإثبات الآخرة على حكم العقل بالامكان ، واخبار الوحي بالوقوع ، واثبتنا كلا الأمرين ، وزيادة في الاطمئنان نورد في ما يلي بعض الشواهد التي تعزز وتؤكد أخبار السماء ، وتنفي عنها كل شك ريب .

١ — ان الله سبحانه أمر الانسان بالفضائل ، ونهاه عن الرذائل ، ووعد الطائع بالثواب ، وتوعّد العاصي بالعقاب . وقد رأينا كثيرين يطغون ويبغون على الضعفاء ، ويفسدون في الأرض ويسفكون الدماء ، ثم يموتون دون أن يصيبهم أي أذى ، فلو لم يكن حساب وعقاب ولا يوم يقتص فيه للمظلوم من الظالم لذهب كل حق هدراً ، وكان التكليف عبثاً ، ولم يكن أي فرق بين الأنبياء والصلحاء وبين الأشرار والفجار، بل كان الطيبون أسوأ حالاً ، وأشقى مآلا ، لأن أولئك سعدوا وتنعموا في هذه الحياة ، وتحمل هؤلاء من أرزائها الكوارث والمحن . وعليه يكون النعيم والثواب للخبيثين الاشرار ، والعقاب للطيبين الأبرار ، وهذا افحش الظلم تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قال أفلاطون لو لم يكن لنا معاد نرجو فيه الخيرات لكانت الدنيا فرصة الأشرار وكان القرد أفضل من الانسان .

٢ — لقد أودع الله في نفس الانسان من القوى والمشاعر ما تسير به في طريق التقدم والتطور حتى يبلغ درجة ليس فوقها الا الخالق ، أما الحيوانات والحشرات فانها تسير به في سبيل واحدة لا تحيد عنها قيد شعرة ، ولو ذهبت مشاعر الانسان ومداركه بذهاب الجسم ، ولم ينتقل الى حياة أخرى لكان مصيره كمصير النبات والحشرات وكان ما أودع في طبيعته من العقل والادراك نافلة لا طائل تحتها ، تعالت حكمة الله

وعظمته . ولا نشك أن من نفى وجود العالم الثاني قد رضي لنفسه ان يكون في حكم الحشرات .

٣ ـ ان الانسان لم يكن انساناً ببدنه وهيكله ، بل بنفسه وعقله ، فاذا قال : « أنا . وأنت . وهو » فانه لا يشير بهذه الألفاظ الى البدن المركب من الرأس واليدين والرجلين ، وانما يشير الى معنى عظيم الشأن، يحرك الجسم ويدبره ، ويختلف عنه بحقيقته وصفاته أشـــد الاختلاف ، وهو المعنى الشريف الجليل الذي نعبر عنه بلفظ النفس أو الفكر .

العالم حادث

هذا الكون العجيب بأرضه وسمائه يقال له العالم . وقد اختلف الناس هل هو حادث ، أي لم يكن فكان ، أو قديم لا أول له ولا آخر ؟

ذهب المسلمون والنصارى واليهود والمجوس الى انه حادث . وقال آخرون بأنه قديم . وهذه المسألة من أجلّ المسائل وأهمها، وعليها ترتكز قواعد الأديان كلها ، حيث اتفقت كلمتها على ان القديم واحد لا غير ، وهو الله سبحانه ، وانه وجد في الأزل ، ولم يوجد معه شيء ، وانه خلق الكون من العدم ، وأبدعه حسب مشيئته وارادته . واذا قلنا بقدم العالم يلزم اللوازم الباطلة الآتية :

١ — ان لا يحتاج العالم الى موجد لأنه لا بداية له ولا نهاية [١] .

٢ — ان يكون القديم أكثر من واحد ، وانه كان الله وكان معه قديم آخر .

---

١ حاول بعض الفلاسفة أن يوفق بين القول بقدم العالم ، وايجاد الله له ، فقال : ان للقديم معنيين الأول القديم بالذات ، وهو ما كانت ذاته علة لوجوده . وهذا يصدق على الله وحده ، والثاني القديم بالزمان ، وهو الذي لا أول له، غير أنه مقارن لقوة توجده، وهو العالم، وعليه يكون العالم قديماً زماناً ، ممكناً ذاتاً ، لأن الله أوجده . وإذا دفع هذا القول أشكال عدم الخلق فانه لا يدفع بقية اللوازم الباطلة ، كتعدد القديم وكون الله مغلوباً على أمره .

٣ – ان يكون الله مغلوباً على أمره ، لأن الكون وجد في الأزل قهراً بحيث لا يستطيع أن يحدثه في زمان متأخر .

٤ – ان يكون الله غير قادر على افناء هذا العالم ، والاتيان بعالم آخر يحشر الناس فيه للحساب ، لأن هذا العالم لم ينتقل من العدم الى الوجود فكذلك لا ينتقل من الوجود الى العدم ، ولأنه ثابت لا يتبدل، كما هو شأن القديم .

ومن أجل ذلك قال العقلاء وأهل الأديان : ان العالم حادث ، وان الله كان وحده ولم يشاركه شيء في القديم والأزل .

وقد استدل متكلمو المسلمين على حدوث العالم بأدلة أشهرها الدليل التالي :

وهو ان الجسم لا يخلو من الحوادث،وكل ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث . واليك شرح هذا الدليل :

ان من جملة الحوادث التي لا ينفك عنها الجسم السكون والحركة ، لأن كل جسم لا محالة اما أن يكون ساكناً ، واما ان يكون متحركاً ، ومعنى سكون الجسم مكوثه في مكـــان واحد أكثر من زمان واحد . ومعنى حركته انتقاله من مكان الى مكان . والسكون والحركة من الأمور الحادثة ، لأن كلاً منها يزول ويتبدل ، فالمتحرك قد يسكن، والساكن قد يتحرك ، والقديم هو الثابت بطبعه على طريقة واحدة لا يتغير ولا يتبدل ، ثم ان الحركة مسبوقة بحركة قبلها ، وكذلك المكوث في المكان الواحد مسبوق بمكوث قبله ، أي ان المكوث في اللحظة الثانية مسبوق بالمكوث في اللحظة الأولى ، وكل ما سبق بالغير فهو حادث .

وأذا كان السكون والحركة حادثين ، والجسم لا يخلو عنهما لزم ان يكون الجسم محلاً للحوادث ، واذا كان محلاً للحوادث فلا بد ان يكون حادثاً ، ولو افترضنا انه غير حادث لكان معنى هذا انه وجد في الأزل

قبل الحركة والسكون ، وان الجسم قد مضى عليه أمد لم يكن ساكناً فيه ولا متحركاً ، وهو محال ، وعليه تكون الأجسام حادثة .

وسلك فيلسوف العرب الكندي طريقاً آخر لاثبات حدوث العالم ، قال : كل جسم موجود بالفعل أو سيوجد فهو متناه ، ويستحيل أن يكون سرمدياً وباقياً الى الأبد . واستدل بالدليل المعروف عند الفلاسفة ببرهان التطبيق الذي اعتمدوا عليه لبطلان التسلسل وعدم التناهي في الزمان الماضي ،فاتخذ الكندي منه دليلاً على التناهي في المستقبل أيضاً،ويتلخص: في اننا لو فصلنا جزءاً محدوداً من الجسم المفروض انه لا نهاية له ، فالباقي من هذا الجسم ان كان متناهياً فهو المطلوب ، وان فرض انه غير متناه ، وانه بقي كذلك غير متناه أيضاً بعد ان زدنا عليه ما أخذنا منه أولاً ، ولكن هذا الجسم بعد الزيادة أكبر منه قبلها ، فاذا كان في كلا الحالين غير متناه تكون النتيجة الحتمية ان اللامتناهي أكبر من اللامتناهي ، وان الكل بمقدار الجزء ، وهو محال . اذن فلا بد أن يكون الجسم متناهياً في المستقبل ، ويكون أيضاً متناهياً في الماضي ، وهو معنى الحدوث .

واذا اثبت ان العالم حادث ، وانه وجد بقدرة الله المبدعة المطلقة ، فيكون بقاؤه متوقفاً على ارادته أيضاً ، ان شاء أبقى ، وان شاء أفنى .

وقد يتساءل : كيف توجد أشياء من لا شيء ؟

ونجيب بالتساؤل : من أين جاء ذلك الشيء الذي هو مصدر الأشياء؟ فان وجد من شيء آخر أعدنا التساؤل الى ما لا نهاية ، ولا حل أبداً الا أمر الله اذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون .

فالارادة الإلهية هي التي تبدع الكون ، وتوجده بعد ان لم يكن شيئاً، وهي التي تفنيه فيصبح لا شيء ، والعلم الحديث لا يتصادم مع هذا بخاصة بعد أن اثبت ان المادة تتحول الى طاقة . والطاقة الى مادة ، وأنه لا حلول نهائية ، ولا حقائق مطلقة في « علم الطبيعة الذي تكون

على يد كبار علماء النسبية في القرن العشرين ، وهم الذين تتسع فلسفتهم ونظرتهم الى هـذا العالم المادي للقول بالخلق والفناء ، كما تتسع للقول بنوع من المعرفة بهذا العالم غير المعرفة المأخوذة من العلم الطبيعي »[1] .

وبالتالي ، فنحن نتحدى الفلاسفة والعلماء في هذا القرن وفي كل قرن أن يحلوا معضلة الكون حلاً سليماً دون أن يرجعوا الى قدرة الله وارادته ، فان فعلوا ، ولن يفعلوا ، فنحن أول من يسلم ويستسلم . وبالتالي ، فان كل ما نحسه ونشاهده من أنفسنا ومن عوارض الكون فهو حادث ومتجدد ، فمن الكبر الى الصغر ، ومن الشروق الى الغروب ، ومن الجذب الى الاقبال ، ومن الصحو الى غيره ، وهكذا حتى الحجر الأصم في تغير دائم ، كما تقتضيه النظرية الحديثة ، والفلسفة الدياليكتيكية ، وتغير هذه الأشياء معناه حدوثها وتجددها ، وإذا كانت حادثة فالنتيجة المنطقية ان الكون الـذي يتألف منها حادث أيضاً ، لأن وجود الكلي عين وجود أفراده ، وليس له وجود مستقل عنها .

والحمد لله الأول بلا أول يكون قبله ، والآخر بلا آخر يكون بعده .

---

١ أبو ريده « رسائل الكندي الفلسفية » ص ٧٥ طبعة ١٩٥٠ .

الاخرة والعلم الحديث

من مظاهر الرقي والحضارة عند نفر من الشباب ان يطلقوا في سخرية كلمة « ميتافيزيقي » على كل من يتدين ، ويتكلم باسم الدين ، فهـو بزعمهم مثالي بعيد عن الواقع ، وهم واقعيون لأنهم ينكرون الأديان .

وإذا كان أصحاب الدين غيبيين ميتافيزيقيين ، لأنهم آمنوا بالله دون ان يجربوا ويشاهدوا فالذين جحدوا أيضاً غيبيون ميتافيزيقيون ، لأنهم أنكروا من غير علم ولا مشاهدة، فما سمعنا ان أحداً منهم أو من غيرهم قام برحلة الى ما وراء الطبيعة ، ثم عاد وأخبر انه لم يجد شيئاً هناك.. اذن المؤمن والجاحد سواء في عدم التجربة والمشاهدة ، فكيف يقال عن أحدهما واقعي ، والآخر مثالي ؟!

وبتعبير ثاني ان كان الإيمان بالله لا يصدق إلا اذا اكتشفنا وجود الخالق بالآلات كما نكتشف درجة الحرارة بميزان الحرارة ، فان كلاً من الجاحد والمؤمن لم يستعمل الآلات والمختبرات ، فكيف نُسب ذاك الى الوعي ، وهذا الى الجهل ؟!

ثم اذا كان كل من يعتمد العقل والاستنتاج ميتافيزيقياً فجميع الناس، اذن ، ميتافيزيقيون دون استثناء !. فمن قال : كل شيء في الـوجود

مادة فقط ، أو روح فقط ، أو هما معاً فقد قال قولاً ميتافيزيقياً . وكذا من قال : المعرفة لا تحصل الا من الحواس وحدها ، أو من العقل وحده ، أو منهما متعاونان ، أو قال : الأمور كلها نسبية ولا حقائق مطلقة ، أو قال : الكون قديم أو حديث ، وان أصله ذرات أو غازات ، وأصل الانسان قرد أو طحلب ، وان الأرض قطعة من الشمس ، والمادة في حركة دائمة ، وان هذا خير أو شر ، وذاك جميل أو قبيح ، وما الى ذلك من الأحكام العامة فهو غيبي ميتافيزيقي ، لأنه لم يجرب ويشاهد بل العلماء الذين جربوا وشاهدوا ميتافيزيقيون أيضاً ، اذ لا غنى لهم عن العقل والادراك الذي لا ينفك عن الذات بحال ، فالمعرفة أياً كان سببها فانها ترد صاحبها الى ذاته . ولذا قيل: لا يوجد أشياء ذاتية خالصة مئة بالمئة ، ولا موضوعية مطلقة مئة بالمئة، وإنما تتكيف الذات بحسب الموضوع ، ويتكيف الحكم على الموضوع بحسب الذات . وعلى هذا تكون الميتافيزيقا على أنواع لا نوع واحد ، فمن الخطأ ان تحصرها بما وراء الطبيعة فقط . لأن كل فكرة لا تقوم على التجربة والمشاهدة فهي غيبية ميتافيزيقية ، سواء أكان مصدرها العقل أو الوحي أو أي سبب آخر .

ان سبيل الحقيقة لا ينحصر بالتجربة والمشاهدة ، ولا سبيل الخرافة بالغيب والميتافيزيقا ، وانما معيار الحقيقة ومدارها ان تكون ثابتة في نفسها ومطابقة للواقع ، وللحقائق الغيبية واقع خارجي ، تماماً كالحقائق الطبيعية .

وقال قائل : كيف يكون الغيب حقيقة مع بعده عن عالم المشهادة الذي نعيش فيه ؟! ان لفظة غيب بنفسها تشعر بالعدم المحض الذي لا يصح وصفه بالكذب ولا بالصدق ، لأن ما يوصف بالكذب ينبغي ان يكون قابلاً للاتصاف بالصدق — مثلاً — اذا قال لك قائل : في الصندوق أربع برتقالات ، فبامكانك أن تتحقق من هذا الزعم بالنظر

في داخل الصندوق ، فان وجدت فيه البرتقالات الأربع فهو صادق والا فهو كاذب ، أما الذي لا تمكن فيه عملية التجربة والمشاهدة فهو أسوأ حالاً من الكذب ، لأنه كلام فارغ لا معنى له ولا مدلول[1] .

ونحن نسأل هذا « القائل » على أي شيء استندت في قولك هذا ؟ هل جربت رأيك وحللته في المعامل والمختبرات قبل ان تنطق بـه ؟! وأيضاً لقد اعترفت في صفحة ١٩٠ ان للانسان جسماً وروحاً ، فمن أين جاءك العلم بهذا ؟! هل لمست الروح بيديك،أو شاهدتها بعينيك ؟!

قال « دارون » صاحب نظريـة النشوء والارتقاء : « يستحيل على العقل الرشيد ان تمر به ذرة من شك في ان العالم الفسيح بمـا فيه من الآيات البالغة ، والأنفس الناطقة المفكرة قد صدر عن مصادفة عمياء ، لأن المصادفة لا تخلق نظاماً ، ولا تبدع حكماً ، وذلك عندي أكـبر دليل على وجود الله » .

ولكنه عند الكاتب أكبر دليل على عدم الوجود ، لأنه لا يمكن ان يتحقق منه بالتجربة كما يتحقق من وجود البرتقالات في الصندوق !

ومرة ثانية نقول : ليست التجربة هي السبيل الوحيد لمعرفـة الحقيقة فان في الغيب حقائق لا تدخل في حساب ، وليس بينها وبين الحقائق الطبيعية أي تناقض أو تضاد ، بل هما متآزرتان تدعم احداهما الأخرى . فقد جاء في الحديث ان الدين والحياء يتبعان العقـل حيث كان ، كما قدمت العلوم الجديدة كثيراً من الشواهد على ان ما جاء في الاسلام عن الألوهية والوحي والبعث هي حقائق لا ريب فيها ، وقـد قدمنا طرفاً منها في الكتاب الأول الذي خصصناه للألوهية ، وفي الكتاب الثانـي الموضوع للوحي . وننقل فيما يلي بعض الشواهد والأرقام العلميـة التي تتصل بالآخرة .

---

[1] قشور ولباب لزكي نجيب محمود ص ٢٠٧ طبعة ١٩٥٧ .

بقاء الروح :

أثبتت التجارب العلمية التي جرت في أمريكا وانكلترا وفرنسا ان الانسان مركب من جسم وروح ، وانشىء في الجامعات فرع للبحوث الروحية تخصص بها العلماء حتى أصبحت علماً مستقلاً معترفاً به كسائر العلوم ، وابتدأت الدراسة الروحية في أمريكا سنة ١٩٣٧ ،وفي اكسفورد بانكلترا سنة ١٩٤٣ ، ثم تتابعت هذه الدراسات في بون ومونيخ وبرلين وقدم الدكتور هتنجر دراسة روحية عميقة لنيل الدكتوراه في جامعة كمبردج عنوانها « القوة فوق المدركة » . وأثبت العلم الحديث في معامل الجامعات ان الروح بعد ان تغادر الجسد لها كيانها الأثيري . أما المؤلفات التي وضعت لهذه ، الغاية فكثيرة ، وكلها تجمع على ان الروح باقية ، وأن الحياة متواصلة بعد الموت وصدق الله العظيم : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية ... ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

يوم الآخرة كألف سنة :

جاء في الآية ٥ من سورة السجدة « يدبّر الأمر من السماء ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » وفي الآية ٤ من سورة المعارج « تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » .

والآيتان متنافيتان بحسب للظاهر ، لأن الأولى قدرت يوم الآخرة بألف ، والثانية بخمسين الف ، ولكن هناك سر علمي يدفع هذا التنافي، اذ قرر التاريخ الجيولوجي والفلكي ان الأرض بعد انفصالها عن الشمس كانت تدور حول نفسها بسرعة أكبر مما هي عليه الآن، فكانت دورتها

تتم مرة كل أربع ساعات ، أي ان مجموع الليل والنهار كان أربع ساعات فقط ، وبتوالي النقص في سرعة دورانها حول نفسها ، زادت المدة التي تتم فيها دورانها هذا ، فزادت مدة الليل والنهار الى خمس ساعات ثم ست حتى وصلت الى أربع وعشرين ساعة التي هي عليها الآن . وهكذا يتوالى النقص ويطّرد طول الليل والنهار ، ويأتي يوم مقداره ألف ، وآخر خمسون ألفاً الى ان يصبح الوجه المقابل للشمس نهاراً دائماً والوجه الخلفي ليلاً دائماً .

هذا ، وان الحياة الثانية لا تقوم على هذا الكوكب الذي نعيش فيه ، بل تبدل السماء غير السماء ، والأرض غير الأرض . وبديهة ان اليوم يختلف طولاً وقصراً باختلاف الكواكب ، فيوم القمر وليلته ٢٧ يوماً من ايامنا[١] والله أعلم بأيام الكواكب الأخرى .

انشقاق القمر :

قال الله تعالى في سورة القمر : « اقتربت الساعة وانشق القمر » ويقول العالم الفلكي سير جيمس جينز في كتاب « النجوم في مسالكها » : « سوف يقترب القمر من الأرض شيئاً فشيئاً حتى يصير في النهاية قريباً منها قرباً يحول بين القمر والسلامة ، وحينئذ ينفذ فيه القضاء ، ويتفتت ويتمزق » .

وليس من شك ان انشقاق القمر وسقوطه يكون ايذاناً باختلال الجاذبية بين الكواكب ، فتسوّى الشمس الى الأرض ، أو الى ما لا نعرفه ونتصوره ، ويكون ذلك من أدلة قيام الساعة .

وفي جريدة « الأهرام » تاريخ ٣١ — ١٠ — ١٩٥٩ انه بعد ان

---

١ جريدة الاهرام تاريخ ٣١-١٠-١٩٥٩ .

التقطت صورة الوجه الخلفي من القمر تكهن بعض العلماء بسقوطـه الى الأرض في المستقبل . وأذاعت الجهات العلمية في آخر عام ١٩٥٥ ان لجنة الطاقة الذرية قـد أعلنت ان الدكتور ايرنست لورنس توصل الى اكتشاف خطير ؛ هو وجود كهارب من جنس البروتون ، ولكنها سالبة، وانها تكون طبقة حول الأرض في طبقات الجو العليا ، وان وجود هذه الكهارب المغايرة للطبيعة أخطر ما يمكن أن يتصوره العقل البشري .

وعلى ذلك فلو تحطمت ذرة من ذرات عنصر هام يدخل في تركيب كثير من المواد بدلاً من اليورانيوم خطأً أو قصداً فسينتج عن ذلك غاز مشتعل ملتهب ، وتصبح ميـاه البحار والمحيطات والأنهار ناراً متأججة بأقل من لمح البصر . وقد نطق القرآن الكريم بذلك « والبحر المسجور ان عذاب ربك لواقع » وفي آية ثانية « واذا البحار سجرت» وفي ثالثة « واذا البحار فجرت » وفي رابعة « اذا السماء انشقت . واذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت . والقت ما فيها وتخلت » . وقـد أثبت العلم كل هذه الصور ، وان التدمير سيكون في داخل الذرات في الأرض والسماوات [1] .

هذه بعض الشواهد العلمية التي تلقي ضوءاً على وجود الآخرة، وتثبت انها نفس الحقيقة التي نطق بهـا الوحي قبل مئات السنين . وليس من شك اننا سنظفر بالمزيد من هذه الأرقام كلما تقدم العلم .

لقد اهتم القرآن الكريم بقضية الدار الآخرة ، ليفهم كل انسان انه لن يترك سدى ، وانه مسؤول ومحاسب على كل كبيرة وصغيرة ، وان كل شيء يفنى إلا وجهه الكريم اهتم القرآن بهذا كي يتخذ كل واحد منا اتجاهاً مستقيماً في سعيه وسلوكه في هذه الحياة . أما علامات الساعة

---

١ نقلنا أقوال العلماء الغربيين في هذا الباب عن كتاب الله والعلم الحديث . والقرآن والعلم الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل . ومن قرأ هذين الكتابين يحمد الله والمؤلف على ما فتحا له من أبواب العلم بنفسه ومصيره .

فقد ذكرها القرآن الكريم للتنبيه والتذكير ، كما هو شأن الوعاظ والمنذرين فمن خطبة للامام علي في هذا الباب قوله :

« حتّى اذا بلغ الكتاب أجله ، والأمر مقاديره ، والحق آخر الخلق بأوله ، وجاء من أمر الله ما يريده من تجديد خلقه ، اماد السماء وفطرها ، وأرج الأرض وأرجفها ، وقلع الجبال ونسفها ، ودك بعضها بعضاً من هيبة جلالته ومخوف سطوته » .

أجارنا الله من غضبه وسطوته ، وشملنا بعفوه ورحمته .

التناسخ

اختلف الناس في حقيقة النفس ، وتعددت الأقوال حتى بلغت أربعة عشر قولاً [1] ، أسخفها القول بأن نفس الانسان هي الله بالذات ، وأضعفها أنها الماء والهواء أو النار أو هذه العناصر مجتمعة ، لأنه لا حياة مع فقد أحدها ، وأشهر الأقوال قولان : الأول أنها جوهر مجرد عن المادة وعوارضها ، أي ليست جسماً ، ولا حالة في جسم ، وانما تتصل به اتصال تدبير وتصرف ، وبالموت ينقطع الاتصال . وعلى هذا الرأي جمهور الفلاسفة ، والشيعة الامامية ، والغزالي من الأشاعرة .

القول الثاني انها جوهر مادي ، ذهب اليه جماعة المعتزلة وكثير من المتكلمين [2] . وقال الحنبلية والكرامية وكثير من أهل الحديث : كل ما ليس جسماً ، ولا يدرك باحدى الحواس فهو لا شيء [3] .

واستدل القائلون بنفي المادة عن النفس بأنها تدرك وتفكر ، والمادة لا تدرك ولا تفكر ، فتكون مغايرة لها .

---

١ المجلد الرابع عشر من بحار الانوار المعروف بالسماء والعالم .

٢ رسالة الباب المفتوح للشيخ علي بن يونس نقلها صاحب البحار في مجلد السماء والعالم .

٣ المبدأ والمعاد لصدر المتألهين الشيرازي .

وأجابهم القائلون بثبوث المادة للنفس ، بأن الجسم يحس ويدرك حرارة النار ، وبرودة الثلج ، وحلاوة العسل ، وألم الضرب ، وكذلك اذا قال القائل : أكلت ونمت وتزوجت وسافرت ، فان هذه وما اليها من خواص الجسم وعليه يكون الجسم مدركاً مثل النفس .

الجواب :

ان ادراك الحرارة والبرودة والألم من خواص النفس ،والجسم واسطة وآلة ، تماماً كأدوات البناء بالقياس الى الباني ، والا لو كان الادراك والاحساس للجسم وحده لكان كل جسم يحس ويدرك حتى الحجر .

أما عدم فناء النفس وبقاؤها بعد الموت فقد أطال الفلاسفة في اقامة البراهين العقلية عليه . والحقيقة ان فناء الجسم لا يستدعي فناء النفس ولا بقاءها ، وان العقل لا يحكم بذلك سلباً ولا ايجاباً ، بل يتركه الى الشرع. وقد أجمعت الأمة ، وتواترت السنة ، ونص القرآن الكريم على ان النفس باقية بعد فناء الجسم : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

وقد دانت طوائف من شعوب شتى ببقاء النفس بعد فناء الجسم ، وبتناسخها متنقلة من بدن الى بدن ، بحيث يكون بينها وبين الثاني من العلاقة ما كان بينها وبين الأول . ومن عقيدة أهل التناسخ ان النفس اذا كانت مطيعة لله تعالى ، ومن ذوات الأعمال الطيبة والأخلاق الطاهرة انتقلت بعد موتها الى ابدان السعداء وأهل الجاه والثراء ، واذا كانت عاصية شقية انتقلت الى أبدان الحيوانات ، وكلما كانت أكثر شقاوة اختير لها بدن أخس وأكثر تعباً .

وقال صدر المتألهين الشيرازي في كتاب « المبدأ والمعاد » اذا انتقلت النفس الانسانية الى بدن انسان سمي ذلك نسخاً ، واذا انتقلت الى بدن حيوان كان مسخاً ، واذا انتقلت الى النبات فهو الفسخ ، أو الى الجماد فهو الرسخ . ولا حساب عند أهل التناسخ ، بل تنتقل النفس في هذه

الحياة من كائن الى كائن ، وهكذا الى ما لا نهاية . وغير بعيد ان مخترع هذه الفكرة كان رحالاً من عشاق الأسفار . ومهما يكن فقد استدلوا على التناسخ بما يلي :

١ — ان النفس لو لم تنتقل بعد فساد الجسم الأول الى غيره لبقيت معطلة بلا عمل ، لأن البدن بمنزلة الآلات والأدوات للنفس ، وبدونه لا تستطيع القيام بأي عمل .

واجيبوا بأنه ثم ماذا ؟! وأي باطل يترتب على تركها للعمل ؟! وعلى افتراض انه لا بد لها من تدبير عمل فليس من الضروري أن يكون عملها بعد مفارقة البدن تماماً كعملها حين اتصالها به ، فربما كان من نوع آخر كالاشراق والابتهاج وما الى ذلك مما لا يستدعي وجود البدن .

٢ — ان النفوس هي عبارة عن كمية محدودة العدد ، لأنها موجودة بكاملها فعلاً وخارجاً لا تزيد ولا تنقص ، أما الأجسام فلا نهاية لها ، بل تتجدد وتتبدل على التوالي والتعاقب ، وبذلك تكون الأبدان أكثر عدداً من النفوس ، فاذا لم تنتقل النفس الواحدة بين أبدان عديدة لزم ان تبقى أبدان بلا نفوس ، لأن توزيع الأقل على الأكثر بالتساوي محال .

والجواب ان هذه دعوى بلا دليل ، وافتراض بدون أساس ، ومن الذي قام بعملية الاحصاء ، وثبت له بالتتبع والاستقراء أن النفوس أقل من الأجسام ؟!.

وعلى الرغم من أن أقوال أهل التناسخ كلها من هذا القبيل فقد استدل العقلاء على بطلان التناسخ بأمور :

١ — لو انتقلت النفس من البدن الأول الى الثاني للزم أن يتذكر الانسان شيئاً من أحوال البدن الأول ، لأن العلم والحفظ والتذكر من الصفات التي لا تختلف باختلاف الأبدان والأحوال ، مع اننا لا نعرف شيئاً عما كان قبل وجودنا الحالي .

٢ — لو تعلقت النفس بعد مفارقة هذا البدن ببدن آخر للزم أن

يكون عدد الوفيات بمقدار عدد المواليد دون زيادة أونقصان ، لأنه اذا زادت المواليد بقيت أبدان بلا نفوس ، وهو باطل عند أهل التناسخ ، لأنه يستلزم تعطيل النفوس ، واما تعطيل الأبدان ، فانهم يمنعـون من وجود المعطل في الطبيعة ، هذا بالاضافة الى أن المواليد لا تتساوى أبداً مع الوفيات ، فأيام الحرب والجوع والأمراض والطوفان والزلازل تزيد الوفيات ، وأيام السلم والرخاء تزيد المواليد .

٣ — ان النفس لا تتصل بالبدن إلا بعد أن يكون له الصلاحيـة والاستعداد التام لقبولها ، فالجماد والنبات والحيوانات غير صالحة لتقبـل النفس الانسانية ، وكذا بدن عمرو لا يصلح بحال لأن يتقبل نفس زيد ، لانه منذ تكوينه في بطن أمه تتصل به نفسه المختصة بـه ، ولا تنفك عنه بحال ، وإلا لزم تخلف المعلول عن علته ، وبعد ان تتصل به نفسه الخاصة لا يمكن ان تنتقل اليـه نفس أخرى ، اذ لا تجتمع نفسان في بدن واحد ، كما لا يشترك بدنان في نفس واحدة .

وبالتالي ، فلا أحد منا يشعر بأن له نفسين مختلفتين تتصرفان بشؤونه وبدنه ، وانما الذي يحسه ويشعر به أن له ذاتاً واحدة لا غير ، وانـه لا يعلم شيئاً عما كان قبل حياته هذه ، كما انه لا يجد ولن يجد شخصاً يماثله في جميع صفاته النفسية ، ومن هذا يتبين ان التناسخ وهم وهراء .

الله كريم

ان مبدأ النقص في الانسان – أي انسان غير معصوم – وعلى الأصح مبدأ أهلية الانسان وقابليته للنقص ، ان هذا المبـدأ لا ينقض بحال ، فالانسان أبداً ودائماً عرضة للخطأ في القول والعمل ما دام لا يعلم الغيب ، وما دامت أفكاره وبواعثه تتجمع من هنا وهناك ، وهو دائمـاً وأبداً عرضة للوقوع في الخطيئة ما دامت فيه غريزة الرضى والغضب ، وعاطفة الحب والبغض ، وشهوة الطعام والجنس .

ومن هنا كان كمال الانسان نسبياً ، فمن يشعر بأن أفكـاره وآراءه تصورات يحسبها هو انعكاساً عن الواقع ، وانهـا تخطىء وتصيب فهو كامل بالقياس الى من يراها عين الواقع .

ان العاقل اللبيب يبحث عن الحقيقة ، ويبذل قصارى جهده للوصول اليها ، فان رأى انه قد بلغها مضى على رأيه ، وعمل به حتى يتبين له خير منه . ومن قال : هذا رأي وكفى ، وهو الحق ولا شيء سواه فهو أبعد الناس عن المعرفة ، لأن أساس العلم أن يتهم الانسان نفسه . ويحتمل الخطأ في أفكاره ، كما يحتمل فيها الصواب .

وكذلك المؤمنون بالدار الآخرة يفعلون ما يؤمرون ، وهم يرجون رضى الله وثوابه ، لأنهم عملوا له باخلاص وفي نفس الوقت يخافون من

غضبه وعقابه خشية التقصير والتفريط ، وهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون، كما وصفهم الإمام علي بن أبي طالب .

وترى هذا الوصف مجسماً في أقوالهم وشعورهم ، وهم يناجون خالق الكائنات ، ويتضرعون اليه طلباً للعفو والمغفرة ، وانك لتحس ، وانت تقرأ تلك المناجاة انهم قد تجردوا عن الشهوات ، ومحوا من أنفسهم جميع الأهواء والغايات ، وقد تراني أيها القارىء مغالياً في قولي هذا ، لأنك ترى مع من يرى ان الانسان مهما سمى بأخلاقه فانه لا يرتقي الى ما فوق الظروف والبيئات ، ولكن بماذا تفسر هذه الذروة في كلام الإمام زين العابدين ، وهو يناجي ربه الكريم بقوله :

« إلهي لم أعصك حين عصيتك وأنا بربوبيتك جاحد ، ولا بأمرك مستخف ، ولا لعقوبتك متعرض ، ولا بوعيدك متهاون ، ولكن خطيئة عرضت ، وسولت لي نفسي ، وغلبني هواي ، وأعانني عليها شقوتي.. فالآن من عذابك من يستنقذني ؟! وبحبل من أتصل ، ان انت قطعت حبلك عني ؟! ولولا ما أرجو من كرمك وسعة رحمتك اياي عن القنوط لقنطت .. فهب لي من لدنك رحمة ، انك انت الوهاب . فبعزتك لو انتهرتني ما برحت من بابك ، ولا كففت عن تملقك ... الى من يذهب العبد الا إلى مولاه ؟! والى من يلتجىء المخلوق الا الى خالقه ؟! » .

ونتساءل : هل انتقل هذا الشعور إلى الإمام بالعدوى ، أو اكتسبه من البيئة ، وقد عاش في عصر الأمويين ، عصر الظلم والفساد . وقديماً قيل : الناس على دين ملوكهم ؟! كلا ، لا سبب لهذا اليقين إلا المعرفة بقدرة الله وعظمته ، وإلا النظر العميق يخترق الحجب والظواهر، ويدرك الحقائق التي تطمئن اليها النفس ، ويقرها العقل .

لقد تاقت نفس الإمام الى الخير ، لأنها جبلت من الخير ، وأتاه اليقين ، لأنه جرى مع فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وتمرد على

كل ما اعترضه من عوامل البيئة والظروف التي تعمي البصائر ، وتفسد الضمائر .

وقال :

« اللهم اني أستوهبك ما لا ينقصك بذله ، واستحملك ما لا يبهظك حمله ، استوهبك يا إلهي نفسي التي لم تخلقها لتمتنع بها من سوء ، أو لتتطرق بها الى نفع ... ان تفعل ذلك تفعله بمن خوفه منك أكثر من طمعه فيك ، وبمن يأسه من النجاة أوكد من رجائه للخلاص ، لا أن يكون يأسه قنوطاً ، أو يكون طمعه اغتراراً ، بل لقلة حسناته بين سيئاته ، وضعف حجته في جميع تبعاته » .

وليس هذا اعترافاً بالذنب ، وانما هو ضرب من عبادة العارفين ، ونوع من انكار الذات ، ومظهر من مظاهر السيطرة على الأهواء والشهوات ، وأسلوب فريد في الارشاد والرجوع إلى الله سبحانه ، والخوف من حسابه وعقابه ، وحجة بالغة على من يصر على الخطيئة والجهل والضلالة. فمن الناس من يسهل عليه كل شيء إلا الاعتراف بالخطيئة ، فشجعه الإمام على الإقرار بالذنب وطلب التوبة ، وضرب له مثلاً من نفسه ، ليفهمه بأن الاعتراف بالذنب والاقلاع عنه كفارة له ، والإصرار عليه جرم لا يغتفر .

أما قول الإمام استوهبك يا إلهي نفسي التي لم تخلقها لتدفع عنها ضرراً ، أو تجلب لها نفعاً ، أما هذا النوع من المنطق فسنعلق عليه بعد ان ننقل الكلمات التالية :

« إلهي وسيدي ، وعزتك وجلالك لئن طالبتني بذنوبي طالبتك بعفوك ، ولئن طالبتني بلؤمي لأطالبنك بكرمك ، ولئن أدخلتني النار لاخبرن أهلها بحبي لك ... إلهي وسيدي ان كنت لا تغفر إلا لأوليائك وأهل طاعتك ، فالى من يفزع المذنبون ! وان كنت لا تكرم الا أهل الوفاء بك ، فبمن يستغيث المسيئون ... اللهم انك أنزلت في كتابك العفو ،

وأمرتنا أن نعفو عمن ظلمنا ، وقد ظلمنا أنفسنا ، فاعف عنا ، فإنك أولى بذلك منا ، وأمرتنا أن لا نرد سائلاً عن أبوابنا ، وقد جئتك سائلاً فلا تردني إلا بقضاء حاجتي ، وأمرتنا بالإحسان الى من ملكت ايماننا ، ونحن ارقاؤك ، فأعتق رقابنا من النار » .

قد يرى البعض هذه الأقوال شكراً أو استعطافاً ، أو تنبيهاً للغافلين ، أما أنا فأراها احتجاجاً بكل ما فيه من معنى ، ودفاعاً « حسب الاصول المرعية » وليس في قولي هذا جرأة على الله سبحانه ، وتهجم على عظمته ، فقد جاء في الذكر الحكيم : « لئلا يكون للناس على الله حجة » ، وبديهة ان نفي الحجة يستلزم امكان ثبوتها ، فاذا قلت : لم أسافر فمعناه أن السفر مقدور لك ، ولكنك لم تفعله .

هذا ، وان الله عادل حكيم ، والعادل لا يعاقب حتى يحاكم ، ولا يحاكم حتى يؤمّن المتهم ، ويزيل عن نفسه الخوف على حقه في الدفاع . ومهما كان يوم القيامة رهيباً وعجيباً ، وكان الحساب دقيقاً وعسيراً فكل نفس تطمئن الى حكم الله وعدله ، وتعلم علم اليقين انها لا تظلم شيئاً ، فاذا جزعت وخافت فانما تخاف من ذنوبها وسيئاتها .

ولكن هذه السيئات لا تسلب صاحبها حق الدفاع عن النفس ، فان المذنب والبريء فيه سواء ، وعلى الحاكم أن يفسح المجال للاثنين دون تفاضل ، حتى ولو ظهرت قرائن الاقتناع ودلائل الادانة ، بل ان المذنب أولى من البريء في هذا الحق ، فان له بعد ثبوت الجرم عليه أن يدلي بأسباب العفو عنه ، أو التخفيف من العقوبة ، بخاصة اذا وجد السبيل الى ذالك . ولا شيء أكثر من السبل الى مغفرة الله ورحمته ، ومنها الاعتراف بالتقصير وطلب العفو والرضوان .

لقد كتب الله على نفسه الرحمة ، وخاطب عباده بقوله : « يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعاً ، انه غفور رحيم » . اذن يحق لكل من يحاكم بين يديه أن يطلب

العفو والرحمة ، ويحتج بتفضله واحسانه وعدم افتقاره الى شيء ، واستمع الى منطق الإمام الصارم الحازم :

« اللهم اني امرؤ حقير ، وخطر يسير ، وليس عذابي مما يزيد في ملكك مثقال ذرة ، ولو ان عذابي مما يزيد في ملكك لسألتك الصبر عليه ، وأحببت أن يكون ذلك لك ، ولكن سلطانك أعظم ، وملكك أدوم من ان تزيده طاعة المطيعين ، أو تنقص منه معصية المذنبين » .

وهذه حقيقة صافية نقية ، ودستور إلهي لا تحول دون تطبيقه القوى مجتمعة . وبواقع الحال لا يطبق هذا الدستور الا على من دان به وآمن بالله وثوابه وعقابه ، أما الجاحد فقد قطع الطريق على نفسه ، واختار لها سوء المصير بالتكذيب واعلان الحرب على الله ، ولم يدع لها حجة تستند اليها ، وعذراً تعتذر به .

أجل ، ان الله كتب الرحمة على نفسه ، ولكن لمن آمن بها وأيقن ، وهو يغفر الذنوب ، ولكن للمؤمن ، لأن ذنبه لا يخرجه عن الإيمان ، فله أن يتذرع بايمانه ، وان يسأل الله العفو ، ولا يقطع الرجاء حتى ولو رأى العذاب وجهاً لوجه ، كما أسلفنا من قول الإمام : « لئن أدخلتني النار لأخبرن أهلها بحبي لك » . وبماذا يتذرع الجاحد بعد يأسه وقوله : لا رب ولا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار . ان هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ؟!

قد يكون الذي يستمع الى مناجاة الإمام عالماً أو فيلسوفاً أو أديباً أو مؤرخاً ، وقد يكون جاهلاً ، وقد لا يؤمن بشيء ، ومهما يكن فانه يشعر في قرارة نفسه بالرهبة والجلال لهذا المنطق ، لأنه يعبر عن واقع لا ريب فيه ، ويفرض نفسه على كل انسان من حيث يشعر أو لا يشعر « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » . وهذا ما أراده الإمام من مناجاته ، أراد أن يعود بالنفوس الى فطرتها ، ويحييها بالأمل والشجاعة ، ويحملها على اليقين بأن سبيل الأمان والنجاة هو الإيمان بالله ، وان أبواب

الرجاء والخلاص مفتوحة أمام المؤمن وان كثرت ذنوبه وتنوعت ، وانه لا نجاة ولا أمان لجاحد في كل حال ، لأن الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

قرر الإمام هذه الحقيقة بكل هدوء، وبأسلوب يأخذ بمجامع القلوب، ويزيل منها الشكوك بمنطق تدهش العقول لبساطته ، ولكنه أقوى تأثيراً من جميع الوسائل والأقيسة التي يتذرع بها العلماء والفلاسفة . وهنا سر الاعجاز .

ومن الخير ان ننقل بهذه المناسبة الحديث التالي :

لما نزلت هذه الآية : من جاء بالحسنى فله خير منها . قال رسول الله : ربي زدني . فنزل من جاء بالحسنى فله عشرة أمثالها، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها . فقال الرسول : زدني . فنزل يضاعف له أضعافاً كثيرة . والكثير عند الله لا يدخل في حساب .

ومن أحكام الفطرة انه اذا كان لديك دَين على غيرك فأنت مخير بين أن تعفو عنه ، أو تأخذه دون زيادة ، أما اذا كان الدين عليك فان شئت رددته كما هو عدلاً وانصافاً ، أو زدت تفضلاً واحساناً . جاء في الحديث ان اعرابياً سأل النبي : من يتولى حساب الخلق غداً ؟ قال : الله . فقال الأعرابي هو بنفسه . قال : نعم . فضحك الأعرابي. فسأله النبي عن السبب ، فقال : ان الكريم اذا قدر عفا ، وان حاسب سامح في الحساب ولا يناقش .

ولسائل أن يسأل : لو ان انساناً عمل للصالح العام ، فشق طريقاً ، أو بنى مدرسة ، أو مستشفى ، وهو لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، فهل يثاب على عمله هذا ، ويعد عند الله من الطيبين الأخيار ؟

والجواب : ان الفعل الحسن مطلوب لذاته لا يغيره القصد عن حقيقته، ولا لون الفاعل عما هو عليه ، فانتشار العلم ، وتطبيب المرضى ،وتيسير المواصلات ، كل ذلك وما اليه محبوب عند الله سبحانه سواء أحصل من

متدين أو جاحد . ولكن الذي لا يعترف بوجود الله ، ولا يعمل انقياداً لدعوته ليس له أن يطلب منه الأجر والجزاء ما دام لم يقصد وجهه الكريم، كما انه لا يجب عليه سبحانه أن يثيب من لا يشعر بقوته وجلاله، وهل تقدر أنت من لا يراك شيئاً كائناً من كان ؟!

ان هذا الرجل الذي فعل الخير لوجه الخير لا لشهرة ولا للدعاية الى نفسه لا شك انه انساني يستأهل الحمد والثناء من الناس على مقاصده النبيلة ، وعمله من أجل الانسان ، ولكن الفرق بعيد جداً بين من يعمل لخير الناس ، وهو مؤمن بأنه فرض أوجبه عليه مبدأ أسمى، وانه مسؤول عن العمل لا يجوز له تركه بحال ، وبين من يفعله وهو لا يرى نفسه ملزماً بشيء أو مسؤولاً عن شيء .

ان الثواب من الله لا يجب إلا مع قصد الطاعة له المقارن للتعظيم والاجلال . هذا ، الى ان الله سبحانه لا يقبل إلا من المتقين الذين يؤمنون به وبلقائه في يوم الدين وبهذا نطق القرآن الكريم . « لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين .. ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة... أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم ولا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » ، أي لا قيمة لهم عندنا ولا كرامة، ولا نعتمد بهم ولا بأعمالهم، لأنهم أوقعوها على غير الوجه الذي يستحقون عليه الأجر والثواب .

ومهما يكن ، فان كلاً من الايمان وعمل الخير جزء متمم للثاني لا يغني أحدهما عن الآخر ، وبهذا صرحت الآية ٩٧ من سورة النحل : « من عمل صالحاً من ذكر أو انثى ، وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . اذن الايمان بالله شرط أساسي لجزائه وثوابه .

ان من يؤمن بالله واليوم الآخر يقابَل غداً بين حسناته وسيئاته ، وينظر أيتها أكثر ، فان كانت الاساءة كان كمن لم يحسن ، وان كان

الاحسان كان كمن لم يسيء ، اذ الأكثر ينفي الأقل،وان تساويا كان كمن لم يصدر عنه شيء ، هذا فيما يعود الى حق الله فقط ، أما حق الناس كالزنى والسرقة والعدوان فالعقاب مستحق على كل حال ، ولا تقارن وتوازن بين ما قل وكثر . أما الجاحد ، أما من لا يؤمن بالله ولقاء ربه فلا يعد مطيعاً وعاصياً في آن واحد، بل هو عاص فحسب، لأن الجحود سيئة لا تقبل معها حسنة ، وليس بعد الشرك الا العذاب .

قيل لأحد العلماء : هل يدخل النار أحد بدون حساب ؟ قال: نعم. قيل له : وهل من العدل ان يعاقب الله دون ان يحاسب ؟ قال : من لم يعمل حسنة واحدة في حياته كلها ، وكانت جميع أعماله سيئات لا يحتاج الى حساب .

من كان في هذه أعمى

من الأوهام ان فكرة الآخرة تعارض وتقاوم التطور والتقدم ، لأن المؤمنين بها يهتمون بخلاصهم في العالم الثاني أكثر من اهتمامهم في هذه الحياة ، ولا فرق عندهم بين أن يظلوا في الوضع الذي هم عليه أو ينتقلوا منه الى أسوأ أو أحسن. ولذا تراهم يسمحون للانتهازيين باستثمارهم واستغلال أوطانهم .

وليس من شك بأن هذا يصح بالقياس الى دين يعارض الاصلاح ، ويأمر أتباعه بالبعد عن واقع الحياة وأشيائها . أما الدين الذي يثق بالانسان وعظمته، ويحثه على العلم والعمل حتى لا يفوته شيء من مقدسات الحياة ، وحتى يستغل كل ما في هذا الكون لمنفعة العالم ، أما العقيدة التي يقول كتابها المقدس : « من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ... يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك خير لكم ان كنتم تعلمون » ويقول قادتها : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً .. أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة .. الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه . خير الناس أنفع الناس للناس . أما فكرة الآخرة في هذا الدين وهذه العقيدة فهي غاية مثالية تدفع بصاحبها

الى التقدم والعمل في سبيل الحيـــاة ، وحافز اجتماعي يحثه على الجهاد والتضحية من أجل أمته وبلاده .

ولا شيء أدل على هــذه الحقيقة مما جاء في الكتاب والحديث عن أوصاف أهل الجنة والنار ، فمن الكتاب :

« يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم »

« الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم»

« وادخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار»

« ان الابرار لفي نعيم ، وان الفجار لفي جحيم »

« كبر مقتاً عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون »

« ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون الا مـا كنتم تكسبون »

« هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ... »

ومن الحديث :

« من سلك طريقاً الى العلم سلك به طريقاً الى الجنة »

« من كتم علماً جاء يوم القيامة بلجام من نار »

« من لقي الناس بوجهين ولسانين جاء يوم القيامة ، وله لسان من قفاه ، وآخر من قدامه يلتهبان ناراً »

« يحشر المتكبر على هيئة الذر يطأه الناس بأقدامهم »

« من خاف الناس من لسانه فهو من أهل النار »

« ان في الجنة غرفاً يسكنها من أطاب الكلام وأطعم الطعام وأفشى السلام » .

وما الى ذلك مما لا يتسع له المجال . اذن فطريق الجنـة هو العـلم والعمل النافع ، واتباع الحق والصدق ، وافشاء السلام والأمن والأمان . وطريق النار هو الظلم والفساد ، وكتمان العلم والكذب والنميمـة وما الى ذلك .

وأجمع كلمة وأبلغها قول الله عز وجل : « من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً » .

وقد يتساءل : اذا كانت الجنة تدرك بالعمل للعمران والسعادة في هذه الحياة فبماذا نفسر ما جاء في القرآن والحديث من ذم الدنيا وأهلها، والحث على الاعراض عنها ، وزهد الأنبياء فيها ؟!

الجواب :

لقد خلط الناس لزمن طويل بل حتى الآن بين حب المال وجمعه كغاية ، وبين حب الحياة ، وظنوا ان الاثنين شيء واحد ، أو انهما متساويين لا يفترقان ، ومنشأ هذا الخلط والوهم ما جاء في الكتاب العزيز : « وما متاع الحياة الدنيا الا الغرور ... بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » . وفي الحديث : « الدنيا والآخرة ضرتان لا تجتمعان » . وما الى ذلك مما أكد هذا المعنى تصريحاً أو تلويحاً .

ولكن مع النظر الفاحص يتبين لنا ان أحدهما غير الآخر ، اذ المراد بالدنيا المذمومة تأليه المال والتكالب عليه ، وبالآخرة الحق والعدل . ولا ريب أن الحق والباطل ضدان لا يجتمعان ، أما طلب المال للعيش وسد الخلة فهو من أفضل الطاعات بحكم العقل والشرع ،ويدل عليه قوله تعالى: « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا .. ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم..ألم تر ان الله سخر لكم ما في الأرض». وفي الحديث : « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه . المؤمن القوي خير وأحب عند الله من المؤمن الضعيف » .

ان الانسان مهما تجرد وعف ، وسمى بروحانيته فلا يمكنه بحال ان يدع التفكير في عيشه وطعامه وشرابه ، فقد يهون عليه ان يكبح شهوته الجنسية ، ويهون عليه أن يترك الكثير مما اعتاد وألف ، ولكنه لا يستطيع ان لا يفكر في الغذاء ما دامت معدته تطلب ذلك . وعلى هذا لا يكون

العمل في نطاق العيش وسد الحاجة ضرباً من الأنانية والمنافع الخاصة ، وانما هو عمل انساني،ونضال من أجل الحياة العامة والمصلحة الاجتماعية، فمن عمل لصيانة نفسه وحفظ حياته فقد عمل لصالح الجماعة التي هو فرد منها ، وناضل في سبيل مثل انساني نبيل ، أما اذا عمل للتفاخر والتكاثر بالمال ، وايثاراً للراحة وحب الشهوات ، فقد عمل لمآربه الشخصية .

قال الرسول الأعظم : « من طلب الدنيا مكاثراً مفاخراً لقي الله ، وهو عليه غضبان ، ومن طلبها استعفافاً وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر » لأن عمل الثاني اتخذ شكلاً انسانياً ، بعكس الأول الذي تمثل في عمله الطمع والجشع .

قال بعض العلماء : كل ما تدعو اليه الحاجة [1] من المأكل والملبس والمسكن فهو لله ، وما زاد عنها ، وصرف للتنعم والترف فهو لغير الله . اذن معاش الانسان في حياته هذه حق من حقوق الله . لذا أولاها الأنبياء العناية والاهتمام ، وأعلنوا حرباً شعواء على الذين يجمعون المال كغاية قصوى لجهودهم ، ولا يرون الخير والجمال والحق الا بجمعه واحتكاره ، فمن آيات القرآن المنزل على محمد : « أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون .. لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .. والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

وفي الحديث : « رأس كل خطيئة حب الدنيا .. مثل الحريص على

---

١ الحاجة وسط بين الضرورة والترف ، فالضرورة ما تبقي على الانفاس ، كأكل الخبز بلا أدام ، والترف أن يكون لديك ما لذ وطاب ، وسد الحاجة أن يتوافر لك كل ما تستدعيه الحياة دون زيادة أو نقصان .

الدنيا كمثل دودة القز كلما ازدادت على نفسها لفاً كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غماً » وقال عيسى روح الله[1] : «الرب مسحني لأبشر المساكين ، وأرسلني لأشفي منكسري القلوب ، وأنادي للمأسورين بالانطلاق ، وللعمي بالبصر ، وللمستحقين بالحرية » .

ومن هذه الآيات والأحاديث يتبين لنا ان زهد الانبياء لم يكن من أجل الفقر والعوز ، ولا تحقيراً للملذات ، وتحريماً للطيبات ، ولا من أجل ترويض النفس وتمرينها على المشاق والأثقال ، ولا لأن الزهد عقيدة دينية ومن القيم الروحية ، كما يظن كثيرون ، وإنما هو احتجاج صارخ على المستغلين ، وثورة على من قسم الناس إلى فئات ، وعلى من ظن ان الفقر خساسة وانحطاط ، والثروة شرف وكرامات[2] . وهو دليل أيضاً على ان الانبياء يحيون ما يقولون ، ويقولون ما يحيون . وهو درس كذلك أعطاه الانبياء للمستضعفين بأن لا ييأسوا ولا يقنطوا مهما تكن الظروف والأحوال ، وبأن الفقر والجوع لا يعوق عن النضال والكفاح ، وان السلاح الأكبر هو الحق ، فما دمت تطلب بحقك فانك قوي ، وان كنت جائعاً معدماً ، واذا ناصرت الباطل فانك ضعيف ، وان تمت لك العدة والعدد .

لقد قاوم الأنبياء المستغلين ، وهم عزل من المال والسلاح، ليحركوا

---

١ معنى روح الله رحمته تعالى أي أن عيسى أرسله الله رحمة للناس كالمطر ، فهو شبيه محمد الذي قال سبحانه عنه « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وقد استعمل القرآن الكريم لفظة الروح بهذا المعنى في الآية ١٢ من سورة المجادلة : « وأيدهم بروح منه » أي برحمة منه .

٢ قيل : ان ثرياً تاه وافتخر على فقير ، فقال له : ان افتخرت بفرسك فالحسن للفرس لا لك ، وان افتخرت بثيابك فالحسن لها دونك ، وان افتخرت بآبائك فالفضل فيهم لا فيك ، وان افتخرت بمنصبك فالشرف منه لا منك ، فكل المحاسن خارجة عنك ، وأنت منسلخ عنها ، وقد رددناها على أصحابها ، وبقيت صفر اليدين ..

في نفوس المضطهدين ، إرادة التحدي لكل معتد أثيم ، ولا يتنازلوا له عن شي من حقهم ، وان امتلأت بهم السجون ، وارتفعت أجسامهم على أعواد المشانق .

ان زهد الأنبياء والصلحاء كان لحساب الانسان ، ومن أجل حقوقه وكرامته. انهم يعلمون ان هذا الرغيف وهذا القميص هما عرق الكادحين ودماؤهم ، فكيف يشبعون من الطعام ، ولعل الذي زرعه وحصده جائعاً ! وكيف يلبسون فاخر الثياب ، وربما الذي حاكها عريان ! قال الإمام علي بن أبي طالب : « لو شئت لاهتديت الطريق الى مصفى هذا العسل ، ولباب هذا القمح ، ونسائج هذا القز ، ولكن هيهات ان يغلبني هواي ، ويقودني جشعي الى تخير الأطعمة ، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع ، أأبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى ، وأكباد حرى ؟! أو أكون كما قال الشاعر :

وحسبك داء ان تبيت ببطنة وحولك أكباد تحن الى القد

ان التكالب على المال يفقد الشخص انسانيته ، ويزيل من نفسه كل شعور بالواجب ، أي واجب ، فلقد رأينا كيف تعاون أرباب المصانع والمكاسب مع المستعمرين ضد أوطانهم ! وكيف استقبلوهم بأقواس النصر وأكاليل الزهر كأنهم محررون منقذون ! وكيف يتاجرون بالعواطف الدينية ولا يعبدون الله الا على حرف . ومن هنا كان موقف الأنبياء معهم تماماً كموقفهم مع الجاحدين والمشركين .

وبالتالي ، نعيد القول مرة ثانية ان طريق الجنة هو العلم النافع والعمل البنّاء ، ويكفي شاهداً على هذه الحقيقة قول الإمام علي لمن ذم الدنيا:

« الدنيا منزل صدق لمن صدقها ، ومسكن عافية لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، فيها أنبياء الله ، ومهبط وحيه ، ومصلى

ملائكته ، ومسكن أحبابه ، ومتجر أوليائه ، اكتسبوا فيها الرحمة ، وربحوا منها الجنة . فمن ذا يذم الدنيا ؟! » .

ان فكرة الآخرة تنهى عن الظلم والاحتكار، واستغلال الانسان للانسان، وتبعث على العمل والتضحية لخير الناس والصالح العام ، وهذا ما أراده الإمام بقوله : « متجر أوليائه، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا منها الجنة » .

الدين والضمير*

تسيطر على عقول أبنائنا فكرة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ، وهي ان الدين صلاح الضمير وكفى ، أي لا تسرق لا تكذب لا وتعتد على أحد ، أما الصوم والصلاة ، اما تمجيد الحق والخضوع لله فمراسم وأشكال لا داعي اليها !.

وقد وضع محمود الشرقاوي كتاباً أسماه « الدين والضمير » لهذه الغاية ، ننقل منه بعض الفقرات ليتبين للقراء أنه لا هدف لأرباب هذه الدعوة الا انتشار الفوضى والفساد ، والقضاء على الدين والأخلاق .

قال في ص ٧٦ : « هذه الآية الكريمة » « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » تقرر ان الله يحب الذي يتكرر منه الذنب والخطيئة ، ثم تتكرر منه التوبة » . وقال في ص ٧٧ : « ثم نجد ذلك الحديث الذي يحتوي دلالة ليس بعدها دلالة ، وهو حديث قدسي يتلخص في ان عبداً أذنب فاستغفر الله ، فغفر له ثم عاد،فاستغفر ، فغفر الله له، تكرر ذلك منه مرة بعد مرة . فقال الله له : اعمل ما شئت فقد غفرت لك » .

* اقتطفنا هذه الفقرات مما كتبناه حول كتاب (الدين و الضمير) لأن المقام لا يتسع لأكثر منها .

وقـــال أيضاً في ص ١٠٠ : « جاء في الحديث أن من مات على التوحيد لم يشرك بالله غيره دخل الجنة ، وان زنى وسرق » . وقـال في ص ١٠٤ : « روى أبو هريرة عن رسول الله أنه قـال : والذي نفس محمد بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم ... ولعلنا نوشك أن نقول : ان هـذا الحديث لا يهون الذنوب فقط . بل كأنه يحض ويحرض ، وهو واضح في جعل الخطيئة والتوبة من مبررات الحياة الانسانية ، ومن أسباب ابقاء الله عليها » .

ثم تتلاحق أقوال المؤلف في هـــذا الباب حتى ينتهي الى ص ١١٨ فيقول ما نصه بالحرف الواحد :

« ونحن عندما نجعل المقاييس هذه أساساً لفهم العقيدة وتقدير الخلق، نقتحم ميداناً جديداً من ميادين الادراك السليم لتاريخنا العربي والاسلامي، ونضع قواعد قد تكون صارمة قاسية ، ولكنها صحيحة ، مستنيرة ، واعية مجردة من التأثير والعواطف والانقيـــاد ، وهي في نفس الوقت مفيدة إلى أبعد غاية في تربية نفوسنا ، كما هي مفيده الى أبعد غايـــة أيضاً في فهم تاريخنا فهماً سليماً » .

ولا نريد ان نطيل الكلام مع صاحب هذا القول ، بل نوجه اليـــه الأسئلة التالية :

أولاً — انك دعوت الى تقويم الأخلاق والعمل الصالح ، وقلت : انه الغاية الأولى والأخيرة من وجود الأديان . فهـــل الزنى والسرقة ، وتكرار الذنب والخطيئة من الأخلاق الكريمة والأعمال الصالحات ؟! ثم اذا اتخذنا من حب الله للجريمة وتكرارها، وتحريضه على دوامها والابقاء عليها أساساً لفهم العقيدة وتقدير الأخلاق فهل تكون عقيدتنا ، والحال هذه ، صحيحة مستنيرة ، واعية مجردة ، وتكون أخلاقنا قوية كريمة؟ وتاريخنا العربي والاسلامي سليماً مفيداً الى أبعد الغايات ؟!

ثانياً – اذا كانت الغاية من التوبة هي تكرار الذنوب ودوامها والابقاء عليها ، لأنها من مبررات الحياة الانسانية فلماذا لم يأمر الله بها، ويحرض عليها بدون التوبة ما دامت الجريمة محبوبة ومطلوبة بذاتها عند الله ؟' لماذا التوبة والضحك على الذقون ؟!

والحقيقة ان الله سبحانه قد قبل من التائب بقلب طاهر نقي ، كي لا يقنط ، فيستزيد من الذنب ، ويقول أنا الغريق فلا أخشى من البلل . فالغاية اذن من التوبة استصلاح الفاسد لا المزيد من الفساد ، والحد من الذنب لا تكراره والابقاء عليه .

ثالثاً – لماذا أخذت أيها المؤلف بالحديث الذي أباح الزنى والسرقة ، وتجاهلت قول الله سبحانه : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر .

والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا ونكالاً من الله» ؟ كيف تشبثت بهذا الحديث الضعيف الذي لا نشك بأن واضعه من كبار الزناة واللصوص ، وأعرضت عن قول الله تعالى ، مع ان المذاهب الاسلامية بكاملها لا تقبل حديثاً يخالف صريح القرآن [1] ؟!.

أما حديث أبي هريرة ، من ان الناس إذا لم يقطعوا ما أمر الله به ان يوصل ، ويفسدوا في الأرض يستبدل قوماً غيرهم يسفكون الدماء ويزنون ويسرقون ، أما هذا الحديث فانه يعطي مهمة الشيطان للانبياء، ومهمة الأنبياء للشيطان ، فيحمل هو راية الهدى والحق ويبسط العدل ، ويقيم الحدود ، أما الانبياء فيفرقون بين المرء وزوجه ويلقون بين الناس العداوة والبغضاء ، ويصدونهم عن ذكر الله وعن الصلاة .

---

[1] من أغرب ما قرأت ان مستشرقاً يدعى « لامانس » يرى أن كل ما يوافق القرآن فهو دس وافتراء على الرسول !.. مع أن المسلمين كافة يعكسون القول ويرون الحديث شارحاً ومفسراً للقرآن الكريم .

هذا هو كتاب الشرقاوي « الدين والضمير » . وهذي هي طهارة النفس وتزكية الضمير عنده ، وبهذا المنطق يحاول اقناعنـــا بأن الصلاة والصيام وهم ، واذا دل هذا التهافت والتنافض على شيء فانما يدل على واحد من اثنين لا ثالث لهما : اما أنه ليس للمؤلف هدف معين ، ولا خطة مرسومة ، واما ان تكون غايته هدم الدين والأخـــلاق وانتشار الفساد والفوضى ، ولكنه لم يجرؤ عـــلى اعلانها والجهر بها ، فتستر باسم تربية الضمير ، وعمل على الهدم في الخفاء .

المهدي المنتظر والعقل

تمهيد

بعد أن صدر كتاب « الشيعة والتشيع » وردت إليّ حوله رسائل من قرائه ، وما تأثرت بشيء ، كتأثيري برسالتين منها :

الأولى : من شاب مدرس في احدى مدارس العراق ، جاء فيها : ما كنت أحسب ان أحداً بمقدوره أن يقنعني بالمهدي المنتظر ، كما هو في عقيدة طائفتي وآبائي وأجدادي ، ولكني بحمد الله قد اقتنعت وآمنت بعد ان قرأت كتابك « الشيعة والتشيع » .

والرسالة الثانية : من العراق أيضاً ، ولم يفصح صاحبها عن مهنته ، قال فيما قال : كنت من قبل أضع فكرة المهدي في عداد المستحيلات ، حتى قرأت الفصل الخاص به في كتاب « الشيعة والتشيع » فعدّلت رأيي وقلت : انها ليست محالاً ، كما كنت أحسب وأعتقد .

فحمدت الله وشكرته جل وعز ، وقلت في نفسي : وأية أمنية أبتغيها من التأليف وراء هذه ؟ وأي عمل أتزود به في دار المقامة أنفع وأرفع ؟ وأيضاً قلت في نفسي : ما دام هذا أجري من الكتابة فلن ألقي القلم ، وفيّ نفس يتردد ، وعرق ينبض .

وكلنا يعلم ان موضوع المهدي المنتظر من الموضوعات الشائكة للغاية ، بالقياس الى تفكير النشء وتربيتهم ، بخاصة من تغلب الزهو عليه ،

وغرق في الغرور الى ما فوق اذنيه .. ومن هنا شعرت بالغبطة .. واستغفر الله .. وان دلت الرسالتان على شيء فانهما تدلان – أولاً – على جبن من يراوده الخوف من معالجة هذا الموضوع وما اليه ، الخوف من الاخفاق والاستخفاف ، وانه غير خليق بشيء – أقصد من له أهلية التفهم والتفهيم – ولا أصدق ان « عالماً » يحصل على شيء يذكر في آخرته ودنياه ، إذا لم يكن شجاعاً مقداماً .. فلقد سبق في علم الله وقضائه ان لا يكون للجبناء من فضله الدائم نصيب محمود .

ومهما يكن ، فلم يدر في خلدي حين قرأت الرسالتين أن أضيف شيئاً على فصل المهدي المنتظر في كتاب « الشيعة والتشيع » أو أطبع هذا الفصل ثانية في كراسة على حدة ، ليطلع عليه من لم يصل الكتاب اليه وانما انصرفت الى كتاب « علي والفلسفة » ، ثم الى كتاب « الوقف والحجر على المذاهب الخمسة » ،ثم إلى كتاب « الحج على هذه المذاهب » ثم إلى كتاب « تجارب وتأملات » ، ثم إلى كتاب « أصول الإثبات في الفقه الجعفري » ، ثم إلى هذه الصفحات[1] .

وفي اللحظة التي خط القلم فيها كلمة الختام من كتاب اصول الاثبات ، وقبل أن أقوم من مكاني رأيتني – بحافز لا شعوري – اشرع بالكتابة عن الإمامة بوجه عام ، كما كان يبدو لي باديء ذي بدء ، لأخرج كتاباً يحمل اسم « الإمامة والعقل » .. وكنت اذا سألني سائل فيمَ أكتب أقول له : في الإمامة والعقل ، وقبل ان انتهي من الفصل الثالث تبين معي اني أكتب عن صاحب الأمر والزمان (ع) بوجه خاص ، لا عن الإمامة بوجه عام ، ولكن بأسلوب جديد ، وتفكير جديد كما خيل

---

١ الكتاب الأول نشرته دار الكاتب العربي ، ووزعته ، والثاني طبعته دارالنشر للجامعيين ، والثالث يعرض في المكتبات ، والرابع انتهيت منه ، ولا أدري ماذا يكون مصيره ، والخامس طبعته دار العلم للملايين ، ... وابتدأت بهذه الكتب في ٢٠ شوال من سنة ١٣٨٨٢ هـ . وتمت بحمد الله في ١٥ شوال من سنة ٨٣ .

إليّ ، فعدلت عن اسم الإمامة والعقل إلى اسم المهدي والعقل ، وليس هذا من باب فسخ العزائم حيث لم يخطر لي العدول والفسخ ببال ،ولكنه من باب : أردت أمراً وأراد الله خلافه ، فمضيت على ارادته ، والدمعة تترقرق في عيني غبطة وسروراً .

وتقول : هذا محال ،أو بعيد ، إذ كيف تقصد الكتابة في موضوع ، ثم يتبين أنه غير ما قصدت ؟.. أليس هذا من باب « أردت ما لا تريد » ؟.. لأن الكتابة في شيء لا تنفك عن ارادة هذا الشيء بالذات.

وأقول : أجل ، وقد كنت أرى – من قبل – أن مثل هذا محال ، كما تراه أنت الآن .. ولكن صدق ، أو لا تصدق ، هذا ما وقع وحصل .. أما التفسير الذي أركن اليه فلم أجده إلا في مشيئة الله وارادته ، جلت حكمته وقدرته[1] أما أنت ففسر بما شئت .

وشيء آخر أود ذكره وبيانه ، وهو اني في سنة ١٩٥٩ وضعت تصميماً لسلسلة « الاسلام والعقل » وجاء كتاب الأمامة والعقل – بحسب العزم والتصميم – الكتاب الرابع ، وبالفعل صدرت كتب: الله والعقل ، والنبوة والعقل ، والآخرة والعقل ، وحين وصلت الى الرابع اذا به علي والقرآن بدل الأمامة والعقل ، ثم فضائل الإمام علي ، ثم علي والفلسفة.

وبعد أربع سنوات أو أكثر من العزم والتصميم رجعت الى الإمامة بوجه عام – وحكيت القصة – .. ومن يدري لعلي اعزم في المستقبل

---

١ ذكرت في كتاب تجارب وتأملات ان الله سبحانه أقام البراهين العامة على وجوده من خلق السموات والأرض ، وما اليه ، ثم أعطى كل نفس من الأدلة ما تختص به وحدها ، وإذا رجع كل إنسان إلى تاريخ حياته ، وتدبرها بامعان لمس هذه الحقيقة ، حيث يجد حوادث قد حصلت له ، ولا يجد لها أي تفسير إلا في مشيئة الله وارادته ، وأنا أضيف هذا الدليل إلى ما ذكرته في التجارب والتأملات ، وسوف أضيف إلى هذا الدليل الف دليل ودليل ، ان أمد الله في الحياة .

القريب أو البعيد على موضوع غير الأمامة والعقل ، وإذا به تفس الإمامة والعقل ، تماماً كما حصل مع هذه الصفحات ..

بقي شيء ثالث ، وهو — أني — منذ كتبت في الله ، والنبوة ، والآخرة ، الى الآن قرأت عشرات الكتب في موضوعات مختلفة، واتجاهات شتى ، وقد تبين معي انها كانت المادة ورأسمال لهذه الصفحات، وسأضيف، بحول الله وتوفيقه ، الى تلك القراءات قراءات ومطالعـات ، ان بقيت للكتاب والقلم .. ومن يدري فقد تكون قراءاتي غداً مادة خصبة لكتاب « الامامة والعقل » .. أو إمامة علي والعقل والى اللقاء .

والحمد لله الذي قدر فهدى ، ويسر لليسرى ، وصلى الله على محمد وآله الأبرار الأطهار .

ملاحظة :

الآن تذكرت ملاحظة ، تتصل بهذه الصفحات وغيرها من كتبي الصغار، وأخشى النسيان والذهول عنها ، ان لم أبادر لتسجيلها، وخلاصتها ان سلسلة « الاسلام والعقل » الله والنبوة والآخرة جاءت في كتيبـات صغيرة ، وكان الأفضل ان تكون أضخم وأكبر .

وخلاصة الجواب :

١ — ان العبرة في الكيف لا في الكم ، بالفكرة والدقة والأمانة لا بعدد الصفحات ، فلقد كنت ، وما زلت أكره الحشو والفضول ، واللف والدوران ، وأحب الاختصار ، بدون ان يخل بالمعنى ، ويغـير من طبيعته شيئاً ، ولو أردت لعبرت عن الصفحة الواحدة بصفحتين ، أو أكثر .

٢ – ان الهدف الذي أرمي اليه من كتابتي هو أن يقرأ هذا النشء الضائع عن الدين ويطلع على شيء مما لدينا عسى أن يهتدي واحد من مئة ، فان الفاصل الذي يفصلهم عنا هو جهلهم بنا ، وقد كان وما زال جهل الناس بعضهم لبعض سبباً للنزاع والصراع ، فان علموا أمكن القرب والتفافهم ، وأسهل الطرق لترغيبهم في القراءة المختصر المفيد الذي يستطيعون متابعته ، وهم في السيارة ، وحين يأوون الى مخادعهم ، تماماً كما يقرأون الصحف .. وما زلنا نسمعهم يرددون نحن في عصر السرعة ، والاختزال ، واختصار الأوقات ... فاختصرت ، ليقرأوا ، وهم سائرون ، تماماً كما يأكلون « السندويش » .

ولو قارن مقارن بين من قرأ من شباب هذا العصر كتاب « علي والقرآن » مثلاً ، وبين من قرأ المطولات القديمة والحديثة في هذا الموضوع لوجد ان نسبة هؤلاء الى أولئك نسبة الواحد الى الألف ، على أكثر تعديل .. ان لم نقل لا شيء ..

وبكلمة اني اهتم – أولاً – بأبنائنا ، وأحاول الاقتراب منهم ، وحملهم بشتى الطرق على الدين والايمان ، وادع الحجاج الصائمين المصلين الى من أرادهم من الاخوان . والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين[١].

---

١ لم يبق لهذه الملاحظة مجال بعد ان حوت هذه المجموعة على الكتب الاربعة .

النقد على صعيد الرغبات

عين الرضا :

إذا أحسن اليك انسان ، واستجاب لرغباتك فقد ملك عقلك وقلبك، لأن الانسان عبد الإحسان ، والقلوب مطبوعة على حب من أحسن اليها، فاذا نظرت إلى أقواله وأفعاله نظرت اليها بعين كليلة عن الحق، واعتقدت بأن ما يقوله هو العدل والصدق ، وان ما يفعله هو الصواب والحق ، حتى ولو كان كاذباً في أقواله ، مخطئاً في أفعاله ، دون أن تشعر بهذا الميل والانحياز .. بل انك تحسب مخلصاً ان ما تمليه عليك العاطفة هو من املاء العقل ، ومنطق الواقع .

عين السخط :

والشيء نفسه يقال في شهادتك على من أساء اليك، لأن عين السخط تماماً كعين الرضا كلتاهما تعميان عن الحق ، وصاحبها ينطق عن الهوى، ويحسب انه وحي يوحيه الحق والواقع ، وليس عامل التربية والبيئة بأفضل من عامل الحب والكراهية في تصوير الواقع تبعاً لها .

الآراء والمعتقدات :

وإذا كانت آراء الناس ومعتقداتهم – غير البديهية – عرضة لأخطاء البيئة والأنانية فعلى العاقل المنصف ان يتهم نفسه فيما يرى ويعتقد ، وان يتنبه دائماً إلى أن ما يؤمن به يقبل النقد والنظر ، وانه لو كان منزهاً عن الخطأ لكان نبياً مرسلاً ، وكانت جميع أقواله وآرائه مقياساً للحق ، ومعياراً للعدل .

أما الذي يحق له أن ينظر وينقد فهو المنصف العارف الذي يملك الاستعداد والمؤهلات .. فان الجاهل بالطب لا يدعى إلى فحص المريض ، ومن لا يعرف الهندسة لا يطلب اليه أن يضع فيها الترتيبات والتصاميم ، ومن لا يركن إلى ضميره لا يعتمد عليه في شيء ، ومن كفر بالله لا يسأل عن رأيه فيمن آمن وأيقن .

أجل ، لو ان من كفر وجحد كان قد قرأ الفلسفة الإلهية ، واطلع على براهين الإلهيين وأدلتهم لكان للسؤال عن رأيه وجه ، ان كان من أهل الرأي والانصاف ولكن كيف يقرأ وهو يرى مسبقاً ان كل ما يتصل بالدين أسطورة ووهم؟! وهل تقرأ أنت كتاباً في الحساب لمؤلف يرى ان اثنين واثنين تساوي عشرة ؟! وهذا هو بالذات شأن كثير ممن جحد وألحد .

وتقول : هذا هو حال المؤمنين أيضاً بالقياس إلى كتب الإلحاد حيث لا يقرأون كتب الملحدين وبراهينهم .

الجواب :

ما من باحث في الإلهيات قديماً وحديثاً الا واستعرض أقوال الملحدين وأدلتهم وتناولها بالنقد والتحليل في ضوء العقل ، واهتم بها كل الاهتمام ، أما الملحدون فترجع جميع أقوالهم وأدلتهم إلى شيء واحد ، وهو ان الإيمان بالله ايمان بالغيب ، وانهم لا يؤمنون إلا بالحس .

وأجابهم من آمن بالحق والعدل : ان الإيمان بالحس هو في الوقت نفسه ايمان بالعقل ، لأن شهادة الحس ليست بشيء لولا العقل ، وإذا جاز الاعتماد على العقل في الحس المباشر جاز الاعتماد عليه في الحس غير المباشر ، والتفكيك تحكّم ، وترجيح بلا مرجح.

ومهما يكن ، فان الغرض من هذا الفصل ان نبين ونؤكد ان الانسان لا يسوغ له أن ينتقد إذا كان أسيراً لمذهب أو نظرية أو تربية أو أي شيء .. ومن هنا حين أراد ديكارت أن يركّز معلوماته على المنطق السليم شك بادىء ذي بدء في كل شيء الا في الشك ، ثم أخذ بالنظر والاستدلال .

وتقول أيضاً : ان معنى هذا أن نسد باب النقد من الأساس ، اذ ما من عالم أو فيلسوف الا وله نظرية خاصة ، لا ينفصل عنها ، وينظر إلى الشيء من خلالها ، ويحكم عليه بوحي منها ، وعلى هذا فمن يلتزم ديناً معيناً ، أو مذهباً خاصاً لا يسوغ له أن ينتقد من لا يدين بدينه ويتمذهب بمذهبه .

الجواب :

أولاً : ان عدم انفصال المرء عن رغباته لا يعني انه بعيد عن الحق والواقع في كل ما يقول ويفعل ، فان بعض الرغبات تأتي انعكاساً عن الواقع ، وتعبيراً عن الخير ، ولو صح القول بأن الرغبات والتعصبات بكاملها لا تمت الى الواقع بصلة لما وجد في الانسانية مصلح ، ولا مفكر ، ولا داع الى الحق والخير .. ولوجب ان يسد باب القضاء والترافع لأن كل من يدعي شيئاً يرغب فيه ، ويتعصب له ، فكما ان القاضي العادل العارف لا يرفض الدعوى اعتباطاً ، ولا يحكم بها تشهياً ، وانما يستمع للمدعي ، ويطلب منه البينة والدليل ، ويحكم بما تستدعيه الأصول المقررة .. كذلك علينا نحن ان لا نصدق ، أو نكذب ما نسمع ونقرأ

إلا بعد النظر والبحث . وهذا هو النقد بمعناه الصحيح .

ثانياً : ليس العبرة في صحة النقـــد أن يكون عقـل الناقد صحيفة بيضاء ، لم يُخط فيها حرف واحد ، وانما العبرة ان يعتمد في نقـــده على ما هو مقبول في نظر العقل ، أو مسلم به عنـد الخصم ، فلك أن تنتقد من يقول بأن الأرض مسطحة ، وأنت مؤمن بكرويتها ، عــلى شريطة أن تأتي بالدليل المقنع على بطلان التسطيح وان تقول للمسيحي : انك تخالف كتابك المقدس لأنك لا تمد خدك الأيمن لمن ضربك عــلى خدك الأيسر ، تقول له هـــذا ، وان لم تكن مسيحياً .. وان تقول للمسلمين : انـكم تخالفون أمر القرآن الكريم : واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وان لم تكن مسلماً ، ويكون قولك هذا حجة دامغـة .. وبكلمة،ليس من شرط الناقد ان لا يؤمن ولا يعتقد بشيء ، وانمــا الشرط ان لا يتخذ من ايمانه واعتقاده معياراً لبطلان العقائد الأخرى ، وان لا تحول عقيدته ونظريته دون العدل ومنطق العقل ، وان يعتمـــد على الدليل الذي تسالم عليه العقلاء ، أو آمن به الخصم على الأقل،وبهذا المنطق يقف الناقد موقف المحايد ، وبدونه يعجز عن القيام بمهمة النقد الصحيح ، وان بلغ من العلم ما بلغ .

كتاب وجواب :

كتب إليّ عراقي يقول : انك تهدف مما تكتب الى هدايـة الشباب الى الدين ، وأنا بحمد الله مؤمن متدين ، ولست بحاجة الى من يحببني بالدين،ولكني لا أرى أي شيء من صميم الدين إلا اذا اعترف به عقلي، ورآه حسناً ، أما ما ينكره فأعتقد انه ليس من الدين في شيء ، وانما هو من وضع رجال الدين الذين انحرفوا به عن أهدافه السامية ، امـــا

جهلاً بحقيقته وجوهره واما عن قصد ، ليعيشوا عن طريق الخرافات والأساطير التي يستسيغها البسطاء وأرباب الجهالة .

وهذا القول يردده كثيرون من شباب اليوم خوفاً من وصمة الالحاد، وما دروا انه اعتراف صريح على أنفسهم بالالحاد والكفر ، واقرار عليها بالجهل والحماقة ، من حيث لا يريدون .. ومهما يكن ، فقد أجبت هذا الشاب بما يلي :

أولاً : أجل ، لا شيء من الدين يتنافى مع العقل ، ولكن العقل الذي يناصر الدين شيء ، والذي تراه أنت انه من العقل شيء آخر .. ان للعقل حدوداً تستقل عن رغبات الفرد وأهوائه الشخصية ، واحكاماً يستسيغها جميع العقلاء ، ولا يقتصر قبولها على فرد دون فرد ، أو فئة دون فئة .

ثانياً : ان حكمك بأن هذا صواب ، أو خطأ لا يدل على انه كذلك في واقعه ، وانما يدل على احساسك وشعورك بأنه صواب أو أو خطأ ، وان أبيت الا انه صواب موضوعي ، أو خطأ موضوعي فمعناه انك قد اتخذت من نفسك مقياساً للعقل،وخولتها الحكم على الأشياء باسمه ، وهذا ادعاء مبالغ فيه .

ثالثاً : ان قولك : « لا أؤمن إلا بما لا يراه عقلي » معناه انك لا تؤمن بدين ، ولا بشريعة ، ولا بأخلاق ، ولا تلتزم بشيء إلا بما تستوحيه من نفسك لنفسك ، وهذا يناقض قولك : « أنا مؤمن متدين». وأي انسان تتناقض أقواله وآراؤه ، ولا ينسجم بعضها مع بعض لا يكون في واقعه من أرباب العقائد في شيء ، دينية كانت أو زمنية ، أما ظنه وشعوره هو بأنه من ذوي العقائد الراسخة ، والمبادىء الثابتة فانه نتيجة طبيعية لتناقضه في آرائه ، وانقسامه على نفسه .

رابعاً : لو أخذنا بنظريتك هذه لوجب ان يختلف الدين باختلاف الآراء والأشخاص .. ان المؤمن المتدين هو الذي يأخذ الدين من أهل

المعرفة والاختصاص الذين قضوا السنوات الطوال في البحث عن أحكامه، والتنقيب في مصادره، تماماً كما يأخذ المريض العلاج من الأطباء العارفين، ولا يثق بحدسه وخياله .

وبالتالي ، فان اتهام المرء لآرائه التي لم يأخذها من معينها ومصدرها يقربه من الواقع ، أما الذي يثق بها كل الثقة فانه يعيش في دنيا لا واقع لها ، وفي عالم لا وجود له الا في مخيلته وأوهامه .

الامام

الإمام :

الإمامة في مفهوم الشيعة الإمامية وعقيدتهم رئاسة دينية وزمنية يتولاها رجل عالم بما يصلح الناس في شؤون دينهم ودنياهم ، ويعمل على ذلك دون أن يستأثر عنهم بشيء ، ولا يخطىء في علمه ولا عمله .

فالإمام في حقيقته وطبيعته انسان كسائر الناس لا يختلف عنهم إلا في الصفات التالية :

١ - انه يعلم الشريعة بجميع أحكامها ودقائقها وأسرارها ، تماماً كما هي في واقعها ، وكما نزلت على محمد (ص)، بحيث لا يجوز الخطأ واحتمال الخلاف في معرفته لها ، بخلاف غيره من علماء الشريعة الذين قد يصيبون وقد يخطئون ، ومن أجل ذلك جاز أن يخطّىء بعضهم بعضاً ، ويناقشه بالدليل والبرهان ، أما الإمام فلا تجوز مناقشته والرد عليه بحال.

وتنبغي الاشارة هنا إلى ان الإمامية يعتقدون بأن الإمام ليس واضعاً للأحكام بنفسه ، وجاعلها من تلقائه .. بل ان واضعها ومشرّعها هو الله جل وعز ، وانه بيّنها لنبيه محمد ، وان محمداً (ص) بيّنها للإمام مباشرة أو بواسطة إمام فالإمام علم بها بعد وجودها وتشريعها . وبكلمة

انه مبلّغ عن الرسول ، والرسول مبلّغ عن الله . قال الإمام علي في الخطبة الـ ١٢٨ من خطب النهج : « علمٌ علّمه الله نبيه ، فعلّمنيه ، ودعا لي بأن يعيه صدري وتضطمّ عليه جوانحي » .

٢ – إن الإمام يعمل بالحق ، أي ينسجم مع علمه وقوله ، ولا يحول بينه وبين العمل به هوى ولا خطأ ونسيان .. وأيضاً تنبغي الاشارة – هنا – إلى أن الإمام في عقيدة الإمامية غير مجبور ولا ملجأ إلى العمل بالحق .. بل فيه قدرة نفسية تردعه عن الباطل ، مع قدرته على فعله ، وتدفعه إلى العمل بالحق ، مع قدرته على تركه .

أما الدليل الذي اعتمده الإمامية في اضفاء هذا الوصف على الإمام فهو العقل بضميمة قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم – ٥٨ النساء » . وقوله : « انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون – ٥٨ المائدة » . لأن أمره تعالى بطاعة الإمام – وهو ولي الأمر – واقترانها بطاعته وطاعة الرسول ، يكشف بحكم العقل ان الإمام عالم ومعصوم عن الخطأ في علمه وعمله ، والا لو جاز الخطأ والخطيئة عليه لكان الله مريداً لها ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

٣ – بعد ان فرض ان الإمام يعلّم الحق ويعمل به يكون نصبه وتعيينه للإمامة أمراً طبيعياً غير منوط باقتراع المنتخبين وارادة المحكومين وانما يرشد اليه النبي (ص) ، ويدل عليه كما دل على وجوب الصوم والصلاة ، والحج والزكاة،وهذا معنى قول الإمامية : ان الإمام يعرف بالنص من الرسول الأعظم (ص) ، وقول العارفين من أهل الانصاف بأن صفات علي تنص عليه بالإمامية ، وتعيّنه لها بحكم العقل والعدل .

المثل الأعلى والواقع :

وتقول : ان هذا المبدأ من الوجهة النظرية صحيح ، ومثل أعلى لا

يقبل الشك والجدال ، بل يطمح الى تحققه كل انسان ، ولكن المثل الأعلى شيء، والواقع شيء آخر ، حيث لا نعرف أحداً في هذا الوصف بخاصة في زماننا هذا .

الجواب :

ان الامامية لا يدعون ظهور هذا الإمام الآن ، واتصال الناس به واتصاله بهم فعلاً وانما يقولون : ان الذي تجب طاعته هو العالم المعصوم عن الخطأ والزلل ، فان لم يكن بهذا الوصف فهو غير واجب الطاعة ، ولا منصوب ومختار للإمامة من عند الله ، بل من الذين أرادوه وارتضوه لذلك . وبالاختصار لا يجب على أي انسان ان يتابع ويطيع انساناً آخر إلا إذا كانت متابعته وسيلة للعمل بالحق ، تماماً كمن يحترم العالم لعلمه، ويعظم الأمين لأمانته ، لا لشخصه .. أما طاعة الحاكم لا لشيء إلا لأنه حاكم وكفى ، حتى ولو كان جاهلاً فاسقاً فانها لا تجب عند الإمامية ، بل هي من أعظم المحرمات ، بل تجب معارضته ومقاومته مع الأمن وعدم خوف الضرر .

هذي هي الإمامة التي يعتنقها الشيعة ، ويدينون بها ، كمبدأ وعقيدة فأي بأس بها ، أو محذور يلزمها ؟. وما هي الأضرار والمفاسد المترتبة عليها سوى القول بأنها أمنية ، وحلم من الأحلام الجميلة التي لم يكتب لها الفوز والانتصار .

وجوابنا على ذلك ان إعراض الناس عن القيم والمثل العليا لا يخرجها عن حقيقتها ، ولا يستدعي جحودها وعدم الايمان بها . هذا الى أن الترابط وثيق بين الواقع الاجتماعي وبين أسلوب التفكير . وان التطور والتقدم ينبثق من النظرية الواعية ، وقد تركت عقيدة الإمام المعصوم أحسن الآثار وأقواها في الحياة الانسانية لأنها كانت وما زالت حرباً على الارستقراطية التي تعتمد على المولد والثروة والجاه،وعلى من يحكم ويتحكم في أمور الناس بالقهر والغلبة ، وعلى من يدعي انه يحكم بأمر الله،وهو

منغمس بالجريمة الى أذنيه .. كما انها تناصر الحرية والديمقراطية التي تكل الحكم الى ارادة الناس في غياب الإمام المعصوم .

حكم الحق والعدل :

وبالتالي ، فان الشيعة الإمامية كانوا وما زالو إلى اليوم ، وإلى آخر يوم يدعون الى حكم الحق والعدل بشتى الوسائل ، وهم يطمعون ويأملون ان يتحقق هذا الحكم في يوم من الأيام ، حيث يعتقدون جازمين بأن دولة الباطل ، مهما عظمت وامتد سلطانها ، فانها إلى زوال ، وان النصر في النهاية للحق والعدل .. وهذه الحقيقة قد فطر عليها كل انسان، وان لم يشعر بها ويلتفت اليها . والفرق بين الشيعة وغيرهم ان الشيعة أدركوها ، وعرفوا قبل سواهم ان الحياة لا بد ان تنتهي الى الصلاح والخلاص من الادواء والاسواء ، وان الناس، كل الناس ، سيعيشون في أحسن حال من الخير والرفاهية ، والأمن والعدل .. أما غيرهم فجرى على مبدأه من العمل بالقياس الباطل ، حيث قاس المستقبل الغائب على الشاهد الحاضر ، وآمن بأن الغلبة للشر في كل زمان ومكان .

ابن سبأ :

ولست أعرف أحداً أجهل وأغبى ممن نسب فكرة الإمامة الى عبدالله ابن سبأ ، وانه أصلها وباعثها ، لا أحد أجهل من هذا القائل ، لأن ابن سبأ خرافة لا أساس لها في الواقع ، وشخصيته اختلقها أعداء الشيعة للتشنيع عليهم ، والتنكيل بهم . كما قال الدكتور طه حسين في كتاب « علي وبنوه » وأثبت ذلك بالأدلة الحسية ، والأرقام التي لا تقبل الريب السيد العسكري في كتابه الخطير الشهير « عبدالله بن سبا » الذي طبع أكثر من مرة .

ان المصدر الأول لفكرة الإمامة هو القرآن الكريم ، والسنة النبوية. قال تعالى في الآية ١٢٤ من سورة البقرة : « قال اني جاعلك للناس إماماً » . والآية ٢٤ من سورة الفرقان : « واجعلنا للمتقين إماماً » . والآية ٧٣ من الأنبياء : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » . والآية ٥ من القصص : « ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين». والآية ٢٤ السجدة: « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

وجاء في صحيح البخاري ومسلم ، وغيرهما من كتب الحديث : « الأئمة من قريش » . والتوضيح في الفصل التالي ، فانه متمم لهذا الفصل .

حل المشكلات

المشكلات الاجتماعية :

بماذا تحل مشكلات الجماعة ، وما تعانيه من بؤس وشقاء ومظالم ؟ وما هي الوسيلة التي تقضي على الفقر والمرض والجهل؟ وهل من الممكن أن تعيش الانسانية بلا أحقاد وأضغان ، وفتن وحروب ، أو ان هذه الأدواء والأوباء من لوازم الحياة التي لا تنفك عنها بحال ؟ وبالتالي ، هل لهذه الأسئلة أجوبة حاسمة قاطعة ؟

النظام الشيوعي :

قال من لا يؤمن إلا بالمادة والاقتصاد : ان كل ما في الناس من مظاهر ، وكل ما يصدر عن الانسان يرجع الى نظام اقتصادي انتاجي معين ، حتى الشاعر الذي يتغنى بجمال الطبيعة ، والموسيقي الذي يضع الألحان ، وابتهاج الانسان بالأصدقاء والأخوان ، واغتباط الأم بولدها ، وحتى الحدائق في الدور ، والقطع الفنية على الجدران ، كل ذلك وما

اليه يتولد وينبثق عن الاقتصاد ، بل ان الزهد في الدنيا وما فيها سببه الاقتصاد ، بل ان الكعبة وهيكل سليمان ، والمساجد،والحضرات المقدسة ، وكاتدرائيات القرون الوسطى لم تبن الا وسيلة للمال .. وسقراط الذي شرب السم ، وهو يعلم انه ميت لساعته لم يشربه إلا لدافع اقتصادي ... وكذلك جميع الشهداء الذين تقدموا للموت برباطة جأش وطيب نفس لا دافع لهم إلا الاقتصاد وحده ، لا شريك له ، منه كل شيء،واليه المصير .

ورتبوا على ذلك ان النظام الاقتصادي إذا تغير تغير المجتمع وانحلت مشكلاته ، وعاش في أحسن حال ، وأهدأ بال .

وأيسر عيوب هذا المذهب انه يفصل الانسان عن عقله وعاطفته ، وعن تربيته ومجتمعه ، ويسجنه في نطاق الاقتصاد فقط لا غير .. وليس من شك ان الكثير من الدوافع والصلات بين الناس ترتكز على الاقتصاد، ولكن الشيء الذي تأباه البديهة أن يكون وراء كل ظاهرة للانسان ، وكل موقف عقلي أو عاطفي حاجةً مادية ومصلحة اقتصادية .. ان الانسان يجمع بين الروح والمادة ، وليس في وسعه التخلص من أحداهما ، حتى ولو كان شيوعياً عريقاً في شيوعيته ، لأنه في واقعه انسان كسائر الناس من جسم وروح ، ولكلٍ لوازمه ومقتضياته التي لا تنفك عنه بحال .

النظام الديمقراطي :

وقال أنصار الرأسمالية أو « العالم الحر » كما يسمون أنفسهم : لا حل الا في النظام الديمقراطي وحرية التجارة والتملك .

ويكفي للرد على هؤلاء ان الديمقراطية كما هي عندهم قد انبثق عنها الثراء الفاحش والفقر الفاحش ، وان بلادهم تنتج من الغذاء والكساء والأدوات أضعاف ما يحتاج اليه السكان ، ومع ذلك يوجد فيها الجياع والعراة والمشردون ، والسر ان هذه الديمقراطية قد أفسحت المجال للقلة

القليلة لاحتكار الثروة ومصادرها ، وبالتالي لتحكّمها بحياة الناس ومصيرهم .. ان كلاً من الديمقراطية والشيوعية لا تضمن الحل الصحيح ولا مـا يقرب منـه ، لأن الأولى أخضعت السياسة لرجال المال والاقتصاد ، وحكّمت القلة بالكثرة ، والثانية أخضعت المال والاقتصاد لرجال السياسة المسيطرين على الحكم دون غيرهم ، والنتيجـة الحتمية عدم الحرية هنـا وهناك .

وأعظم اسواء الاشتراكية ، كما هي في روسيا الأم الحنون لهـذا النظام ، واسواء الديمقراطية كما هي عند الأميركيين سادة « العالم الحر » ان تجعلا فناء العالم رهناً بكلمة تخرج من شفتي أحد رجلين غير معصوم عن الأخطاء ، ولا منزه عن الأهواء . والرجلان همـا رئيس اميركا ، ورئيس روسيا . أما الكلمة فهي الأمر بالقاء القنبلة الذرية على من يشاء من العباد والبلاد ، ومن الذي يأمن ويضمن أن لا يصاب أحـد هذين بنوبة عصبية مفاجئة ما دام غير معصوم ، فيصدر الأمر بالفناء ، وتتحقق الكارثة بين عشية وضحاها ؟.

العلم :

وقال آخرون : الحل الصحيح انما هو في تقدم العلوم .

والجواب : ان الناس لم يخشوا في يوم من الأيام من الخراب والدمار الشامل ، كما يخشونه اليوم ، حيث تقدم العـلم ، وحيث أصبح العلماء أدوات في أيدي الحاكمين والمتولين يسيرونها في المصانع والمختبرات وفقاً لاهوائهم وأغراضهم .

الجنس :

وقالت فئة تدعي انها من أتباع « فرويد » الطبيب النفسي الشهير ؛

قالت هذه الفئة : ان الحل يكمن في اباحة النساء للرجال ، حتى المحارم وانه كلما زادت الحرية الجنسية كلما كان ذلك خيراً للانسانية .

وهذه دعوة خبيثة الى انطلاق الانسان مع نزواته الحيوانية ، والخروج به عن انسانيته الى طبيعة البهائم والانعام ، بل أحط وأدنى[1] .

الإمام المعصوم :

وقال الشيعة الإمامية : ان الحل الصحيح الدائم هو في حكم حاكم عالم معصوم عن الخطأ والزلل . أما معرفة هذه الفكرة وبواعثها فيتضح مما يلي :

ان للانسان حاجات يستدعيها أصل وجوده بما هو موجود بصرف النظر عن أي شيء آخر ، فكما انه في وجوده يحتاج الى حيز يشغله كذلك يفتقر في حياته واستمرارها الى الغذاء والمأوى والكساء وما اليه مما لا بد منه ولا غنى عنه .

ويضاف الى هذه الحاجات التي يستدعيها كيانه الطبيعي حاجات أخرى يقتضيها وجوده الاجتماعي ، كالزواج الشرعي والتعليم والأمن والمساواة ونحوها ، وسد هذه الحاجات حق من حقوق الانسان ، ولكن أية قوة تحفظها له وتضمنها ؟ هل التشريعات والقوانين ،أو الارشادات والمواعظ ، أو الايمان بالمثل والمبادىء ، أو التعليم والتثقيف ؟

وقد امتلأت الدنيا بالتشريعات والقوانين ، ولكن يعوزها التنفيذ والتطبيق ، حتى على الذين وضعوها وشرّعوها . أما الوصايا والمواعظ فانها أشبه بالجرائد اليومية تُقرأ ثم تترك للصرّ أو لسلة المهملات،وليست

---

[1] سمعت من يقول : ان فكرة اشاعة الأموال والاعراض اختلقها الصهاينة ، لبلبلة الأفكار ، وصرف الأنظار عن خططهم من أجل السيطرة على العالم .

القيم والمثل بشيء عند الأكثر أمام تهديد المصالح والمنافع ، فلم يبق الا الانسان الكامل الذي يعلم حاجات الناس وما يصلحهم ، ويملك القوة لدفع الضرر عنهم ، وجلب المنافع لهم ، ولا همّ له الا أن يستريحوا ويسعدوا ، ولا يفضّل نفسه بشيء ، حتى عن أضعفهم ، فان شبعوا كان آخر من يشبع ، وان جاعوا فهو أول من يجوع . وبكلمة يكون مصداق الآية الكريمة : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » وللحديث الشريف: « انما أنا رحمة مهداة » تماماً كرب العائلة العطوف الذي يشعر بأنه مسؤول عن كل فرد من أفرادها ، ويضحي بحياته في سبيلها .. وبديهة ان هذا لا يكون ولن يكون الا لمن عصم الله ، وأقصى عنه الأهواء والرغبات الا الرغبة في الخير والصالح العام .

الآيات والأحاديث :

جاء في بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ان لأعمال الجماعة التي ترتكز على الايمان والعدالة صلة وثيقة بسعادتها في هذه الحياة ، وبُعدها عن المصائب والويلات ، وان تهاونها في الحق ، واصرارها على الفساد وارتكاب الحرام له تأثير فعال في شقائها ، وما تعانيه من الأسواء والبلاء .

قال تعالى : « ولو ان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون — ٩٥ الاعراف » . وقال : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم — ١٢ الرعد » . وقال : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم — ٥٤ الأنفال » . وقال : « ولو انهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم[1] — ٦٦

---

[1] من فوقهم كناية عن خيرات السماء ، ومن تحت أرجلهم كناية عن خيرات الأرض .

المائدة » . وقال : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون – ٤١ الروم » . وقال : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم – ٣٠ الشورى » ، وما إلى ذلك من الآيات ، ويستفاد منها أمور :

١ – ان ظهور الفساد ، ومنه الفقر والمرض والجهل ، انما هو من حكم الأرض لا من حكم السماء ، ومن أيدي الناس باماتة الحق واحياء الباطل ، لا من قضاء الله وقدره ، وان أية جماعة عرفوا الحق وعملوا به عاشوا في سعادة وهناء .

٢ – ان التعبير في الآيات الكريمة بقوم وبالناس يدل على ان الشقاء مستند الى عصيان الجماعة ، وان مجرد صلاح فرد من الأفراد لا يجدي شيئاً ما دام بين قوم فاسدين ، بل ربما جر صلاحه عليه البلاء والشقاء لوجوده في بيئة فاسدة ، قال جل وعز : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة – ٢٥ الأنفال » أي ان الآثار السيئة لمجتمع من المجتمعات تعم جميع أفراده الصالحَ منهم والطالح .. فان الشعب الخانع الخاضع للعسف والجور لا بد أن يعيش أفراده في الذل والهوان ، حتى الأحرار الطيبين .

أما الأحاديث في هذا الباب فلا يبلغها الاحصاء ، منها : « ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم أشرارهم » ونقض العهد هو عدم العمل بالحق والأمر به ، ومنها : « وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر .. وما حبسوا الزكاة إلا حبس عنهم المطر » والمطر هنا كناية عن الخيرات ، ومنها : « إذا لم يحكموا بما أنزل الله جعل بأسهم بينهم .. وإذا عملوا بالمعاصي صرفت عنهم الخيرات .. ثلاثة تعجل عقوبتها ، ولا تؤخر الى يوم القيامة : عقوق الوالدين ، والبغي على الناس وكفر الإحسان .. » ومنها : « إذا كذب السلطان حبس المطر وإذا جار هانت الدولة » .

وفي الدعاء المروي عن الإمام : « اللهم اغفر لي الذنوب التي تغير النعم ، اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء ، اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء ، اللهم اغفر لي الذنوب التي تقطع الرجاء » .

وعمل المعاصي والحكم بغير ما أنزل الله ، ونقض العهد والبغي على الناس وكذب السلطان — كل ذلك وما اليه مما جاء في الحديث والقرآن كناية واضحة وتعبير صريح عن فساد الأوضاع والمظالم الاجتماعية، وعن « التراست » والتنافس على السيطرة واحتكار الثروات ، وعن الفوضى والفساد والتهتك والخلاعة ، ونحوها . وقد اتفقت في هذا العصر كلمة المؤمنين والجاحدين والروحيين والماديين ان فساد الأوضاع سبب الانحطاط والتدهور والشرور والويلات . لقد كشف الاسلام عن الصلة الوثيقة بين فساد الأوضاع وبين آلام الانسانية ، ومدى تأثير تلك في هذه . وسبق الى معرفة هـذه الصلة كل مفكر ومصلح وعالم من قادة الاشتراكية والشيوعية والديمقراطية وغيرهم . ولكن ما الحيلة في الجهل « المطبق » ان صح التعبير الذي ينسب كل فضيلة ومعرفة الى الأجنبي البعيد، وينفيها عن أهله وقومـه الذين هم أصلها ومصدرها ، وأولها وآخرها ، وان كان لدى غيرهم من شيء يُذكر فعنهم أخذوا ، ومنهم اقتبسوا ؟..

٣ — ان المراد بالايمان والتقوى في الآيات والأحاديث هو — بعـد الايمـان بالله — التصديق بالخير كمبدأ ، والعمل الصالح النافع للفرد وللناس أجمعين . أما لبس المسوح ، واقامـة الشعائر دون ان تعمر القلوب بروح التدين الصحيح فليس من الإيمان في شيء .. وقد جاء في الحديث : « ما آمن بالله من بات شبعاناً وأخوه جائع .. خير الناس أنفع الناس للناس .. من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم .. عـدل ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة » .

وهذا الإيمان بمعنى العمل الانساني الذي ينتج السعادة الشاملة لا يتحقق ولن يتحقق إلا اذا تولى السلطة إمام فوق الشبهات ، لا يجوز عليه الخطأ

والخطيئة . أما إذا تولاها من لا حصانة له فلا محيص عن وجود المشكلات والنكبات ، سواء أكان الحاكم فرداً أو فئــة ، ما داموا جميعاً عرضة للاخطاء والميل ، مع الأهواء .. وبهذا نجد تفسير ما جاء في الحديث : « ان في ولاية العادل احياء الحق كله ، واحياء العدل كله . وان في ولاية الجائر دروس الحق كله ، واحياء الباطل كله » ، وتفسير قول أمير المؤمنين : « اذا أدى الوالي حق الرعية عز الحق بينهم ، وقامت مناهج الدين ، واعتدلت معالم العدل ، وجرت على أدلتها السنن ، فصلح بذلك الزمان » . وقــد اشتهر على الألسن : اذا اعتدل السلطان اعتدل الزمان .

أما الإيمان بمعنى الصوم والصلاة ، وبناء المساجد ، ورفع المــآذن فيتحقق مع وجود المعصوم وغيابه .

وبالتالي ، فان الإمامية يعتقدون بأن الحضارة والمدنية والتقدم بمعناه الصحيح لا يكون إلا بإقامة العدل ، واشاعــة الأمن والرفاهية ، والا بالقضاء على الظلم والفقر والجهل ، وان بناء المجتمع الصــالح السليم في دينه ودنياه لا يتم إلا على يــد إمام معصوم أو عالم عــادل .. ومن تتبع ، وتدبر القرآن الكريم ، والسنة النبوية يجد لهــذه العقيدة جذوراً ثابتــة فيها ، وأصولاً جلية واضحة لا تقبــل التأويل ، ولا القال والقيل .

حكم الفرد :

وتقول : ان حصر السلطة بالإمام المعصوم معناه حكم الفرد الذي لا يناط بإرادة المحكومين وانتخابهم ، وليس من شك أنه غــير مرغوب فيه في هذا العصر .

الجواب ·

ان المنتخب حقاً هو الذي يعمل على سعادة المحكومين ومصلحتهم ، أما مجرد رفع اليد والادلاء بالصوت فليس من الانتخاب الصحيح في شيء اذا انحرف المنتخب مع أهوائه ، وعمل لصالحه ومنفعته ، بخاصة اذا كان الناخب مرتشياً أو جاهلاً ومخدوعاً مضللاً بالدعايات الزائفة والمواعيد الكاذبة ، كما هو الشأن في جميع الانتخابات أو أكثرها ؛ ومن هنا جاء في القرآن الكريم : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون – ١٨٦ الاعراف » : « وأكثرهم لا يعقلون – ١٠٦ المائدة » : « ولقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون – ٣٤ التوبة » .. اذن وجود الحق لا يناط بارادة الموافق أو المخالف ، فان للانسان تمام الحرية في أن يقعد أو يقف ، ولكن ليس له أن يترك الحق ويفعل الباطل ، بل ليس له أن يختار المفضول مع وجود الأفضل . وقد روى السنة والشيعة عن النبي انه قال : « من استعمل رجلاً من عصابة ، وفيهم من هو أرضى منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » .

وعلّق أديب معاصر على هذا الحديث بقوله : « أجل ان الأيدي القوية النظيفة العادلة البارة هي وحدها التي تؤمَن على مصاير الخلق ، وحاجات الناس . ان الحكم تضحية لا تجارة ، وخدمة لا استيلاء » .

وبكلمة ان المعصوم هو الحق مجسماً في شخصه ، والعدل المحسوس الملموس ، ومن هنا وجبت طاعته ، وحرمت مخالفته ، يضاف الى ذلك كله انه ليس في ميسور أيما امرىء أن يمثل غيره تمثيلاً حقيقياً ، كما أثبتت التجارب .

نظام الإمام :

ما هو النظام الذي يطبقه الإمام ويعمل به ، لو تولى الحكم ؟ هل هو النظام الرأسمالي أو الاشتراكي ؟

الجواب :

ان نظامه أفضل نظام للبشرية على الاطلاق ، فهو يجمع بين صلاح الدين والدنيا للجماعات والأفراد ، ويسير بهم جميعاً في طريق الرفاهية والازدهار والأمن والعدل ، ويحفظ الحرية والكرامة للجميع ، ولا يدع مجالاً للطمع والجشع ، ولا للاستغلال وسيطرة فئة على فئة ، أو فرد على فرد .. وبكلمة انه نظام الانسانية الذي يحقق الخير والصلاح العام في شتى الميادين بدون استثناء ، وبعد هذا سمه بأي اسم شئت .

وتحقيقاً للهدف المطلوب يُترك للامام اختيار الوسائل التي تحققه من التأميم وغيره اذ بعد ان افترض فيه العصمة يكون له جميع ما للنبي (ص) من الولاية على الأنفس والأموال .. وبديهة ان العصمة تنأى بـه أن يفعل الا لمصلحة المولى عليه . قال السيد محمد بحر العلوم في كتاب « البلغة » : « ان سلطة الإمام على الرعية ليست كسلطة السيد على مملوكه ، الجائز له التصرف لمحض التشهي .. بل لمصلحة ملزمة راجعة الى نفس المولى عليه ، لأن الإمام في مرتبة المكمل للنقص الذي اقتضى اللطف وجوده » .

واللطف عند الإمامية ما يقرب الانسان من الخير ، ويبتعد به عن الشر ، وهي مهمة الإمام المعصوم .

وبهذا يتبين معنا ان الإمامية آمنوا بفكرة الإمام المعصوم ، ووجوب حصر السلطة به للآيات والأحاديث ، ولتحقق السعادة الدنيوية والاخروية التي يطمح اليها كل عاقل ، ونعيد هنا الملاحظة السابقة مع جوابها ، أما الملاحظة فهي ان فكرة الإمام المعصوم صحيحة كنظرية ، أما من الوجهة العملية فأين هو هذا الإمام حتى نطيعه ونتابعه ؟

والجواب :

أولاً : إنا نتخذ من هذه النظرية سلاحاً ضد حكام الظلم والجور .

ثانياً : ان كل نظام وجد ، وعمل به نشأ أول ما نشأ في عالم

العقل ثم تحوّل الى العمل .. وقد بقيت الاشتراكية نظرية بحتة وفلسفة مجردة يدور حولها النقاش والجدال السنين الطوال قبل أن تبرز الى حيز الوجود .

قال « برتراند راسل » في كتاب « راسل يتحدث عن مشاكل العصر » : « ان الفلسفة تتألف من التخمينات حول الأشياء التي لا يمكن بعد أن تتوفر المعرفة الدقيقة المضبوطة بها .. وانها تحافظ على استمرار ملكة التصور والتخمين في دقائق الأشياء .. واني لا أريد لمخيلات الناس ان تكون محصورة محدودة ضمن ما يمكن أن يكون معلوماً في الوقت الحاضر .. وقد استنبط الفلاسفة القدامى مجموعة كاملة من الفرضيات والنظريات التي ثبت نفعها وصحتها فيما بعدُ ، والتي لم يمكن اختبارها يومذاك » .

وإذا تحققت نظريات الفلاسفة وافتراضاتهم بعد ألفي عام ، أو أكثر — وقد كان يظن انها محال — فمن الجائز اذن ، ان يظهر الإمام المعصوم ويتولى السلطة ، وتحل حكومته جميع مشكلات العالم ، ولو بعد سنين ، حيث تمهد الأسباب وتوجد المقتضيات .

ثالثاً : ان لكل مشكلة اجتماعية حلاً في نفس الأمر والواقع تختلف الأنظار في تحديدها ، وبيان حقيقتها ، ويرى الإمامية ان المشكلات الاجتماعية لا تحل ولن تحل حلاً جذرياً كلياً الا اذا حكم إمام معصوم وبدونه تحل المشكلات حلاً موقتاً أو جزئياً ، ذلك ان الصواب لا يأتي من الخطأ ، والحق لا يتولد من الباطل .

هذا ، الى ان التجارب أثبتت وجود الترابط الوثيق بين اصلاح المجتمع ، وبين السلطة السياسية ، بخاصة بعد أن سيطرت الحكومه على جميع مظاهر الحياة من التربية والتعليم والعمل والأشغال والصحة والزراعة والدعاية والأنباء والشؤون الاجتماعية والقضاء .. وقد كانت مهمتها من قبل تنحصر في الدفاع عن الحدود من العدو في الخارج ، وحفظ الأمن

في الداخل ، فاذا لم تكن السلطة معصومة عن الخطـأ والزلل لم يتحقق الغرض المقصود منها ، وهو الصلاح والاصلاح الشامل الكامل .

رابعاً : ان نظام الحكومة البدائية كان أشبه بالنظام القبلي ، بل هو هو ، ثم تقدمت الحكومة مع الحياة شيئاً فشيئاً في شكلها ونظامها، حتى أصبحت حيث نراها اليوم . ويعتقد الإمامية انها ستتقدم بعدُ أكثر فأكثر ، حتى تبلغ الغاية في الكمال ، ويعيش الناس في ظلها سعداء آمنين،وتكون نسبة الحكومات الحاضرة اليها ، تماماً كنسبة الحكومة البدائية الى حكومات اليوم . وما ذلك على الله بعزيز . أما مصدر هذا الاعتقاد فهـو فكرة الإمام المعصوم .

وبعد هذا ، فهل تراني بحاجة الى القول : ان فكرة الإمام المعصوم لا تتصادم مع منطق العقل ، بل يؤازرها ويناصرها . وان من يعارض هذه الفكرة فانما يعارض ويعاند الحق والخير والعدل،من حيث لا يريد .

الدولة العامة العادلة

هذا الفصل :

نقلنا في الفصل السابق الأقوال في حل المشكلات وعلاج المعضلات الاجتماعية ، وانه يكمن في حرية التجارة والتملك عند الديمقراطيين « العالم الحر » ، وفي الاشتراكية ، أو الشيوعية لدى خصومهم ، وفي تقدم العلم عند آخرين ، وفي اباحة الجنس على رأي .. ولم نشر إلى قول من قال : لا علاج ولا شفاء إلا في الدولة العامة لجميع سكان المعمورة .. حيث كان العزم على أن نعقد فصلاً مستقلاً ، لأهميته من جهة ، ولاتصاله الوثيق بظهور الإمام المعصوم ، وعموم سلطانه من جهة أخرى.

حاكم واحد :

في سنة ١٨٣٨ أعلن الفيلسوف الأميركي « ويليام لويد غاريسون » المبادىء التي يؤمن بها ، فقال فيما قال :

« لا يمكننا أن نعترف بالولاء لأية حكومة بشرية ، إننا نعترف فقط بملك واحد ، وبمشروع واحد ، وبقاض واحد ، وبحاكم واحد للجنس

البشري .. ان بلادنا هي العالم ، وكل الجنس البشري هم أبناء بلادنا ، إننّا نحب أرض بلادنا بمقدار ما نحب البلدان الأخرى ، فمصالح المواطنين الأميركيين وحقوقهم وحرياتهم ليست أعز علينـــا من تلك التي للجنس البشري »[1] .

ومن قبله بقرون قال الأديب الايطالي الشهير « دانتي » :

« يجب أن تخضع الأرض بكاملها ، وكل شعوبها لأمير واحد يمتلك كل ما يحتاج اليه ، فلا تنشأ عنده الرغبة في شيء لا يملكه .. فيخيم السلام ويحب الناس بعضهم بعضاً ، وتحصل كل عائلة على جميـــع ما تحتاج اليه »[2] . وهذه الدولة التي يعم فيها الخير ولا تقيم وزناً الا للتقوى هي التي دعا اليها القرآن الكريم والنبي العظيم ، وآمن الإمامية بصاحبها الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً . وغريب أن يسخر من كلمة « يملأ الأرض قسطاً وعدلاً » مثقف يدعي المعرفة بالأفكار والاتجاهات الغربية ، وهو أجهل الناس بالقديم والجديد ، وبآراء النيّرين في الشرق والغرب .

ان لهذه الفكرة جذوراً ثابتة في جمهورية افلاطون الذي سبق عصر السيد المسيح بأكثر من ثلاثة قرون ، وفي أقوال القديس اوغسطين ، وفي المدينة الفاضلة للفارابي ، ولها أنصار كثر من الفلاسفة والعلماء والأدباء والقديسين ، منهم صموئيل جنسون الانكليزي الذي قال : « الوطنية آخر ما يلجأ اليه الوغد » .. و « ليسنغ » الألماني القائل : « متى لا تعد الوطنية في عداد الفضائل » . ومنهم « فولتير » الأديب الفرنسي الشهير الذي قال : « يكون للفرد وطن واحد اذا كان يحكمه ملك صالح ، ولا يكون له أي وطن اذا كان يحكمه ملك شرير » .. ومن أقوال هذا المفكر : « ما تمنى أحد العظمة لبلاده الا تمنى التعاسة

---

1 تكوين العقل الحديث ج ٢ ص ٤١٨ طبعة ١٩٥٨ .
2 المصدر السابق ج ١ ص ١٧٠ .

للآخرين » .. وقال غوته : « ان وطني الخير والنبل والجمال .. وبوسعنا أن نجد الراحة في الاتجاه الكوني » الى غير ذلك من أقوال المفكرين ، من اليساريين والمحافظين[1] . ومن الداعين لهذه الفكرة في هذا العصر « برتراند راسل » الفيلسوف الانكليزي الشهير .

ان هذا المبدأ الذي هو في حقيقته التدين بوجوب الوحدة العالمية ، والولاء لقائدها الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، وحضارة تنعم بالسلام والنظام والرفاهية والازدهار . ان هذا المبدأ من أهم الفروق التي ميزت عقيدة التشيع عن غيرها من العقائد .

علة العلل :

لقد رأى الاسلام وهؤلاء الدوليون ان القومية مظهر غير طبيعي ولا عقلي ولا انساني ، وان الحدود الأرضية الجغرافية تفصل الانسان عن أخيه الانسان ، وبالتالي تعزله عن واقعه وانسانيته ، وان التعصب والاضغان وحب السيادة والسيطرة والتنافس على قيادة العالم ، واحتكار الثروات ومصادرها ، كل هذه وما اليها كمشكلة الأقليات وحماية الأجانب والشعوب المختلفة ، والدول الضعيفة ، والحروب والاستعمار لا مصدر لها الا القوميات والحواجز الأرضية ، فهي السبب الأول ، وعلة العلل ، ومتى اتحد العالم أجمع في دولة واحدة بقيادة حكيمة منزهة عن الأهواء ، بعيدة عن الأخطاء اتجه كل انسان اتجاهاً كونياً ،وشعر شعوراً

---

١ بالامس القريب أصدر عشرة من الأعضاء المحافظين في البرلمان الانكليزي كتاباً بعنوان « سلطة للامن » يشرحون فيه وجهة نظرهم بانشاء حكومة عالمية ، واستدلوا بتصريحات مكملان رئيس الوزارة ، ودنكان وزير الدفاع البريطانيين .

انسانياً شاملاً لا يحده وطن ، ولا ينحرف به تعصب الى عنصر أو أرض أو أي شيء .

وهذا تعبير ثانٍ عن فكرة الإمام المعصوم الذي قال الشيعة : انه يخرج في آخر الزمان ويوحد العالم تحت راية واحدة ، ويملأ الأرض عدلاً ، ويساوي بين الجميع حتى لا يُرى محتاج ، ولا تراق محجمة من دم .. ان الشيعة يؤمنون ايماناً لا يخامره الشك بهذه الدولة الشاملة وحضارتها الكاملة التي لا يوجد في ظلها كبير وصغير ، قوي وضعيف ، بل كلهم أقوياء أغنياء صلحاء ، انهم يؤمنون بها وبحضارتها كعقيدة راسخة ، لا كأمنية وأحلام ، كما هو شأن الطوبائيين . كما انهم يؤمنون أيضاً بأن الحضارة حقاً ليست في تقدم الصناعات وتكديس الثروات ، بل بإشاعة العدل والسلام وشمول الخصب ووفرة الطعام .

ولم يستوحوا هذه العقيدة من تاريخهم وبؤسهم ، ومن المظالم التي وقعت عليهم من الطغاة وحكام الجور – كما قيل – بل استقوها من الوحي الذي نزل على قلب محمد (ص) وأحاديثه التي امتلأت بها صحاح السنة والشيعة ، فقد أكدت وجود هذه الدولة وعدالتها وحضارتها وأخبرت عنها بشتى الأساليب والعبارات ، ووضع لها الشيخ الصدوق الذي مضى على وفاته أكثر من ألف عام ، كتاباً خاصاً في مجلدين كبيرين ، أسماه « اكمال الدين واتمام النعمة » ، كما خصص لها العلامة المجلسي المجلد الثالث عشر من بحاره .

الجاهل والمتشائم :

وإذا سخر من هذه الفكرة الجاهل الذي لا يرى إلى أبعد من أنفه ، واستبعدها المتشائم الذي لا ينظر إلا بمنظاره الأسود القاتم فإننا نؤمن بها ايماننا بالله ، وبأنفسنا : « انهم يرونه بعيداً ونراه قريباً » ومنطق العقل

والحق معنا ، أليس العالم في تغير مستمر ، والتماسك الاجتماعي في تقدم مطرد ؟!. اذن ، لا بد ان يصغى الى صوت العقل والضمير ، فيترك التعصب ، ويتنازل عن الأنانية في يوم من الأيام ، ويهدم الحواجز بين الانسان في أقصى الشرق ، وأخيه الانسان في أقصى الغرب . وهذا «راسل» أحد قادة الفكر في هذا العصر يقول : « من الممكن تطوير الأمم المتحدة ، بحيث تصبح نواة لحكومة عالمية .. واني لأرى عندما أسرح بخيالي عالماً من المجد والفرح ، عالماً تنطق فيه العقول .. كل هذا يمكن أن يحدث إذا سمحنا له » . (كتاب برتراند راسل الانسان لرمسيس عوض) .

واذا قال راسل وغيره : ان هذا لا يمكن إلا اذا سمحت الأجيال ، فنحن نقول مؤمنين ايماناً لا ريب فيه بأنه سيحدث لا محالة. ، سمحت الأجيال أو لم تسمح ، لأننا على يقين بأن العاقبة للخير والفضيلة ، مهما طال الزمن ، سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً .

من هو الرجعي ؟

وبالتالي ، فان فكرة الإمام المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً فكرةٌ تقدمية علمية وواقعية ثورية[1] تهدف الى القضاء على الظلم والضعف وكل ما يعوق الحياة عن التقدم. ان فكرة صاحب الأمر والزمان لهي فكرة المجتمع النهائي الكامل في دينه ودنياه ، فكرة المجتمع الذي يحطم الحدود والسدود بين الانسان وأخيه الانسان ، ويقضي على التعصب والاضغان. انها فكرة الدولة الطاهرة النقية، ومجتمع المساواة والاخاء والحب والصفاء .

---

[1] كل حركة من شأنها أن تغير الوضع الاجتماعي أو الاقتصادي أو الفكري إلى أحسن ، فهي حركة ثورية ، أما هذه الشعارات المزيفة التي نراها اليوم هنا وهناك فانها لصوصية مبطنة .

اما الرجعيون حقاً ، اما الجاهلون جهلاً « مطبقاً » فهم الذين يرون هذه الفكرة سفهاً وهراء ، وفساداً وهباء .. وطبيعي ان يكذّب هؤلاء بالإمام المعصوم ، وينكروا وجود صاحب الأمر الذي يملأ الدنيا عدلاً بظهوره .. انه لطبيعي أن يكذبوا ويجحدوا ، لأنهم لا يجدون في دولته مكاناً للخونة والمنافقين الذين يبيعون دينهم وضميرهم للشيطان بأبخس الأثمان .

المهدوية واحمد امين

أحمد أمين كاتب منتج ما في ذلك ريب ، وقد سد انتاجه فراغاً غير قليل ، كما يرى كثيرون ، حيث انتهج في دراسة التاريخ الاسلامي نهجاً جديداً لم يسبقه اليه عربي من قبل ، ولكنه – كما هو في حقيقته كاتب طائفي لا واقعي ، فلقد عجز أن يتحرر من طائفيته وتربيته وبيئته ، برغم انه حاول ذلك ، وانضم الى دار التقريب الا ان العصبية الطائفية تغلبت – ويا للاسف – على معرفته وذكائه ، وجميع مؤهلاته .

وتقول : ان عين الشيء يصدق فيك ، ويقال عنك، حتى حكمك هذا على أحمد أمين لا مصدر له الا العصبية الطائفية ، لأنه قال الكثير مما يؤذي الشيعة ويسيء اليهم .. فأنت اذن تستنكر من غيرك ما تستحسنه من نفسك .

وجوابي عن هذا : اذا كنت أنا متعصباً كأحمد أمين ، فكن أنت منصفاً يصغي الى منطق العقل ، وينظر الى الواقع لا الظاهر، والى القول لا الى القائل .. كن قاضياً مجرداً يستمع إلى أقوال الطرفين ، ثم يحكم بما يوحيه دينه ووجدانه ، وما يستدعيه منطق الحوادث ودلالة الأدلة الحسية ، بل نكتفي منك هنا ، وما نحن بصدده أن تستمع بتدبر وتعقل إلى أقوال أحمد أمين وحده ، وتحكم من خلالها له أو عليه .

في سنة ١٩٥١ ألّف أحمد أمين كتاب « المهدي والمهدوية » ونشرته دار المعارف بمصر في سلسلة « اقرأ » رقم ١٠٣ . وقد هدف من وراء تأليفه إلى انكار المهدي والرد على الشيعة ، ولكنه في الواقع أيدهم وناصرهم من حيث لا يريد ، أو من حيث يريد الرد عليهم، وان دل هذا التناقض على شيء فانما يدل على صدق ما قلناه من انه كاتب طائفي لا واقعي ، واليك الدليل :

قال في ص ٤١ : « أما أهل السنة فقد آمنوا بها أيضاً » أي بفكرة المهدي .. وفي ص ١١٠ : « واما السنيون فعقيدتهم بالمهدي أقل خطراً » .. وفي هذه الصفحة : « قد كتب الإمام الشوكاني كتاباً في صحة ذلك، سماه التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر والدجال والمسيح » .. وفي ص ١٠٦ : قرأت رسالة للاستاذ أحمد بن محمد بن الصديق في الرد على ابن خلدون ، سماها « ابراز الوهم المكنون من كلام ابن خلدون . وقد فند كلام ابن خلدون في طعنه على الأحاديث الواردة في المهدي ، وأثبت صحة الأحاديث ، وقال : « انها بلغت حد التواتر » .. وقال – أي أحمد أمين – في ص ١٠٩ : « قرأت رسالة أخرى في هذا الموضوع عنوانها: الاذاعة لما كان ويكون بين يدي الساعة، لأبي الطيب ابن أبي أحمد بن أبي الحسن الحسيني » .. وفي ص ٤١ : « وقد أحصى ابن حجر الأحاديث المروية في المهدي ، فوجدها نحو الخمسين » .

إذن ، ليس القول بالمهدي من خصائص الشيعة ، بل آمن به السنة، وروو فيه خمسين حديثاً ، وألفوا في وجوده واثباته الكتب ، ومما دام الأمر كذلك باعتراف أحمد أمين نفسه فلماذا نسب القول به الى وضع الشيعة ، كما جاء في ص ١٣ و ١٤ ، حيث قال ما نصه بالحرف : « وأذاع الشيعة فيهم – أي في أهل المغرب – فكرة المهدي، ووضعت الكلمة على لسان رجل ماهر ، اسمه عبدالله الشيعي ، يدعو للمهدي المنتظر » .

وبعد ان اعترف أحمد أمين ـ مرغماً ـ بأن السنة أيضاً يؤمنون بالمهدي المنتظر أحس انه في مأزق ، وانه لا بد أن يقال : ان الشيعة محقون في عقيدتهم ، مع أنه يريد ادانتهم على كل حال ، فاستدرك وقال : ولكن عقيدة السنة بالمهدي أقل خطراً ..

وليت شعري كيف يجتمع قوله هذا ، مع قوله في ص ٤١ : «ان فكرة المهدي والتشيع كانت سبباً لثورة شبت ودامت سنين ..» وقوله في ص ٣٣ : « ومن فضل الشيعة انهم كانوا في بعض مواقفهم ، وفي اعتقادهم بالأئمة المهتدين يؤيدون الدين » .. ومع قوله في ص ٣٤ : « ومن فضل الشيعة انهم كانوا مؤمنين، يدافعون عن الاسلام في الخارج ضد الصليبيين الذين يهجمون على بلادهم ، وفي الداخل ضد من أنكر الدين ، وجحد النبوة » .. وفي ص ٣٧ : « ولكن الحق يقال ان التشيع دائماً ينصر الفلسفة أكثر مما ينصرها السنيون » .

وإذا كان الشيعة يدافعون عن الاسلام والمسلمين، وإذا كانوا يناصرون الفلسفة أكثر من السنة ، وإذا كانت عقيدتهم بالمهدي والأئمة المهتدين تدفعهم إلى الثورة على الظلم والظالمين .. فكيف اذن تكون عقيدة السنة بالمهدي أقل خطر ؟! ألا يدل هذا التناقض على طائفيته وتعصبه ، وانقسامه على نفسه ؟!

ولسنا نستكثر على أحمد أن ينكر وجود المهدي المنتظر ، ويخالف المسلمين جميعاً السنة منهم والشيعة بعد أن أنكر عصمة الرسول الأعظم (ص) صراحة . قال في ص ٩٥ : « وقد ثارت خلافات في عصمة الأنبياء بالطبيعة ، ورووا ان رسول الله (ص) قال : توبوا إلى ربكم ، فاني أتوب اليه في اليوم مئة مرة ، وقال : انه ليغان على قلبي[1] . فهذه الأحاديث ونحوها لا تؤيد معنى العصمة التامة » .

---

[1] أي غيمت الشهوة على قلبه .

وبديهة ان الاسلام بعقيدته وأخلاقه وشريعته ، وجميع تعاليمه وأحكامه يرتكز على عصمة محمد (ص) ، فمن أنكرها أو شك فيها فقد أنكر أو شك في الإسلام ، وبنبوة سيد الأنام من الأساس .. لأن الغاية من نبوته ورسالته رفع الخطأ من الهداية وحمل الخلق على الحق ، فإن لم يكن معصوماً فلا يتحقق المقصود منها ، وبالتالي لا يكون نبياً .. استغفر الله وأعوذ به من الشك والغفلة .

وبهذا يتبين معنا ان كتاب « المهدي والمهدوية » ليس رداً على الشيعة فحسب ، وانما هو في واقعه رد على الاسلام والمسلمين ، وإذا تحامل على الشيعة أكثر من تحامله على غيرهم ، فانه مدحهم وذم السنة بمنطق التاريخ ، ومن حيث لا يحس ولا يريد ، قال : ان أدباء السنة كانوا يمدحون الطغاة ، وحكام الجور ، أما أدباء الشيعة فكانوا يمدحون أئمة الهدى والحق ، فقد جاء في ص ٨٦ من كتاب « المهدي والمهدوية » : « ولئن كان كثير من الأدب السني كان يقال في مدح الخلفاء والملوك والأمراء السنيين ، فان الأدب الشيعي كان يقال في مدح الأئمة والرثاء الحار في قتلاهم » .

أجل ، مدح أدباء السنة الطغاة وحكام الجور رغبة في المال والحطام . ومدح أدباء الشيعة أئمة الهدى والعدل ايماناً بالله وعظمته ، وولاء للرسول وأهل بيته ، ولم يثنهم عن هذا الإيمان والولاء القتل والصلب ، ولا السجن والتشريد ، ولا التقييد بالسلاسل والأغلال ، ولا قطع الأيدي والأرجل ، بل ولا الدفن تحت التراب أحياء .. ذلك ان الشيعة يسخون بحياتهم ورؤوسهم ، ولا يسخون بدينهم وعقيدتهم . أما الانتهازي فلا دين له ولا مبدأ إلا الدراهم والدنانير .

قال أحمد أمين في ص ٨٥ : « ان الشيعيين اضطهدوا من السنيين ، وكانوا يدعون — أي السنة — انهم يفعلون ذلك دفاعاً عن أنفسهم ، ولكن كانت غلطة يزيد بن معاوية في قتل الحسين غلطة كبرى لم يمكن

أضر منها ، فظلت تعمل عملها على طول الأزمـــان . ولم يكتف السنيون بذلك بل جعلوا يقتلون كل إمام طالبي يظهر ، ونحن اذا قرأنا كتاب « مقاتل الطالبيين » لأبي الفرج الأصفهاني رعبنا من كثرة ما وقع على العلويين من قتل وتعذيب وتشريد » .

هذا هو المبدأ ، وهذه هي الفلسفة لحكم من حكم من السنيين : القتـل والتعذيب والتشريد ، باعتراف صاحب المهدي والمهدوية ، وليس هذا بغريب ولا بعجيب ممن حكم بالقهر والغلبة ، ولكن العجيب الغريب أن يشير أحمد أمين من طرف خفي إلى الاعتذار عنهم بهـذه الجملة المعترضة : « وكان السنة يدعون انهم يضطهدون دفاعاً عن أنفسهم » .. وظاهـر انه يريد بالدفاع عن النفس الدفاع عن حكم البغي والجور .

بقي علينا أن نشير في هذا الفصل إلى أمر يدل على ذهوله أو عدم تتبعه ، وانه يكتب دون أن يتثبت ، حتى حين يكتب عن السنة . لقد تحدث أحمد أمين في «ضحاه» عن الحديث بوجه عام ، وعن صحاح السنة بوجه خاص ، وعن البخاري ومسلم وصحيحها بوجه أخص . (أنظر الفصل الرابع من ضحى الاسلام المجلد الثاني) والذي تبين من كتاب « المهدي والمهدوية » انه يجهل أحاديث الصحـــاح قال في ص ٤١ : « ووضع كل – من السنة والشيعة – الأحاديث في تأييد المهدي المنتظر . ومما يشهد بالفخار للبخاري ومسلم انهما لم تتسرب اليهما هذه الأحاديث ، وان تسرب الى غيرهما من الكتب التي لم تبلغ صحتها .

هذا ، مع العلم بأن مسلماً روى في صحيحه عن النبي انه قال : «يكون في آخر أمتي خليفة يحث المال حثياً ، لا يعده عداً »[١] .

---

١ القسم الثاني من الجزء الثاني باب لا تقوم الساعة ، حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت ، وجاء في التعليق ان الترمذي وأبا داود قالا هـذا الخليفة هو المهدي . وجاء في صحيح البخاري ج ٩ كتاب الاحكام باب الأمراء من قريش : «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منها اثنان » .

وبالتالي فان كتاب « المهدي والمهدوية » يسجل على صاحبه جهله بالاسلام وعقيدته ، ومصادرها السنية والشيعية ،وتحامله على الشيعية وأجهل منه من يعتمد على آثاره ، وينقل من أقواله كحقيقة ثابتة . ولا شيء أدل على ذلك من قوله في ص ١٢٠ : « اني اعتمدت أكثر ما اعتمدت على الكتب السنية التي وصفت عقائد الشيعة » . وهذا اعتراف صريح بأنه حكم على المدعى عليه لمجرد قول المدعي ، واتخذ من الخصم حكماً وحاكماً على خصمه .. وهذا منهجه في كل ما كتب عن الشيعة .. وإذا أردت تفسيراً صحيحاً لشخصية أحمد أمين واضرابه فاقرأ الفصل الأول من هذا البحث .

العصمة في اسلوب جديد

المعصوم هو الذي لا يمكن اتهامه بالأهواء والأغراض ، ولا بالجهل والأخطاء ، لا لشيء إلا لأنه انسان كامل بكل ما في الكمال الانساني من معنى .

والذين أوجبوا العصمة بهذا المعنى للانبياء وحدهم ، أولهم ولخلفائهم الحقيقيين استدلوا بأن الناس في حاجة إلى معلم مرشد ، فان كان هذا المعلم عرضة للاخطاء احتاج إلى من يعلمه ويرشده ، وهكذا إلى ما لا نهاية .

وتقول : ان علماء الشريعة الاسلامية معلمون ومرشدون، وعلى الجاهل أن يقلدهم ويعمل بأحكامهم بدون مراجعة وسؤال ، ومع ذلك لا تجب لهم العصمة باتفاق الجميع . اذن ليس من الضروري للمعلم والمرشد أن يكون معصوماً .

الجواب :

ان الفرق كبير جداً بين النبي والعالِم ، فان العالِم يجدّ ويجتهد في في البحث والتنقيب في الكتب ، وعند الأساتذة والرواة، ويعتمد القرائن وظواهر الألفاظ ، ويفتي بموجبها اجتهاداً وعملاً بالرأي ، بعد اليأس

من الظفر بغير ما وصل اليه ، وقد يخطىء في فتواه ، إذ من الجائز أن يفهم من الظواهر غير ما تدل عليه ، لشبهة في خياله ، بل قد لا تكون تلك الظواهر والقرائن من الأدلة في شيء إلا في ظنه وحسبانه ، ومن الجائز أيضاً أن يكون هناك دليل على العكس ، ولكنه خفي عليه وعجز عن الوصول اليه ، ومن هنا يسوغ لعالِم آخر أن يقف له ويناقشه في فهمه ومعرفته ، وان كان دونه فضلاً وعلماً ، كما له أن يعدل عن رأيه إلى ضده ، أو يقلّم فيه ويطعم ، إذا استبان لديه الحق ، وهو معذور في ذلك ، حتى لو عدل من الصواب إلى الخطأ ، ما دام السبيل إلى المعرفة منحصراً فيما استخرجه من الدليل الذي استبان له بعد افراغ الوسع والجهد في البحث والتنقيب .

أما تقليد الجاهل لهذا المجتهد الذي يجوز عليه الخطأ فلأن كل انسان بالغ عاقل عليه أن يطيع ويمتثل أوامر الله ونواهيه دفعاً للعقاب والضرر المعلوم ، لو خالف وعصى ، ولا طريق للجاهل إلى الطاعة والامتثال بالاحتياط أو التقليد ، والأول عسير أو متعذر ، فتعين الثاني . ولو أبحنا للجاهل أن يخالف العالِم العادل لكان معنى هذا اننا نبيح له أن يخالف أحكام الله أو يؤديها مشوهة على غير وجهها،وبدون علم بوظائفها وأركانها وأوقاتها .

هذا هو شأن العالِم أما شأن النبي فعلى العكس من ذلك ، لأنه ينقل الحكم عن جبريل عن الله ، لا عن أبي هريرة ، ولا يرجع إلى كتاب لأن الكتب تبحث عن سنته ، ولا إلى أستاذ ، لأن قوله الفصل والحجة لجميع الأساتذة .

وبكلمة ان حكم المجتهد ذاتي لا موضوعي ، أي ان للذات و«الأنا» تأثير فيه ، ولذا يقول : أنا رأيت وفهمت ان هذا حكم الله في حقي، وليس من شك ان « الأنا » تخطىء وتصيب ، بل ان جواز الخطأ عليها أثر من آثارها ، ولازم من لوازمها التي لا تنفك .

أما قول النبي فموضوعي صرف لا أثر فيه للذات سوى التعبير عما في الواقع وفي اللوح المحفوظ ، ولذا يقول : هذا هو حكم الله بالذات ، ولا يقول : هكذا رأيت وفهمت ، ولذا استحال في حقــه العدول ، لأن العدول يتفرع عن الرأي ، ولا رأي ، بل وحي يوحى .. وبديهة ان حكاية الحكم عن الله بمعنى الوحي تستتبع عصمة الحاكي له وتلازمه ملازمة الظل للشاخص، بحيث إذا انتفت ذهبت معها النبوة لا محالة، بل ان العصمة هي النبوة ، والنبوة هي العصمة ، لأن عدم عصمة النبي معناه عدم عصمة الوحي ، وعليه فلا يكون القرآن قرآناً ، ولا جبريل أميناً، ولا محمد نبياً تعالى الله عما يقول الجاهلون .

ثم هل لمثلي ومثلك ممن يجوز عليه الخطأ والزلل أن يكون مؤهــلاً للرسالة والتبليغ عن الله ؟ اذن أين الفرق بين التابع والمتبوع ؟ ولماذا وجب على الناس التصديق والقبول من النبي ؟ وما هو السر لاختياره رسولاً ، واتخاذه خليلاً وحبيباً وكليماً دون سواه من الخلق ، إذا لم يكن فوق الشبهات والهفوات ؟

وأعتقد ان الذين اعترفوا بالنبوة ، وأنكروا العصمة قد خلطوا بين الذات والموضوع ، بين حكاية النبي للوحي ، ورأي المجتهد ، وظنوا ان النبي يعبر عن رأيه وتفهمه، ولو فرقوا بينهما لقالوا بالعصمة لا محالة، والذي يدلنا على خلطهم هذا انهم عقدوا في كتب الأصول فصلاً خاصاً لاجتهاد النبي ، كما في المستصفى للغزالي وغيره ، فلقد جاء في الجزء الثاني من هذا الكتاب : « اختلفوا في النبي : هل يجوز له الاجتهاد فيما لا نص فيه » ؟

واختار الغزالي الجواز ، وقاس النبي بغيره من المجتهدين، ومما قال :

« كما دل الدليل على تحريم مخالفة الإمام الأعظم والحاكم [1] ، لأن صلاح الخلق في اتباع رأي الإمام والحاكم وكافة الأمة ، فكذلك النبي » أي ان النبي يحكم بالرأي والظن ، تماماً كما يحكم المجتهد .. وهو كما ترى مخالفة صريحة لقوله تعالى : « لا ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى علّمه شديد القوى » .

وتقول : هذا يدل على عصمة النبي فقط دون غيره، مع ان الإمامية يقولون بعصمة الإمام أيضاً ، فما الدليل على ذلك ؟

الجواب :

ان الإمام الذي أوجب الشيعة له العصمة هو غير الإمام الذي تخيله وتصوره السنة ، فان مجرد العلم والايمان ، والكرامة والشجاعة ، والصبر والزهد والنزاهة .. كل هذه الصفات بمجردها لا تؤهل الانسان لمقام الإمامة ، كما لا تؤهله لمقام النبوة ، بل ان لذات الإمام الذي هو خليفة الرسول حقاً خصائص ومميزات لا يعلمها الا الله ، تماماً كما ان لذات النبوة خصائص ومميزات لا يعلمها إلا هو جل وعلا . وكما ان اختيار النبوة بيد الله سبحانه ، لأنه أعلم ، حيث يجعل رسالته كذلك اختيار الإمام لخلافة الرسول بيد الله لا بالتصويت والانتخاب .

فالإمام اذن ، عند الشيعة فيه جميع ما في النبي من صفات ومؤهلات وله ما للنبي على الناس من ولاية وسلطان ، ولا يفترق عنه في شيء إلا في نزول الوحي ، على ان الإمام قد أخذ عن الرسول ما نزل عليه من

---

[1] جاء في كتاب الاحكام السلطانية للفراء ، وكتاب المذاهب الإسلامية لأبي زهرة ، وغيرهما ان الحاكم الفاسق تجب اطاعته ، وتحرم مخالفته عند أكثر من واحد من أئمة السنة ، وعلمائهم ، واعتقد أن كل من أفتى بذلك فانما أفتى به خوفاً ، أو طمعاً ، لا اقتناعاً وايماناً ، ومهما يكن ، فقد اتفقت كلمة الشيعة على انه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ومن أجل هذا كان نصيبهم دائماً القتل والسجن والتشريد .

ربه ، والنتيجة الحتمية لذلك ان الإمام بهذا المعنى معصوم لا محالة تماماً كالنبي ، وان من نفى عنه العصمة فقد نفى عنه الإمامة، كما هي الحال بالقياس الى النبوة .

وبكلمة، أن من نفى العصمة عن الإمام فقد نفى عنه خلافة الرسول بمعناها الكامل الشامل من حيث يريد أو لا يريد .

وتقول : أجل ان العصمة تجب لهذا الإمام ، وان أمر اختياره بيد الله جل وعز بحكم الطبيعة ما دام على الوصف الذي ذكرت ، ولكن ما الدليل على ان الإمام الذي هو خليفة الرسول حقاً يجب أن يكون كذلك ؟

وحيث تحتاج الاجابة عن هذا السؤال الى التفصيل والتطويل الذي لا تتسع له هذه الصفحات فاني احيلك على كتاب الشافي للشريف المرتضى ، وتلخيصه للشيخ الطوسي[1] ودلائل الصدق للشيخ المظفر ، واذا وفق الله الى كتاب « الإمامة والعقل » أخذ بك في أوضح المسالك الى الجواب. وأرجو أن يوفق الله فالى اللقاء .

وتقول أيضاً : اذا وجبت العصمة لخليفة الرسول ؛ كما وجبت للرسول نفسه ، فينبغي أيضاً أن تجب للمجتهد الذي هو نائب عن الإمام مع أن الشيعة لا يلتزمون بذلك .

وجوابي عن هذا ان الفرق كبير جداً بين نيابة الإمام عن النبي وبين نيابة المجتهد عن الإمام ، فان الأولى تشمل كل ما للنبي من

---

١ أعيد طبع هذا الكتاب في مجلدين كبيرين ، وأخرج اخراجاً حديثاً ، وفيه الأدلة الشافية الكافية لاثبات الإمامة والعصمة ، والرد على كل ما قيل حولها من النقد ، بخاصة ما جاء في كتاب المغني للقاضي عبد الجبار ، وقدم له وعلق عليه السيد المعروف ببحر العلوم ، جزاه الله خيراً .

سلطان ، حتى الأولية بالناس من أنفسهم ، وليس للمجتهد هذه الولاية ولا ما يقرب منها عند الشيعة ، وانما تنحصر وظيفته بالقضاء والافتاء، ورعاية من لا ولي له ، ومن هنا كانت نيابته بالوكالة أشبه، ومع ذلك فقد تشدد الإمامية في شروط المجتهد ، ورووا عن الامام انه قال فيما قال : « أما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه ، حافظاً لدينه ، مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه » .

فصيانة النفس ، والمحافظة على الدين ، ومخالفة الهوى شرط أساسي لتنفيذ الحكم والعمل بالفتوى .. ولو ان رجلاً بلغ من العلم ما بلغ، ولم يكن على هذا الوصف لا ينفذ له قضاء ، ولا تسمع له فتوى ولا يؤتمن على فتيل لقاصر أو غائب .

وقد وجد في الشيعة ، ولله الحمد في كل عصر رجال يتمتعون بالخلال التي ذكرها الإمام ، ولكن — من سخرية الأقدار ، أو سخطها — ان يتفشى في هذا العصر وباء لا أدري : متى نقضي عليه ، أو يقضي علينا ؟.. وهو تطفل أغيلمة بنزوهم على الكراسي والأعواد ، وجلوسهم للدرس والافتاء والقضاء ، حتى تخيلنا ، أو كدنا نتخيل انهم القرود الذين رآهم النبي في منامه يصعدون منبره ، وينزلون ، أو انهم المعنيون بقوله (ص) : « هلاك أمتي على يدي أغيلمة سفهاء » وقد تجلى سفههم بتطاولهم على ما ليسوا له بأهل ، وظهر جهلهم للعيان في دسهم ونيلهم من كرامة العلماء بالتصريح تارة ، وبالتلويح واثارة الشكوك أخرى .. واذا استمرت هذه الفوضى ، ولم يقف كل منا عند حده ، فستفقد النجف مكانتها والدين هيبته وعظمته لا سمح الله .

وبعد هذا الاستطراد ، أو نفثة الفؤاد أعود الى الموضوع ، لأثير هذه التساؤلات : هل الشيعة يقدسون الأئمة الأطهار الأبرار أكثر مما تقدس سادتها وقادتها هذه الأحزاب والمنظمات في الشرق والغرب؟. وهل

كتاب رأس المـال – مثلاً – أقل شأناً عند أتباعه من القرآن عند المسلمين ، والانجيل عنـد المسيحيين ؟. وإذا كان العلم يحتم ان نأخذ بالواقع المجرد عـن الذات ، لأن النظرة الصحيحة هي التي تنظر الى الموضوع بدون أية اضافة زائدة – كما قالوا – فهل قائد الحزب هـو الواقع والموضوع ، بحيث يكون الأخذ بأقواله أخذاً بالواقع ، لا «بالأنا» على حد تعبيرهم ؟. وبالتـالي ، هل للعصمة من معنى إلاّ الاستدلال بقول المعصوم ، وجعله دليلاً قاطعاً ، وحجة دامغة تمامـاً كما تستدل الأحزاب والمنظمات اليوم وفي كل يوم بأقوال القادة والرؤساء ؟. اذن، لماذا يستنكرون العصمة ، وينعتون القائلين بها بالجهل والرجعيـة ، وفي الوقت نفسه أثبتوا هذه العصمة بالذات ، وأوجبوها بالفعل ، لا بالقول لمن وضع لهم الفكرة والعقيـدة ، وتلقوها منه كما يتلقى المؤمنون من نبيهم ، والعبيد من سيدهم وفرضوا على الناس ، كل الناس قبولهـا والعمل بها ، ونعتوا من أبـى وامتنع بالجهل والتخريف يكمن في لفظ العصمة لا معناها ؟

وتجد الجواب عن هذه التساؤلات في فصل النقد على صعيد الرغبات.. ونختم هذا الفصل بما يلي :

اتفق السنة والشيعة على فكرة العصمة ، وانهـا ثابتة في الاسلام ، واختلفوا في التطبيق فقـال السنة : هي ثابتة للجماعة ، لقول الرسول الأعظم (ص) : « لا تجتمع امتي على ضلالة » . وقال الشيعة : هذا الحديث ضعيف ، والعصمة ثبتت لأهل البيت (ع) بنص الآية ٣٣ من سورة الاجزاب : « يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » والمراد بالرجس الذنوب ، إذ لا شيء أقـذر وأوسخ منها ، ولا معنى للعصمة إلا البعد عنها والطهارة منها ، ومن أنكر عصمة أهل البيت فقد أنكر عـلى الله ، ورد شهادته بتطهيرهم وذهاب الرجس

عنهم .. بل في اعتقادي ان من انكر عصمة سلمان الفارسي فقد أنكر على الرسول الأعظم (ص) ورد شهادته وقوله : « سلمان منـــا أهل البيت » .. ومن كان من أهـــل البيت مثل سلمان فهو في حكم آية التطهير .

النجف والفوضى

عند التصحيح :

لقد شطح بي القلم في الفصل السابق الى الحديث عن « أغيلمة » هذا العصر .. وكانت تلك الشطحة أو ذاك الاستطراد نفثة مصدور ، سرعان ما ذهبت مع الريح ، كغيرها من النفثات والحسرات ، وانصرفت أنا لشأني .

والآن ، وأنا أصحح للمطبعة ما جاء في هذه «الملزمة» من أخطاء عدت الى تلك الحسرة لأرى : هل ذهل منضد الحروف عن كلمة أو حرف .. وبصورة مفاجئة جالت في رأسي أفكار وأفكار عن أوضاع الشيوخ هنا وهناك ، وادعاءاتهم الطويلة العريضة ، وعن النجف ونظامها وطلابها وأعلامها ، وكانت تلك الأفكار الباعث الأول على كتابة هذا الفصل ، وإلحاقه بما طبع من فصول ، لصلة رئيس الدين والمذهب بالامام المعصوم نيابة أو وكالة .

حسنة الشيعة :

ان كان للشيعة — اليوم — حسنة تذكر فتقدّر فهي استقلال منصب

الرئاسة الكبرى عن السياسة والسياسيين ، وتعيين الرئيس الأول ، واختياره للمنصب الأكبر بالعلم والعدل فقط لا غير ، لا بمرسوم من حاكم ، ولا بشفاعة ظالم ، ولا بانتخاب من منظمة معينة ، أو أفراد معدودين ، بل بنص طبيعي من سيرته وشخصيته ومؤهلاته ، وتاريخ حياته منذ الطفولة الى عهد الشيخوخة حتى إذا كانت طاهرة نقية قلنا جميعاً : وجدناه ، فهو هو دون سواه .. وقد امتاز الشيعة بذلك عن سائر الطوائف ، تماماً كما امتازوا بتفسير عصمة الانبياء من انها النزاهة عن الذنوب قبل النبوة وبعدها .

الفوضى :

ومن هنا كانت هذه الفوضى والتطفلات ، وهذا التكالب على لقب تقي واتقى ، وورع وأورع ، وزاهد وأزهد ، والعلامة الأوحد ، وحجة الله وآيته ، ومرجع عالي وأعلى ، ومجتهد كبير وأكبر ،الى آخر ما هو شائع ذائع ، بخاصة في ايران ، مصدر هذه الطنطنات ومسقط رأسها .. وقد كثر التسابق الى هذه الألقاب بعد ان اشتهرت الفتوى بوجوب الرجوع الى الأعلم في التقليد .

الفوضى افضل :

ومهما يكن فاني أفضّل هذه الفوضى والتطفلات على تدخل السياسة في أمور الدين والمذهب ، وأرى مخلصاً ان هذا التصدع والانحراف خير ألف مرة من تدخل السياسيين ، وان يكون تعيين الرئيس والمرجع بيد الحاكمين .. فانهم ان نظّموا فانما ينظمون الفساد ويجعلونه قانوناً ملزماً

ينفّذ بقوة الدولة ، وان اختاروا فلا يختارون الا من هو أشد خطـــراً على الدين ، وأكثر ضرراً من كل فوضى وكل تطفـــل ، وأي شيء أضر وأخطر من تصاغر نائب الإمام ، وتضاؤل الأمـــين على دين الله وشريعته أمام حاكم ظالم وفاسق مستهتر ، لا لشيء الا لأنه يتحـــكم في هذا المنصب وصاحبه ؟ لأجل هذا وغيره من المفاسد أفضّل التقاليـــد النجفية بعلاتها على تدخل السياسة ، أفضّل هذه التقاليد أنا وكل مخلص لدينه وأمته يريد أن تتصاغر الدنيا وأبناؤها أمام دين الله وعلمائه وأمنائه، أما من أراد العكس فما هو من الدين ولا الانسانية في شيء .

شيعة علي حقاً :

ان تاريخ الشيعة – أقصد شيعة علي قولاً وعملاً – يدل بصراحة ووضوح على انهم لم يسالموا ويتفاهموا في يوم من الأيام مع السياسة الظالمة الغاشمة ، ولا مع أي انسان لا يقيم للدين وزناً ولا للحق شأناً .. ذلك ان الدين عندهم فوق كل شيء ، وأعز من كـــل عزيز ، حتى من الأهل والعيال ، والنفوس والأموال ، أمـــا الشاهد عـــلى هذه الحقيقة فأصحاب علي والحسين ، وزيد بن علي ، وشهداء فخ ، وغيرهم وغيرهم من العلماء والشعراء ممن ذكرنا في كتاب « الشيعة والحاكمون » .

لقد أصاب الشيعة من السجن والصلب ، والتقتيل والتشريد ما تعجز عن وصفه الألسن والأقلام،لا لشيء الا لأنهم رفضوا الانصياع والانقياد إلا لمن اختاره الله ، وأراده رسول الله ، وارتضاه أولياء الله ، لا من أراده حاكم ومتزعم ليحلل لهواهما ويحرم .. ومن هنا كان لرؤساء الدين والمذاهب وكلاء الإمام حقاً هـــذه المكانة في النفوس ، وهذا التعظيم والتكريم .

الرئيس :

ان هذا الحب والاخلاص ، وهذا الخضوع والطاعة؛ان هذا الشعور الديني الخالص من كل شائبة الذي يحسه في قرارة نفسه كل شيعي في الشرق والغرب نحو من يمثل الدين حقاً ؛ ان هذا الشعور ما كان،ولن يكون ، لو ارتبط هذا المنصب الإلهي بالسياسة والساسة من قريب أو بعيد ، وانّى للسياسة واباطيلها ان يكون لها ما لدين الله من عظمة وجلال ، وهيبة وكمال ؟

وان شككت في شيء فلن أشك أبداً في ان هذا المنصب ينطوي على كثير من أسرار النبوة والإمامة الحقة ، وانه الدعامة الأولى للدين والمذاهب ، والدعاية الكبرى لنشره واعزازه[1] بل لبقائه واستمراره .. ومن هنا كان له هذا التقديس والتعظيم في نفس الموافق والمخالف .

الدعاية :

وقد دلتنا التجارب ان في هذا المنصب سراً عميقاً ، لا نجد له أي تفسير الا في قاعدة اللطف العقلية ، والعناية الإلهية .. ذلك ان كثيراً ما تهيأ الاعلانات ، وتعبأ الدعايات لشخص بعينه ، حتى نظن معها ان الرئاسة الدينية قد أتت تجرجر اليه اذيالها ، ولكن سرعان ما يتبخر كل

---

١ في سنة ٦٢ زرت بلاد العلويين في سورية ، وفي سهرة قضيتها في بيت أحد الوجهاء ببانياس قال لي علوي : نحن لا نعترف بأحد من العلماء سواك ، حتى « فلان » لا نعترف به ، واسمى مرجعاً كبيراً .. لأنك الوحيد الذي يدافع ، ويكافح . فساءني ما سمعت ، وقلت له : انك لا تعرف شيئاً من هذا الباب ، وان مثلك مثل من رأى قائد جيش يحسن القتال ، ويدافع عن العاصمة ولوائها ، ويحرسها من أعدائها وذهل عن القاعدة الأولى ورئيس الدولة الذي لولاه لم يكن للكيان من عين ولا أثر .. ولولا من ذكرت ومنصبه السامي لم يكن للشيعة والتشيع من اسم ولا رسم ، فقال : أجل ، واعتذر .

شيء كأن لم يكن ، ويتولى الرئاسة رجـــل ما كان على البال ، ولا الخاطر ، أو على بال ناء بعيد .. وان دل هذا على شيء ، فانما يدل على ان الدعايات والاعلانات ، ان أجدت ،فانما تجدي في السلع والبضائع ، والمناصب الزائلة الزائفة . أما في الشؤون الدينية ، والمناصب الإلهية فانها لا تجدي نقيراً ، وسبحان من اصطفى لدينه الأطهار،ولملة رسوله الأبرار.

أخطاؤنا :

قلت : اني أرجح الفوضى على تنظيم الساسة والسياسة ، وأفضل أنا وكل عاقل التقاليد النجفية بعلاتها على أي تدخل خارج عن الدين وأهله، وليس معنى هذا اني سأسكت وأصمت عما نحن فيه من عيوب وأخطاء ، حرصاً على الهيئة الدينية ، والحوزة العلمية ، كما يقولون .. كلا ، ثم كلا .. كيف ، وأنا مؤمن بأن السبيل الى القضاء على الرذيلة والأخطاء هو ان نعرفها ، ونعترف بها ، ونشعر بوجوب الخلاص منهـــا ، أما السكوت والصمت ، اما التجاهل وغض الطرف عن العيوب فمعناه الامضاء لها ، والابقاء عليها ، ومعناه أيضاً تشجيع الاغيلمة ومن اليهم على تعدي الحدود ، والفضول والتطفل [1] .

ثم ما معنى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ؟ هل معناه اننـــا مسؤولون عن غيرنا ، ولسنا مسؤولين عن أنفسنا ؟ ثم لماذا نحرص كل الحرص على ان يستر بعضنا على بعض ، ونخاف هذا الخوف من النقد والصراحة ؟ وهل من سر سوى الجبن والهلع من الفضائح والقبائح ؟

ولو كنا على قليل من الوعي والشجاعة ، أو عـــلى شيء من حب

---

[1] إن كان من شروط الأمر بالمعروف احتمال النفع فاني لأرجو أن ينتفع واحد من مئة بقراءة مـــا كتبت في فقرة الفوضى من هذا الفصل ، ان كان من عشاق الألقاب .

الخير لأنفسنا لرحّبنا بالنقد والناقد ، بل وبحثنا عنـــه في كل مكان ، فان لم نجده أوجدناه ، وخلقناه على شريطة أن يكون مخلصاً في أهدافه، خبيراً بالاسواء والادواء ، يجب ان نطلب هذا الناقد وندعوه للنقـــد ، تماماً كما يجب أن نبحث عن الطبيب الناصح الماهر ، وندعوه للعلاج .

وبالتالي ، فاني سأنتقد كل عيب ونقص أراه في قومي الذين أشهد الله وأنبياءه وأولياءه على المرارة التي أعانيها من أجلهم .. اني ادين لهم بالاخلاص ، وأتمنى لهم كل الخير ، وان يكونوا فوق الناس أجمعين، ولذلك أنتقد كل عيب فيهم ونقص ، وأعلنه على الملأ ، ولا أخشى لومة لائم من كبير أو حقـــير ، ما دمت مخلصاً لله ولهم ، واعياً ما أقول ،آملاً أن يتحسسوا ويشعروا بالمسؤولية تجاه خالقهم ونفسهم وأمتهم .

وأهلاً ومرحباً بمن يهدي الي عيوبي بقلب طاهر ، وعقل ساهر .

المهدي المنتظر

حدثتك في المقدمة عن رسالتين تتصلان بهذا الفصل ، وان صاحب احداهما اقتنع بفكرة المهدي المنتظر ، واهتدى بعد قراءته .. أما صاحب الثانية فقد رآه ممكناً بعد أن كان يراه ممتنعاً .. اذن ، لهذا الفصل أثره الصالح في هداية الحائر التائه عن سبيل الحق ، وهذا ما دعاني وشجعني أن أضعه بين يديك لتعطفه على الفصول السابقة ، فانه الجزء المتمم لها، واثقاً كل الثقة انك ستنضم الى صاحبي الرسالتين ، ان كنت من التائهين عن الحق ، والطالبين له .

الدين والعقل :

أشاد الاسلام بالعقل وأحكامه،ودعا الى تحرره من التقاليد والأوهام، ونعى على العرب وغير العرب الذين لا يفقهون ولا يعقلون ، ويؤمنون بالسخافات والخرافات ، وقد أنزل الله في ذلك عشرات الآيات،وتواترت به عن الرسول الأعظم الأحاديث والروايات ، وأفرد له علماء المسلمين أبواباً خاصة في كتب الحديث والكلام والأصول .

سؤال :

وتسأل – أيها القارىء – هل معنى اشادة الاسلام بالعقل انه يدرك صحة كل أصل من أصول الاسلام ، وكل حكم من أحكام الشريعة ، بحيث اذا حققنا ومحصنا أية قضية دينية في ضوء العقل لصدقها وآمن بها ايمانه بأن الاثنين أكثر من الواحد ؟

الجواب :

كلا، ولو أراد الاسلام هذا من تأييده للعقل لقضى على نفسه بنفسه، ولكان وجوده كعدمه ، ولوجب أن يؤخذ الدين من العلماء والفلاسفة لا من الأنبياء وكتب الوحي . ان للعقل دائرة ، وللدين أخرى ، وكل منهما يترك للآخر الحكم في دائرته واختصاصه ، على أن يقر كل منهما الآخر ، ولا يعارضه في شيء ، والانسان بحاجة الى الاثنين ، حيث لا تتم له السعادة والنجاح الا بهما معاً .

ان الغرض الأول الذي يهدف اليه الاسلام من الاشادة بالعقل هو ان يؤمن الانسان بما يستقل به من أحكام ، ولا يصدق شيئاً يكذبه العقل ويأباه . ان العقل لا يدرك كل شيء ، وانما يدرك شيئاً ، ولا يدرك شيئاً ، والذي يعلم كل شيء هو الله وحده . فوجود الله وعلمه وحكمته ، واعجاز القرآن الدال على صدق محمد في دعوته ، وما الى ذاك يدركه العقل مستقلاً ، ويقدم عليه البرهان القاطع . أما وجود الملائكة والجن ، والسير غداً على صراط أدق من الشعرة ، وأحدّ من السيف ، وشهادة الأيدي والأرجل على أصحابها ، وتطاير الكتب ، وسؤال منكر ونكير ، ونحو ذلك مما لا يبلغه الاحصاء ، وثبت بضرورة الدين – أما هذه فلا تفسر بالعلم ، وليس فيه للعقل حكم بالنفي أو الاثبات . ان الدين غير محصور ولا مقصور فيما يدركه العقل، بل يتعداه الى أمور غيبية يؤمن بوجودها كل من آمن بالله والرسول واليوم الآخر.

ولكن الدين في جميع أحكامه وتعاليمه لا يعلم الناس ما يراه العقل محالاً، أو مضراً . كيف ؟ ولولا العقل لاستحال الايمان بشيء من الأشياء .

وبالتالي ، فليس كل ما هو حق يجب ان يثبت بطريق العقل ، ولا كل ما لم يثبت بالعقل يكون باطلاً – مثلاً – ان مسألة المهدي المنتظر لا يمكن اثباتها بالآلة العقلية ، مباشرة وبلا واسطة ،لا لأنها غير صحيحة وباطلة من الأساس ، بل لأنها ليست من شؤون العقل واختصاصه . ان عجز العقل عن ادراك قضية من القضايا مباشرة شيء ، وكونها حقاً أو باطلاً شيء آخر ، أجل ، ان مسألة المهدي يدركها العقل بالواسطة ، بحيث تنتهي السلسلة الى حكمه ، ذلك ان العقل يحكم بوجود الله، ويتفرع عن وجوده وجود النبوة ، وعن وجود النبوة تتفرع الإمامة والمهدي المنتظر الذي أخبر عنه الصادق الأمين بحكم العقل .

العادة والعقل :

فرقٌ بين ما هو ممتنع الوقوع في نفسه ، بحيث لا يمكن ان يقع بحال ، حتى على أيدي الأنبياء والأولياء ، كاجتماع النقيضين ، وجعل الواحد أكثر من اثنين ، وبين ما هو ممكن الوقوع في نفسه . ولكن العادة لم تجر بوقوعه كالأمثلة الآتية ، وما كان من النوع الأول يسمى بالمحال العقلي ، وما كان من النوع الثاني يسمى بالمحال العادي، وكثير من الناس يخلطون بين النوعين ، ويتعذر عليهم التمييز بينهما ، فيظنون ان كل ما هو محال عادة هو محال عقلاً .

واليك الأمثلة : لقد اعتدنا ان لا نرى عودة الأموات الى هذه الدنيا، وأن يولد الصبي ، ولا يكلم الناس ساعة ولادته ، وإذا جاع أحدنا لا تنزل عليه مائدة من السماء ، وإذا أصابه العمى والبرص لا يشفى بدون علاج وإذا سبّح الله وحمده لا تردد الجبال والطير معه التسبيح والتحميد،

وإذا أخذ الحديد بيده لا يلين لـه كالشمع . وإذا سمع منطق الطير لا يفهم منه شيئاً كما يخفى عليه حديث النمل ، ويعجز عن تسخير الجن في عمل المحاريب والتماثيل . ولم يشاهـد انسان مات منذ قرون ، ولا انقلاب العصا الى ثعبان ، ولا وقوف مياه البحر كالجبال ، ولا جلوس الانسان في النـار دون أن يناله أي أذى . فكل هذه وما اليها لم تجر العادة بوقوعها ، ولم يألف الناس مشاهدتها ، لذا ظن من ظن انهـا مستحيلة في حكم العقل ، مع انها ممكنة عقلاً ، بعيدة عادة . بل وقعت بالفعل .

فلقد أخبر القرآن الكريم بصراحـة لا تقبل التأويل ان السيد المسيح كلم الناس وهو في المهد ، وأحيا الموتى ، وابرأ الأكمـه والأبرص ، وأنزل مائدة من السماء وانه ما زال حياً وسيبقى حياً الى يوم يبعثون ، وان النار كانت برداً وسلاماً على ابراهيم ، وان عصا موسى صارت ثعباناً ، وان الحديد لان لداود ، وسبح معه الطير والجبال ، وان سليمان استخدم الجان ، وعرف لغة الطيور والنمل . ان هذه الخوارق محـال بحسب العادة جائزة في نظر العقل ، ولو كانت محالاً في نفسها لامتنع وقوعها للانبياء وغـير الأنبياء . فكذلك بقاء المهدي حياً ألف سنة أو ألوف السنين واختفاؤه عن الأنظار – كما يقول الإمامية – بعيد عادة، جائز عقلاً ، واقع ديناً بشهادة الأحاديث الثابتة عن رسول الله (ص) ، فمن أنكر إمكان وجود المهدي محتجاً بأنه محال في نظر العقل يلزمـه ان ينكر هذه الخوارق التي ذكرها القرآن ، وآمن بها كل مسلم ، ومـن اعترف بها يلزمه الاعتراف بامكان وجود المهدي ، والتفكيك تحـكم وعناد . اذ لا فرق في نظر العقل بين بقاء المهدي حياً ألوف السنين ، وهذه الخوارق من حيث الامكان وجواز الوقوع ، مـا دام الجميع من سنخ واحد .

أحاديث المهدي :

ألف علماء الامامية كتباً خاصة في المهدي ، منهم محمد بن ابراهيم النعماني ، والصدوق ، والشيخ الطوسي ، والمجلسي الذي خصص له المجلد الثالث عشر من بحاره . وذكر هؤلاء العلماء وغيرهم كل ما يتصل بالمهدي من الأحاديث النبوية بخاصة ما جاء في كتب السنة ، وبصورة أخص الصحاح منها . وقد استقصاها السيد محسن الأمين في القسم الثالث من الجزء الرابع من « أعيان الشيعة » طبعة سنة ١٩٥٤ ، ورغم ثقتي بهؤلاء الأعلام ، ويقيني بصدقهم عما ينقلونه من غيرهم فاني تتبعت بنفسي ما تيسر لي مراجعته من كتب السنة خشية الاشتباه بالنقل ، أو في فهم الحديث وقبوله للتأويل ، ولأن القدامى وأكثر الجدد من علمائنا ينقلون عن الكتاب الذي يبلغ المجلدات دون ان يشيروا الى رقم الصفحة ، ولا تاريخ الطبع ، حتى ولا اسم المجلد ، وربما اكتفوا بالقول « جاء في كتب السنة أو قال السنة » .

وأكتفي هنا بنقل ما جاء في ثلاثة كتب من الصحاح الستة[1] لأن لفظ أحاديثها هو بالذات لفظ الأحاديث المروية في كتب الإمامية . قال ابن ماجة في سننه ج ٢ طبعة سنة ١٩٥٣ الحديث رقم ٤٠٨٢ :

« قال رسول الله : إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ، وان أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءً شديداً وتطريداً حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود ، فيسألون الخير فلا يعطونه ، فيقاتلون فينتصرون ، فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها الى رجل من أهل بيتي فيملأها قسطاً كما ملئت جوراً » .

---

[1] كتب الحديث الصحيحة عند السنة : البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة .

والحديث رقم ٥٠٨٣ :

« قال رسول الله : يكون في أمتي المهدي ، ان قصر فسبع والا فتسع ، تنعم فيه أمتي نعمة لم تنعم مثلها قط ، تأتي أكلها ولا تدخر منه شيئاً ، والمال يومئذ كدوس ، فيقوم الرجل يقول : يا مهـــدي اعطني . فيقول : خذ » .

والحديث رقم ٤٠٨٥ : « المهدي منا أهل البيت » .

والحديث رقم ٤٠٨٦ : « المهدي من ولد فاطمة » .

والحديث رقم ٤٠٨٧ : « نحن بني عبد المطلب سادة أهل الجنة : أنا وحمزة وعلي وجعفر والحسن والحسين والمهدي » .

وقال أبو داود السجستاني في سننه ج ٢ طبعة سنة ١٩٥٢ ص ٤٢٢ وما بعدها :

« قال رسول الله : لو لم يبق من الدنيـــا الا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبـي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت ظلماً وجوراً » .

وفي حديث آخر : « المهدي مني ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ، ويملك سبع سنين » .

وجاء في صحيح الترمذي ج ٩ طبعة سنة ١٩٣٤ ص ٧٤ :

« قال رسول الله : لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجـــل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي » .

وفي ص ٧٥ : « قال رسول الله : يلي رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي ، ولو لم يبق من الدنيا الا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يلي » .

وجاء في كتاب « كنوز الحقائق » للامام المناوي المطبوع مع كتاب

«الفتح المبين» سنة ١٣١٧ هـ ص ٣ : « ابشري يا فاطمة المهدي منك »[1].

هذا المهدي الذي أثبته الإمام المناوي وصحاح السنة ، وكثير من مؤلفاتهم هو بالذات المهدي المنتظر الذي قالت به الإمامية ، فاذا كان المهدي خرافة وأسطورة فالسبب الأول والأخير لهذه الأسطورة هو رسول الله . تعالى الله ورسوله علواً كبيراً . حتى لفظ « يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً » ، حتى هذه الجملة التي عابوها على الإمامية وسخروا منها ومنهم هي بحروفها للرسول الأعظم لا للامامية فان يك من ذنب فالنبي هو المسؤول ، حاشا الله والرسول .

ان الذين يسخرون من فكرة المهدي انما يسخرون من الاسلام ونبي الاسلام ، من حيث يشعرون أو لا يشعرون . وينطبق عليهم الحديث الذي نقله صاحب الأعيان في الجزء الرابع عن « فوائد السمطين » لمحمد ابن ابراهيم الحموني الشافعي عن النبي « من أنكر خروج المهدي فقد كفر بما أنزل على محمد » .

قال بعض المؤلفين : « اخترع الشيعة فكرة المهدي لكثرة ما لاقوه وعانوه من العسف والجور ، فسلّوا أنفسهم ومنوها بالمهدي الذي يملأ الأرض عدلاً ، وينصفهم من الظالمين والمجرمين » .

ولو كان هذا القائل على شيء من العلم بسنة الرسول لما قال هذا ، لقد تخيل أشياء لا أصل لها ولا أساس ، ثم أعلنها على انها عين الحق والواقع ، ولست أعرف أحداً أجهل واجرأ على الباطل ممن يكتب في موضوع ديني ويعطي أحكاماً قاطعة قبل أن يرجع الى كتاب الله وسنة الرسول ، وقبل أن يبحث وينقب عن أقوال العلماء وآرائهم . ان العلم

---

١ نقلنا في فصل « المهدوية وأحمد أمين » حديثاً في المهدي عن صحيح مسلم رداً عليه حيث زعم ان أحاديث المهدي لا وجود لها في هذا الصحيح ، كما نقلنا عن أحمد أمين بالذات في كتابه المهدي والمهدوية ان كلا من الإمام الشوكاني ، وأحمد الصديق ، وأبي الطيب الحسيني وضع كتاباً خاصاً لاثبات المهدي المنتظر ، فراجع .

معرفة الشيء عن دليله ، أما القول بالظن والتخرص كما فعـل الذين أنكروا وجود المهدي فجهالة وضلالة .

وبالتالي فان الإمامية لولا هذه الأحاديث التي أوردها أصحاب الصحاح لكانوا في غنى عن القول بالمهدي ، وبكل ما يتصل به من قريب أو بعيد ، ولكن ما العمـل ، وهم يتلون قوله تعـالى « ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

وبكلمة ، لقد أخـبر النبي عن المهدي فوجب التصديق به ، تمامـاً كما وجب التصديق بمن سبق من الأنبياء لأن القرآن الكريم أخبر عنهم.

ورب قائل : ان الأحاديث النبوية التي نقلتها عن صحاح السنة انما دلت على خروج المهدي في آخر الزمان ، دون أن تتعرض من قريب أو بعيد الى وقت ولادته . اذن فمن الجائز انه يولد في القرن الذي يخرج فيه ، لا انه قد ولد بالفعل وقبل خروجه بقرون ، كما قال الإمامية .

الجواب :

ان القول بخروج المهدي وولادته ، وكل ما يتصل به لا مستند له إلا الأحاديث النبوية ، غاية الأمر ان خروجه في آخر الزمان ثبت بطريق السنة والامامية . أما ولادته فقد ثبتت بطريق الاماميـة فقط ، وليس من الضروري لأن يؤمن المسلم بشيء ان يثبت بطريق الفريقين ، وانمـا الواجب ان يؤمن بما يثبت عنده ، على شريطة ان لا يناهض ايمـانه حكم العقل ويصادمه ، وقد بيّنا ان بقاء المهدي حياً تماماً كالخوارق التي حدثت لابراهيم وداود وسليمان وموسى وعيسى وغـيرهم من الأنبياء ، لا تتنافى وشيئاً مع حكم العقـل بالامكان ، لأنها قد حدثت بالفعل ، والدالّ على الوقوع دالّ على الامكان بالضرورة .

هذا ، وان جماعة من كبار علماء السنة قالوا بمقالة الامامية ، وآمنوا بأن المهدي قد ولد وانه ما زال حياً . وقد ذكر السيد الأمين أسماءهم

في الجزء الرابع من الأعيان ، ونقل الثناء على علمهم والثقة بدينهم عن كثير من المصادر المعتبرة عند السنة ، وهم :

١ — كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي في كتابه « مطالب السؤول في مناقب آل الرسول » .

٢ — محمد بن يوسف الكنجي الشافعي ، في كتابيه « البيان في أخبار صاحب الزمان » . و « كفاية الطالب في مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب » .

٣ — علي بن محمد الصباغ المالكي في كتابه « الفصول المهمة » .

٤ — أبو المظفر يوسف البغدادي الحنفي المعروف بسبط ابن الجوزي في كتابه « تذكرة الخواص » .

٥ — محي الدين بن العربي الشهير في كتابه « الفتوحات المكية » :

٦ — عبد الرحمن بن أحمد الدشني « عقائد الأكابر » .

٧ — عطاء الله بن غياث الدين في كتابه « روضة الأحباب في سيرة النبي والآل والأصحاب » .

٨ — محمد بن محمد البخاري المعروف بخواجة ربارسا الحنفي في كتابه « فصل الخطاب » .

٩ — العارف عبد الرحمن في كتابه « مرآة الأسرار » .

١٠— الشيخ حسن العراقي .

١١— أحمد بن ابراهيم البلاذري في « الحديث المتسلسل » .

١٢— عبدالله بن أحمد المعروف بابن الخشاب في كتابه « تواريخ مواليد الأئمة ووفياتهم » .

هذي هي مسألة المهدي المنتظر عرضناها على العقل فلم ينكرها،وعلى القرآن الكريم فوجدنا لها اشباهاً ونظائر ، وعلى سنة الرسول فكانت هي المصدر الأول ، وعلى علماء السنة فألفيناهم مجمعين عليها . ومنهم

هؤلاء الذين قالوا : انه ولد ، وانه حي الى ان يـأذن الله ، فأين مكان الغرابة والخرافة في قول الامامية ؟!

وكأني بقائل : مالك ولهذي الموضوعات التي أكل الدهر عليها وشرب أليس من الأجدر والأليق بك ، وبالصالح العام أن تعرض عن هـذه الى أوضاعنا وضياعنا، الى الحديث عن الحلول لما نعانيه من مشاكل وآلام.

قلت : أجل، والله . نحن في أشد الحاجة الى الأفعال لا الى الأقوال. الى السكوت عما مضى وكان ، والاهتمام بما هو كائن ويكون . ولكن ماذا نصنع ؟ ونحن نقرأ بين الحين والحين كتاباً أو مقالاً يكفر الملايين، ويطعنها في أقدس مقدساتها ، وينعتها بالجهل والسخف ، وانها لا تصلح للحياة ولا لشيء إلا للسخرية والاستهزاء ، وان التشيع الذي تتمذهب به لا يعد من المذاهب الاسلامية في شيء وانما هو دين ابتدعه أعداء الاسلام وخصوم الانسانية ؟!

ماذا نصنع ؟ هل يجب أن نسكت ونتغاضى عن هذه الهجمات والحملات ؟ هل يحرم علينا الدفاع عن النفس وبيان الحقيقة ، وابطال التهم الكاذبة التي تزداد وتتفاقم بالتجاهل والاغضاء ؟! ثم هل يجتمع شمل المسلمين، وتتحد كلمتهم بهذه النزوات والضلالات أو باثبات ان ما قاله الإمامية في المهدي هو من الاسلام في الصميم . وهذي هي المهمة التي يضطلع بها هذا الكتاب .

فهرست

النبوة والعقل

الآخرة والعقل

المهدي المنتظر والعقل